تنظيمات الحركة الإسلامية الحديثة

غُلوّ المنهج وتطرّف التطبيق

الباحث/ علاء سعد حميده

بكالوريوس زراعة– دبلوم عام في التربية

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

باحث وكاتب

الجنسية/ مصري

دمنهور– بحيرة

هاتف ٠١٥٥١٣٩٩٠٤

بريد إلكتروني alaasaadhassan@gmail.com

تنظيمات الحركة الإسلامية الحديثة

غُلوّ المنهج وتطرّف التطبيق

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع الدراسة: الغلوّ والتطرّف آفة من آفات الإنسان، وهي ليست وليدة العصر الحديث، وليست بالضرورة تسيطر على العقول والنفوس كردّ فعل دفاعي تبديه بعض الجماعات البشرية إذا واجهت واقعًا يتم فيه الإساءة للقيم الدينية النبيلة، والمبادئ السامية، وتُستباح فيه بعض المحرّمات، ولا هي حالة رفض ومواجهة من قِبل جماعة بشرية تجاه ظلم تُوقعه الجماعات البشرية الأخرى عليها. وإنّما هي إحدى غرائز البشر، مثلها مثل كثير من الشهوات والغرائز، نزل الدين لتهذيبها والحدّ منها والسيطرة عليها ومحاربتها، ولذلك ما عرفت البشرية نوعًا من الانحراف العقائدي قديمًا قبل نزول الإسلام، إلا وكان الغلوّ والمبالغة والتطرّف في تقدير الرموز سببًا من أسباب هذا الانحراف الخطير بالعقيدة، إنّ عملية الشرك بالله –تعالى–، وهي أخطر انحراف عقدي وفكري عرفته البشرية طوال تاريخها، كان في الغالب الأعمّ بسبب الغلوّ والمبالغة والتطرّف في تقدير الأنبياء "**وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**" التوبة٣٠، أو الغلوّ والتطرّف في تقدير الصالحين "**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ**" التوبة٣٠. وكذلك كانت فتنة قوم نوح –عليه السلام–، فتنتهم بصلحائهم وغلوّهم فيهم، وتطرّفهم في تقدير مكانتهم حتى أشركوا تماثيلَ صنعوها لهم لتخليدهم في العبادة مع الله –تعالى– "**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**" نوح٢٣، حتى عندما اتخذت بعض الأقوام من ملوكهم آلهة من دون الله، فقد كان ذلك من المبالغة والغلوّ والتطرّف في تقدير مقامهم وقوتهم وملكاتهم الشخصية.. ومن أجل ذلك حذّر القرآن الكريم، وحذّرت السُنّة النبوية من الغلوّ في الدين غير الحق، ورغم هذا التحذير الواضح الصريح والمتكرّر، فإنّ ظاهرة الغلوّ والتطرّف أطلّت برأسها مبكّرًا في تاريخ المسلمين نحو عام ٣٧ هجريًا، رافعة شعار "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**" يوسف٤٠، هذه الجماعة الأولى التي اعتنقت مبادئ الغلوّ والتطرّف في الإسلام، أسمت نفسها بأهل الإيمان، بينما عرفهم المسلمون طوال التاريخ بالخوارج.

ولأنّ الرسول –صلى الله عليه وسلم– هو النبي الرسول الخاتم للرسل والأنبياء، فكان لا بدّ أن يقيّد المولى –عز وجلّ– لهذه الأُمّة من يقوم بأمر الإصلاح والحِسبة وتجديد أمر هذا الدين، بإحياء ما اندثر من تعاليمه وآدابه، والتاريخ الإسلامي كلّه حافل بحركات الإصلاح والتجديد التي بشّر بها الرسول –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الذي رواه أبو هريرة، وأخرجه أبو داود في صحيحه: "إِنَّ اللَّهَ يبعثُ لِهَذِهِ الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ من يجدِّدُ لَها دينَها"، مثّلت هذه الحركات الإصلاحية التجديدية، صمام الأمان الذي حمى أُمّة الإسلام عبر تاريخها من الزيْغ أو الانحراف، وعملت على إبقاء قيَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والخير، والتناصح بالنفع، والاحتساب والعمل العام، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتعليم الناس ما جهلوه من تعاليم دينهم، وإحياء ما تعرّض للنسيان أو الإهمال من سُنن الإسلام وشعائره، واختطّت لنفسها خطًّا مستقيمًا واضحًا، حتى يستطيع المؤرّخ المدقّق أنْ يعتبرها كلّها على اختلاف أزمنتها، وأماكن نشأتها وانطلاقها، حركة في خطٍّ واحد متوارث ومستمرّ، يمكن التعبير عنه بخطّ أو مسار حركة الإصلاح على مدار تاريخ الأُمّة المسلمة.. ثمّ أعقب هذا المسار الإصلاحي التاريخي، ظهور حركات أو جماعات جديدة انتهجت لنفسها منهجًا جديدًا في الحركة بالإسلام، نتيجة ظروف وعوامل تاريخية وبيئية داخلية وخارجية أحاطت بالأُمّة، تمثّلت في الركود الفكري والجمود على التقليد، مع عدم التجديد في الفكر والفقه في عالم يموج بالمتغيّرات السريعة الحادّة، والتقلّبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع سيطرة الاحتلال الأجنبي على كثير من بلدان العالم الإسلامي، في الوقت الذي عانت فيه الدولة العثمانية من الضعف وقد أصابتها الشيخوخة والعجز، وكادت تلك الحركات والجماعات الجديدة أن تلحق بمسار حركة الإصلاح الإسلامي على مرّ التاريخ، لو أنّ أصولها الفكرية والاعتقادية سلِمت من نزعات الغلوّ والتطرّف التي سيطرت على بعض توجّهاتها، فضخّمت في واجب أو أكثر، أو قيمة أو أكثر من قيم الإسلام، فحوّلت الواجب إلى رُكن، والقيمة الإسلامية إلى أصل ثابت

من أصول الإسلام لا ينهض الإسلام إلا به، فبالغت في أمور ما عرف تاريخ المسلمين هذا القدر من المبالغة في أمثالها، وكفّرت عن ما ليس عليه تكفير، فأُريقت الدماء في أكثر من بقعة من بقاع المسلمين، وانتشرت تلك التنظيمات والجماعات وتعدّدت واستحوذت على مساحة الدعوة والعمل العام، وتبعتها حركة نشر للكتب والدوريات قوية مؤثّرة، جعلت لتلك الجماعات مساحة واسعة في مختلف المجتمعات المسلمة، وانتشرت كذلك في العالم. ويعمل هذا البحث في المقام الأول على تتبّع الأصول والأطروحات الفكرية التي تتّسم بالغلوّ والتطرّف التي تطرحها هذه التنظيمات والجماعات، رغم أنّ الكثير منها ترفع لافتات الوسطية والاعتدال على خلاف الحقيقة. ويعرض البحث لأهم أطروحات تلك الجماعات من واقع كُتبهم ودورياتهم، مع تبيين أهمّ نقاط الغلوّ والتطرّف فيها، وردود علماء الأُمّة عليها، وملاحظة أثر هذه الأُطروحات في ممارسات تلك الجماعات. وعرضت الدراسة بالنقد والتحليل بعد سردها لأهمّ أطروحات أئمة وقادة وزعماء هذا الاتجاه، ورؤوس تلك التنظيمات والجماعات، فعرضت لأطروحات الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في نجد في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، حيث ركّزت دعوته على التوحيد الخالص، وبالغ مبالغة شديدة بلغت حدّ الغلوّ والتطرّف في مسألة البدع الشركية التي كانت منتشرة في زمنه وبيئته إبّان دعوته، فأخرج هؤلاء المبتدعين من دائرة الإسلام، واعتبرهم مرتدّين أصليين، واستباح دماءهم على ذلك وقاتلهم وأمر بقتالهم، حتى يعودوا إلى ما يعتقده التوحيد الخالص ويتركوا هذه الشركيات. وبيّنا رأي جمهور علماء الأُمّة في أنّ هذا النوع من البدع الشركية يُعدّ من الشرك الأصغر الذي يُعتبر الإصرار عليه من كبائر الذنوب دون أن يكون موجبًا للخروج من الإسلام أو الحكم بتكفير فاعليه، أو الإفتاء بقتالهم، ثمّ التورّط فعليًا في القيام بهذا القتال في ممارسة حصدت آلاف البشر من المسلمين، ولو كانوا عُصاة أو مبتدعين.

ثمّ عرّجت الدراسة على الشيْخين مُحب الدين الخطيب محرّر صحيفة الفتح، ومؤسس جمعية الشبّان المسلمين في مصر، ومحمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الشهيرة التي أثّرت الثقافة

الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، في النصف الأول من القرن العشرين. وعابت الدراسة عليهما تورُّطهما المبالَغ فيه في تأسيس والاشتراك في تكوين العديد من الجمعيات والأحزاب السرّية، واضطراب موقفهما من السياسة، واتخاذهما الكثير من المواقف السياسية المتناقضة، وكذلك انغماسهما انغماسًا كبيرًا في السياسية رغم تحذير الأستاذ الإمام محمد عبده –أستاذ رشيد رضا– له من هذا الانغماس في السياسة، ومنعه عن التورّط فيه في حياته، فلمّا توفّاه الله، انطلق رشيد رضا في السياسة بلا حدّ، كما كان للشيخين دورٌ بارز في نقل أفكار ومبادئ الحركة الوهّابية في نجد والحجاز.

ثمّ عرضت الدراسة لفكر الشيخ حسن البنا، وبيّنت أنّ الغلو في منهجه نشأ من مبالغته في أمر الحُكم في الإسلام، ونقلِه من باب الواجبات المؤكّدة على الأُمّة إلى باب أركان الإسلام وأصوله، وهو الأمر الذي لم يقرّه الجمهور من علماء أهل السُنّة والجماعة على مدار التاريخ.

وكذلك لأفكار أبو الأعلى المودودي في شبه القارة الهندية مؤسّس الجماعة الإسلامية بباكستان، وصاحب كتاب المصطلحات الأربعة في القرآن، الذي أصدره في عام ١٩٤١م، وهو الكتاب الذي يحمل نظريته السياسية في تفسير الإسلام، وفيه جعل الحاكمية هي الأصل الذي يدور حوله الدين كله، وأوردنا ردود علماء الأُمّة على هذا الانحراف الدقيق، والذوق الديني المختلف الذي أسّس له المودودي.. ثمّ أفكار سيد قطب الذي نقل أفكار المودودي حول الحاكمية إلى العالم العربي في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، وتكفيره للمجتمع المسلم كلّه بسبب الحاكمية، وأوردنا ردود العلماء على أفكاره.

ثمّ عرّجت الدراسة على النصوص التراثية التي استند إليها مفكرو الغلوّ والتطرّف، ونقدها وتحليلها، وتوضيح أوجه القراءة الخاطئة لتلك الإحالات التراثية، ومناقشة أهمّ النصوص المرجعية التي استند إليها دُعاة الغلوّ والتطرّف، ومنها الآية الخامسة في سورة التوبة التي

وصفها الكثير من المفسرين بأنّها آية السيْف في الإسلام، في حين أنّ قراءة الآية الكريمة ضمن سياقها القرآني الوارد فيه ضمن خمس عشرة آية كريمة، تمثّل مقطعًا كامل الوحدة العضوية والموضوعية، ممّا يضع الآية الكريمة في سياقها الطبيعي، وكذلك حديث "أُمرتُ أن أقاتل الناس" فأوضحت الدراسة الفرق بين القتال والقتل، ومنْ هُم الناس الذين وَرد ذكرهم في الحديث الشريف، وإمكانية أن يكون النصّ المتواتر من الحديث مقطعًا من حديث مُستأنَف أو جوابًا لسؤال، وهو ما اتضح من رواية النُعمان بن عمرو بن أوس، وهي رواية صحيحة أخرجها أبو داود في صحيحه، ورجاله رجال الثقات، كلهم روى عنهم الشيخان البخاري ومسلم. وعرْض النصوص التي استند عليها مفكرو التطرّف على نصوص القرآن الكريم والسُنة النبوية الثابتة، وتطبيق الرسول –صلى الله عليه وسلم– العملي لتلك النصوص، لتفكيك مفاهيم القراءة الحرْفية للنصوص.. كما عرضت الدراسة كذلك للروايات الموضوعة المكذوبة على سيرة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وامتلأت بها العديد من الكُتب الحديثة في السيرة النبوية تحت عنوان (الاغتيالات السياسية في الإسلام) كحادثة عصماء بنت مروان، وهي رواية مكذوبة من وضع محمد بن الحجاج وقد قالوا عنه إنّه كذّاب، وقال فيه البخاري: مُنكَر الحديث. وقدّمت الدراسة رؤية للدور الاستراتيجي الذي يمكن أن تقوم به المؤسّسات التعليمية لمواجهة ظاهرة الغلوّ والتطرّف والقراءة الخاطئة للتراث الإسلامي.

أهمّية الدراسة: وترجع أهمّية بحث تنظيمات الحركة الإسلامية غلوّ في الفكر وتطرّف في التطبيق، إلى:

١ – أنّه يبيّن مواضع الغلوّ في الأصول الفكرية لأهم تلك الجماعات والتنظيمات، رغم ادّعائهم وشهرتهم بين الناس أنّهم ضمن دائرة التوسّط والاعتدال، ذلك لأنّ بعض أنواع الغلوّ والتطرّف كان مغالاة في واجب واحد من واجبات الإسلام، فعندما بالغوا في هذا الواجب وغالوا فيه،

فجعلوه أصلا وركنًا وما هو بأصل ولا ركن من أركان الإسلام، أقاموا حركتهم الدعوية كلّها عليه، فتحوّلت مسيرة حركة الإصلاح الإسلامي من مسارها التاريخي، إلى مسار سياسي مجرّد، وعلى ذلك حدث انحراف دقيق لكنّه خطير في مسيرة حركة الإصلاح.

٢- ركّز على النصوص الشرعية التي اتّخذها مفكرو تيار الغلوّ والتطرّف أصولا مرجعية ثابتة لأطروحاتهم المنحرفة، فعرضها وعرض أقوال مختلف المفسرين فيها. وذلك مثل الآية الخامسة من سورة التوبة التي يدعونها بآية السيف، وحديث "أُمرت أن أقاتل الناس"، وعرضها كذلك على النصوص الثابتة قرآنًا وسُنة، وعلى تطبيق النبي -صلى الله عليه وسلم-، والتأكيد بما لا يجعل مجالا للشك أنّه لا يوجد نسخ لآية من كتاب الله إلا بنصّ شرعي: آية، أو حديث قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فإذا لم يكن هناك نصّ على النسخ، لا يمكن اعتبار قول المفسرين بالنسخ بغير دليل نصي شرعي ثابت..

٣ – يذكر المرويات الضعيفة الواهية في التراث الإسلامي، التي استُخدمت كذريعة للتطرّف، ويطبّق عليها شروط علم الحديث، ليكشف عن أنّها أحداث مكذوبة موضوعة تمّ دسّها على السيرة النبوية الشريفة.

٤ – يوضّح حالة التطبيع مع الغلوّ والتطرّف، التي تصيب عددًا كبيرًا من العلماء لأسباب نفسية وإنسانية بعيدة عن الموضوعية العلمية الشرعية، ويبيّن أمثلتها، وأسبابها، فيما يعتبر تنبيهًا بالغ الخطورة على هذه الحالة، لأنّها تمهّد البيئة المناسبة لانتشار فكر الغلوّ والتطرّف.

٥ – يعيد ترتيب أولويات العقل المسلم في الأخذ والردّ للنصوص ومرويات التراث، وذلك بإعادة الاعتبار أولا للقرآن الكريم كمصدر أول من مصادر التشريع، والتلقّي، والثقافة والمعرفة في الإسلام، ثمّ السُنّة النبوية الثابتة قطعية الثبوت، ثمّ ما توافق مع المصدرين العظيمين من النصوص قبلناه، وما تعارض معهما رددناه إلى القرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة.

٦- تضع الدراسة استراتيجية واضحة للمؤسّسات التعليمية، لبناء شخصية المتعلّمين بناءً يحصّنها ضد دعاوي الغلوّ والتطرّف.

٧ – لم يعتمد فقط على الدراسات النظرية المدقّقة، ولكنّه تعمّق في الدراسة الميدانية، عن طريق المعايشة لقلب التنظيمات نحو ربع قرن سمع منهم لا عنهم، وحاورهم، وسجّل ممارساتهم كما سجّل ذرائعهم وردودهم، وإن اكتفى هنا بسرد الجانب النظري باعتباره الدافع للممارسة. لكنّه وضع في اعتباره عند السرد آثار كل كلمة في الأصول الفكرية للغلوّ والتطرّف على عقول ونفوس وعلى سلوك وممارسة أفراد هذه التنظيمات، فقد يمرّ الأصل الفكري هيّنًا بسيطًا على القارئ النظري، لا ينتبه لخطورته إلا إذا عاين بنفسه مردوده على الفكر والاعتقاد والسلوك والممارسة في أرض الواقع.

إشكالية البحث: كيف أدّى اختلاط المفاهيم بين دُعاة اعتدال منهج الإسلام ووسطيته، وغياب تعريف دقيق ومحدّد وموثوق لمصطلح الغلوّ والتطرّف، إلى ظهور واحدة أو أكثر من مظاهر الغلوّ والتطرّف لدى كل جماعة من جماعات الإسلام الحركي في العصر الحديث، حول مفهوم من مفاهيم المنهج الإسلامي والتمحور على أساسه، واعتباره أصلا وركنًا من أصول الإسلام وأركانه، مع ادّعاء كل تنظيم من هذه التنظيمات أنّه داخل دائرة الوسطية، وبعيد عن دائرة الغلوّ، حاصرًا دائرة الغلوّ والتطرّف فقط في استباحة إراقة دماء الآمنين؟ رغم أنّ الخلفية الفكرية هي التي تؤدّي إلى ممارسات العنف، ومن ثَمَّ تؤدّي إلى إراقة الدماء. والإشكاليات التي تواجه المؤسّسات التعليمية والدينية لمواجهة تلك المفاهيم، استنادًا إلى بعض مرويات التُراث الإسلامي.

حدود الدراسة: يتناول هذا البحث بروز ظاهرة الغلوّ والتطرّف لدى جماعات وتنظيمات الحركة الإسلامية منذ نشأة الحركة الوهّابية في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي إلى بدايات القرن التاسع عشر، في نجد وما حولها، كمرحلة أولى من مراحل ظهور هذا النوع الجديد من الحركات الإسلامية.. وتتناول المرحلة الثانية مرحلة التأسيس الحديث في القرن العشرين في الوطن العربي وشِبه القارة الهندية.

المنهجية: المنهج المستخدم في البحث هو المنهج الاستقرائي التحليلي، عن طريق جمع البيانات ونقدها وتحليلها، وصولا للنتائج العامة التي تبيّن طبيعة العلاقة بين تنظيمات وجماعات الحركة الإسلامية، والغلوّ والتطرّف في الفكر والتطبيق والممارسة.

أسئلة الدراسة:

١ – ما هو مفهوم الغلوّ والتطرّف في مقابل مفهوم الوسطية والاعتدال؟

٢ – لماذا ينسب الباحثون الغربيون التطرّف والغلوّ إلى الإسلام ويدعونه بالتطرّف الإسلامي؟ أم أنّ قضية الغلوّ والتطرّف ظاهرة تاريخية منذ نشأة الإنسان على الأرض؟ وما مدى تزامن ظهورها مع نشأة الإسلام الحركي في القرنيْن الأخيرين؟

٣ – ما هي الأصول الفكرية لجماعات الإسلام الحركي؟ وكيف يمكن تفكيك هذه الأصول الفكرية؟

٤ – كيف لعبت القراءة الخاطئة للتراث الإسلامي دورًا في تنامي وانتشار ظاهرة الغلوّ والتطرّف؟

٥ – ماذا يجب على المؤسسات التعليمية أنْ تتّبع من الاستراتيجيات لمواجهة انتشار وتغلغل ظاهرة الغلوّ والتطرّف وسيطرتهما على عقول الناشئة والشباب؟

مقدمة

إنّ ظاهرة الغلوّ والتطرّف ظاهرة قديمة قِدم الإنسان على الأرض، حتى يمكن اعتبارها غريزة من غرائز الإنسان، عمل الدين على تهذيبها والحدّ منها، والتحذير من الاستسلام لها، فلقد عرفت الأديان السابقة ظاهرة الغلوّ في الدين، فأنزل الله –تعالى– قوله في القرآن الكريم: "**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**" المائدة٧٧، فبيّن القرآن الكريم أنّ الغلوّ في الدين قديم، وأنّه من أسباب الضلال عن سواء السبيل، ورغم تحذير القرآن الكريم، وكذلك تحذير النبي –صلى الله عليه وسلم– من الغلّو في الدين، في الحديث "أيها الناس! إياكم والغلو في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" أخرجه أحمد:١/٢١٥، والنسائي:٢٦٨، وابن ماجه:٣٠٢٩، قال ابن تيمية في بيان هذا الحديث: "قوله: "إياكم والغلو في الدين" عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. والغلو: مجاوزة الحدّ بأن يُزاد في حمد الشيء أو ذمّه على ما يستحق"[١]، فالغلوّ والإفراط كالتقصير والتفريط، كلاهما مجاوزة للشرع المنزّل، وعدول عن الصراط المستقيم. فإنّ تاريخ المسلمين عرف ظاهرة الغلوّ والتطرّف مبكّرًا عن طريق ظهور جماعة الخوارج، الذين رفعوا قول الله –تعالى– "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**" يوسف٤٠، وتحت قول الحقّ الذي فسروه خطأ، رفضوا تحكيم الرجال –الذين أمر الله تعالى بتحكيمهم في غير موضع من القرآن الكريم– في أمر الله، فضلّوا وكفّروا كبار الصحابة، وقتلوا الخليفة الرابع علي بن أبي طالب صِهر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وشرعوا في قتل معاوية، وعمرو بن العاص، رضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين. وهكذا أطلّت فتنة الغلوّ والتطرّف برأسها على تاريخ المسلمين، وما زالت تتجدّد حينًا بعد حين، حتى تبلورت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي في منطقة نجد في هيئة دعوة

[١] أحمد بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ج١، ص٢٨٩.

الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في نجد، تلك الدعوة التي دعت إلى التوحيد الخالص، لكنّها بالغت مبالغة شديدة في تكفير المسلمين بسبب البدع الشركية التي انتشرت في مسلمي تلك البيئة في ذلك الزمن.. ثمّ توَاصل ظهور دعوات الغلوّ والتطرّف بسبب الظروف السياسية التي أحاطت بالعالم الإسلامي في بداية القرن العشرين، من احتلال أراضيه، وضعف الداخل عن مواجهة هذا الاحتلال، وبروز نُخب ثقافية وسياسية واقتصادية من أبناء المجتمعات المسلمة، سلّموا أنفسهم وعقولهم لفتنة النهضة الغربية الحديثة، فقابل غلوّهم وتطرّفهم في المطالبة بالتغريب شبه الكامل للثقافة العربية والإسلامية، وإعلان التبعية المطلقة لسيادة الغرب، غلوًّا وتطرّفًا في الاتجاه المضاد. فقامت تنظيمات وجماعات تمحورت حول الحُكم والحاكمية في الإسلام، وقضية نصب الحاكم أو الإمام في الإسلام واجب أكيد من واجبات الدين على الأُمّة المسلمة، لكنّه عند أهل السُنة والجماعة ليس ركنًا ولا أصلا، بل هو من الفروع ومن باب الفقه لا العقائد. لكنّ تلك الجماعات والتنظيمات غالوا في هذا الواجب، ونقلوا عن المذهب الشيعي أنّ الحُكم أصل من أصول الدين، وبذلك نقلوه من الفروع إلى الأصول، ومن باب الفقه إلى باب العقيدة، هذا كله أدّى إلى الانحراف بفهم الدين عن معناه الواسع إلى تفسير سياسي ضيق، وأدخل الدعوة الإصلاحية والشباب الإصلاحي في صراعات ومواجهات سياسية على السُلطة، ما كان لها أن تنشأ أو تقوم، لو أنّ مفكري هذه الجماعات ورؤساءها كانوا قد وضعوا كل واجب من واجبات الإسلام في موضعه وحجمه الذي شرعه الله.. ورغم وضوح مظاهر الغلوّ والتطرّف في الأصول الفكرية لتنظيمات وجماعات الإسلام الحركي، فما زالت تلك الجماعات تنتشر، وما زال أعضاؤها ينافحون عنها ويدافعون عن أفكارها، وما زال بعض علماء الأمّة يرون جهودها وكفاحها أملا من آمال نهضة الأُمّة المسلمة. ورغم كثرة ما كتب العلماء وبيّنوا ونصحوا وحذّروا من أفكار الغلوّ والتطرّف، فإنّ الأمل ظلّ خافتًا في أن يغيّر هؤلاء القواعد أفكارهم، وذلك لأسباب نفسية وتاريخية، كما بيّن وحيد الدين خان في مقدمة كتابه الهامّ (خطأ في التفسير)،

وسنعرض لوجهة نظره بالتفصيل في متن البحث، وأخرى منطقية يقول عنها الشيخ محمد متولي الشعراوي، في كلمة مفيدة عن الدعوات والحركات والنظريات، سواء كانت عالمية أو إقليمية، تاريخية أو حديثة: لا توجد فكرة أو نظرية أو دعوة في العالم إلا وكان لها وجه حسن يُجمّل وجهها ويقرّبها للناس، ويجعل لها من الذرائع وأسباب القبول ما يعطيها الوجاهة والبهاء، فحتى الاشتراكية أو الرأسمالية لكل منهما وجه حسن يُغري الناس باتبّاع مذهبهما. فنظرية ترفع شعار العدالة الاجتماعية لا بدّ أن تجد لها أنصارًا ومؤيّدين، وأُخرى ترفع شعار الحرية التي تجتذب أيضًا الأنصار والمؤيدين.. حتى الدعوات الإسلامية أو الدعوات التي تنطلق في عالمنا الإسلامي لا بدّ أن يكون لها وجه حسن جميل يعرفها الناس به، ومدخل معقول مقبول تدخل به على الناس، ومنطق وذرائع تملك على كثير من الناس عقولهم وقلوبهم.. ولذلك لن تجد في بلاد المسلمين دعوى تُعلن الإفساد في الأرض أو تدعو إلى خرابها، وإنّما الجميع سيتوارون خلف قناع الإصلاح.. إنّ هذا المنطق الذي قدّم به الشيخ –رحمه الله– لفكرته لهو منطق سديد، فحتى حركة الخوارج التي شقّت الصفّ المسلم الأوّل، فأجمعت أُمّة الإسلام على أنّها خرجت عن أصول الأُمّة وأمرائها من صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، كانوا يرفعون وجهًا يبدو حسنًا ومدخلا يلبس على الناس أنّه مدخل صدق، وعن حكمتهم المشهورة التي رفعوها "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**"، قال الإمام علي –كرم الله وجهه–: (كلمة حق يراد بها باطل)، أي إنّ ظاهر الكلمة حسن لا غبار عليه، بل هو في الحقيقة وجه من وجوه الحقيقة والصلاح والإصلاح، فهي استشهاد بالقرآن الكريم، لكنّ وراء هذا الوجه الحسن والمدخل المغري ما وراءه من غلوّ وتطرّف وصل لحدّ تكفير المخالف واستباحة دمه!

وإذ يتناول هذا البحث حركات العمل الإسلامي الحديثة والمعاصرة، فإنّه سيتعامل مع جماعات ودعوات وأفكار رفعت بكل تأكيد رايات برّاقة بوجوهٍ حسان، ومطالبات بإصلاح مأمول يأمله كل مسلم، وترنّمت بمجد الإسلام وعزّه ونصره، ولا شكّ من حيث هذه الوجوه الحسنة أن تجد

أعوانًا، وأتباعًا، ومؤيدين، وأنصارًا.. لكنّ المتعمّق في المناهج والأساليب قد يكتشف ما وراء هذا الحُسن البرّاق والجمال الأخّاذ من تطرّف وغلوّ.. والإسلام كدين خاتم، ومنهج حياة للبشرية، وضع المنهج الذي يحتوي حياة البشر جميعًا ويحيط بها من كافة الجوانب، كما أنزل الميزان الذي به تُوزَن المذاهب والدعوات والأفكار والنظريات والحركات، فرُبَّ مسلم لا يستطيع أن يحيط بجوانب منهج الإسلام بعمومه وشموله لاتّساعه ودقّته، ولضعف الفرد عن العلم بكل تفاصيله، وكذا العمل به، وقد يكفي المسلم أن يُلمّ بكل ما يتّصل بحياته الشخصية من أحكام الدين التي لا يصحّ معاشه إلا بها من عبادات ومعاملات وأحكام، ولكنّه مع ذلك يمتلك الميزان الذي يضمن به ألا ينحرف مع كل دعوة منحرفة هنا أو هناك، ولا يستجيب لكل صيحة تنطلق في فضاء ما، هذا الميزان الذي يستطيع به كل مسلم أن يميّز بين دعوات تدعو إلى التفريط أو التقصير في دين الله، أو تلك التي تدعو للابتداع فيه ما ليس منه، وكذلك التي تدعو إلى الغلوّ والتطرّف.. فمع المسلم الميزان الذي يميّز به بين هذه الدعوات جميعًا، فلا تنطلي عليه الوجوه الحسنة التي تظهر بها تلك الدعوات والحركات والأفكار.

وإنّي لأرجو الله العلي القدير أن يكون هذا الجهد البحثي المتواضع، لبِنة في بناء هذا الميزان الشرعي والفكري الذي يستطيع من خلاله المسلم المعاصر أن يميّز بين أطروحات الاعتدال والوسطية، وبين دعاوى الغلوّ والتطرّف، ونظريات تؤسّس للعزلة الشعورية الاجتماعية، أو يؤدّي الإيمان بها إلى ممارسة العنف في وجه المسلمين، وفي مواجهة العالم..

كما أدعو الله –تعالى– أن يجعل تنبيهاتنا بشأن تصحيح قراءة التراث الإسلامي، وإعادة قراءته في ضوء القرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة المؤكّدة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، محلّ اهتمام وتأصيل لدى الأفاضل علماء الأُمّة المعنيّين بالأمر..

لقد آن الأوان أن تستردّ حركة الإصلاح الإسلامي مسارها التاريخي الذي رسمته لنفسها منذ مطلع تاريخ الإسلام، دون أن يختطفها أو ينحرف بها تيار كثير الحركة، واسع الانتشار، كبير التضحيات، لكنّه يفتقد الاتّزان الفكري والعقائدي الذي يجعل كل مكون من مكونات المنهج الإسلامي يستقرّ في موضعه منسجمًا مع منظومته الإسلامية العامة، لتعمل الحركة الإصلاحية في مسارها الذي أراده الله لها، وبشّر به رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

الفصل الأول: في المفاهيم والجذور التاريخية للظاهرة

الفصل الأول: في المفاهيم والجذور التاريخية للظاهرة

يظلّ هناك جدل حول مفهوم الغلوّ والتطرّف، فكثير من جماعات وتنظيمات الإسلام الحركي تحبّ أن تصف نفسها أنّها في منطقة الوسطية والاعتدال الإسلامي، وتتمترس بشعار الوسطية، معتقدة أنّ تجنّبها لممارسة العنف المادي، واستخدام القوة المسلحة في إرهاب خصومها دليل وسطيتها واعتدالها. وهذا المقياس وحده في الحقيقة ليس دقيقًا ولا صحيحًا، فإنّ أصول الاعتقاد الخاطئ هي المسؤولة لاحقًا عن الممارسات الناتجة عنه، كما أنّ ليس كل التطرّف يكمن في ممارسة العنف المادي أو قوة السلاح، فالعزلة الشعورية عن المجتمع المسلم، حالة من حالات الغلوّ والتطرّف، ونظرة الاستعلاء على الآخرين والرؤية الدونية لهم، واليقين في امتلاك الحقيقة المطلقة، كلها صور من صور الغلوّ والتطرّف الفكري، وهي تؤدّي إلى عدم الاعتراف بالآخر المختلف، وعدم القبول به، وبالتالي عدم الاعتراف بحقوقه الأساسية كحقوق الإنسان المكفولة له. إنّ تضخيم قيمة إسلامية معينة عن حجمها، ووضعها في غير نصابها الطبيعي، مثل الغلوّ في مبدأ الولاء والبراء ينتج عنه علاقات حب أو كره اجتماعية غير مبرّرة، وستؤدّي حتمًا لاحقًا إلى ظلم الطرف المكروه، لأنّ شخص المتطرّف قرّر أن يبغضه في الله وفق مفهوم ضيّق جدًّا للبراء، لا يراعي التفسير الصحيح للمبدأ أو القيمة، وطريقة تطبيق سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لهذا المبدأ. كما يوجد بالمقابل خلط آخر لدى كثير من الكتّاب الغربيين والمتأثرين بهم من الكُتّاب العرب، وذلك بربط جائر بين ظاهرة الغلوّ والتطرّف والإسلام، ووصفهم الدائم للظاهرة، بالغلوّ والتطرّف الإسلامي.. هذا الاختلاط في المفاهيم يدفعنا إلى أن نبحث في أمرين، أولهما أمر تدقيق المفاهيم، وثانيهما الجذور التاريخية لظاهرة الغلوّ والتطرّف.

المبحث الأول: جُملة مفاهيم

التطرّف الفكري

التطرّف في المفهوم اللُغوي يعني الوقوف في الطرف بعيدًا عن الوسط، وهو عكس التوسّط والاعتدال، والتطرّف يعني الخروج عن التوسّط والاعتدال، وهو الغلوّ والزيادة دون ضرورة، والابتعاد عن الاعتدال. والتطرّف ليس مقصورًا على الدين فقط، أي دين، وإنّما التطرّف مرتبط بالفكر، بطريقة تعاطي العقل مع الأفكار. ويُنظَر إلى مصطلح التطرّف نفسه باعتباره تعبير نسبي، وليس مطلقًا، ويُقصد به إجمالا التفكير أو السلوك بطريقة غير مبرّرة في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد، فهو يدور مع معاني التحجّر والجمود الفكري والتعصّب للفكرة الواحدة، وهو أشبه ما يكون بعقل يفكّر بطريقة أحادية، لا يمتلك المرونة ليوازن بين أكثر من فكرة والتفضيل بينها لاختيار الأفضل.. يعرّف الدكتور القرضاوي التطرّف الفكري بأنّه حالة من التعصّب للرأي تعصّبًا لا يعترف معه بوجود الآخرين، وجمود الشخص على فهمه جمودًا لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الآخرين، ولا بمقاصد الشرع ولا ظروف العصر، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، ويؤدّي في النهاية إلى الإرهاب المسلّح وترويع الآمنين[٢].

أمّا الدكتور رفعت محمود، فيرى أنّ التطرّف الفكري عبارة عن حالة فكرية وعاطفية وسلوكية لدى الفرد تشوبها شوائب التعصّب الروحي، والاطمئنان الإيماني إلى حالة من حالات

[٢] د. يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، قطر: رئاسة المحاكم الشرعية، كتاب الأمة، نقلا عن د. محمد طاهر منصوري: دور المؤسسات التربوية في مواجهة التطرف، المنتدى العالمي للوسطية، https://www.wasatyea.net/ar/content.

الاستعداء والعدوان للآخر، بدلا من النظر إليه بحسبه مشروعًا للتواصل الفكري والروحي، فيصبح الآخر عدوًا يجب مجاهدته ومحاربته[٣].

ويُعرَّف التطرّف الفكري أيضًا على أنّه إحساس المرء بأنّه يمتلك كل الحقيقة، ممّا يصنع عنده قناعة تامة بصواب ما عنده وخطأ ما عند الآخرين، ويستوي في ذلك الشخص الواحد أو الجماعة سواء كانوا دولة أو مؤسّسة[٤].

وبسبب التطرّف الفكري ينشأ التعصب للرأي وهو إحكام الرأي على فكرة معينة غير قابلة للنقاش أو التحليل مع رفض الرأي الآخر[٥].

ومن أخطر أنواع التعصب المقيت: التعصب للرأي لمجرّد كونه رأي فلان أو علان وتخطئة الرأي الآخر، ورميه بالضلال والبُطلان[٦].

تعريف التطرّف الديني:

التطرّف لغةً: هو إتيان منتهى الشيء والوصول إلى طرفه، وهو كذلك بمعنى مجاوزة التوسّط والاعتدال في الأمر، فالتطرّف مأخوذ من طرف الشيء المادي المحسوس إذ إنّ لكل

---

[٣]أ.د. رفعت محمود بهجات محمد، دور الأسرة والمدرسة في مواجهة التطرف الفكري، بحث مقدم إلى مؤتمر الإرهاب "بين تطرف الفكر وفكر التطرف"، ص ١١٠.

[٤]عباد عبد الرحمن، بحث التطرف الفكري أسبابه، وأبعاده، من أبحاث مؤتمر الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري، المؤتمر العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية المنعقد في القاهرة، ٢٤/٢٧ يوليو ١٩٩٦م، إشراف وتقديم: محمود زقزوق، القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢٧٦.

[٥]البرعي، دور الجامعة في محاربة التطرف الفكري، ص٢٩.

[٦]د. محمد طاهر منصوري، دور المؤسسة التربوية في مواجهة التطرف، مصدر سابق.

شيء طرفًا، والتطرّف أخْذ الأمر من طرفه دون وسطه، فنقول تطرّف الرغيف أي أخذه من طرفه[٧].

وبناءً على ما تقدم، فإنّ التطرّف الديني في اللغة يكون بمعنى مجاوزة التوسّط والاعتدال في الدين، وقد يكون التطرّف إلى أحد جهتين، فالتطرّف إمّا أخذ بأدنى الطرف أو أقصاه، وفي كلا الحالين يكون تطرّفًا، وبناءً عليه يكون الغلوّ أخصّ من التطرّف، إذ إنّ الغلوّ هو الأخذ بالطرف الأكثر تشدّدًا وتمسّكًا وتعصّبًا للشيء.

والتطرّف الديني اصطلاحًا، كما عرّفه علي الشبل: "الغلو في عقيدة، أو فكرة، أو مذهب، أو غيره يختص به دين أو جماعة أو حزب"، فقد جعل التطرّف في جانب الغلو وهذا صحيح، فالمصطلح إنّما يكون مصطلحًا بعدّة اعتبارات ومنها اعتبار العرف.. وقد تعارف الناس على أنّ التطرّف الديني إنّما يكون في الطرف المتشدّد، فالتطرّف الديني إذن هو مجاوزة الحدّ ومجانبة التوسّط باتجاه التشدّد والغلوّ في الجوانب الدينية، وقد وُصفت جماعات كثيرة بالتطرّف الديني كما هو معروف بما يسمّى باليمين المتطرّف[٨].

والتطرّف هو مجاوزة الحدّ والغلو في الدين، وهو التصلّب فيه والتشدّد حتى مجاوزة الحدّ، فهو مجاوزة الاعتدال في الأمر.

وأطلق العلماء قديمًا كلمة التطرّف الديني على القائل المخالف للشرع، وعلى القول المخالف للشرع، وعلى الفعل المخالف للشرع، فهو فهم النصوص الشرعية فهمًا بعيدًا عن مقصود الشارع

---

[٧] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، صفحة ١٣٩٦. بتصرّف.

[٨] علي بن عبد العزيز الشبل، الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، صفحة ٩. بتصرّف.

وروح الإسلام، فالتطرّف في الدين، هو الفهم الذي يؤدّي إلى إحدى النتيجتين المكروهتين، وهما الإفراط أو التفريط.

والمتطرّف في الدين هو المتجاوز حدوده والجافي عن أحكامه وهديه، فكل مغال في دينه متطرّف فيه مجاف لوسطيته ويسره[٩].

مفهوم الغلوّ

والكلمة الأخرى ذات الصلة بالتطرّف هي الغلوّ. وقد وضّح العلماء المراد بالغلوّ في الدين. ومن ذلك ما قاله النووي: "الغلو هو الزيادة على ما يُطلب شرعًا[١٠]".. وقال ابن حجر: "هو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد[١١]".. ومن هنا فيمكن القول إنّ الغلوّ تجاوز ما أمر الله –تعالى– به من جهة التشديد.

وقد استعمله بعض العلماء كالنووي وابن تيمية، ومعناه لُغةً الوقوف في طرف الشيء والخروج عن الوسط والاعتدال فيه، وهو يشمل الذهاب إلى طرف التشديد وإلى طرف التسهيل، فالغالي في الدين متطرّف والجافي عنه متطرّف. قال الجصّاص: (طرف الشيء إمّا أن يكون ابتداءه أو نهايته، ويبعد أن يكون ما قرب من الوسط طرفًا). لكنّ المشهور استعماله في التشدّد والتعمّق، وهو المقصود في خطاب المتكلّمين، فيكون مرادفًا للغلوّ ومفهومه في الشرع مجاوزة

---

[٩] د. محمد بن عبد الرزاق، التطرف في الدين، دراسة شرعية، بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب، ٢٠٠٤م، ص٥-٦.

[١٠] النفراوي أحمد بن غنيم، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، (بيروت، دار الفكر، ط١٤١٥،١هـ)، ص١: ١٢٥.

[١١] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ص١٣: ٢٧٨.

المسلم الحدّ الشرعي في كل شيء، كما قال الإمام أحمد لابنه: (لا تغلو في كل شيء حتى الحُب والبغض). وقال ابن تيمية: "وقوله: "إياكم والغلو في الدين" عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. والغلو: مجاوزة الحد بأن يُزاد في حمد الشيء أو ذمّه على ما يستحق، ونحو ذلك[١٢]".

مفهوم الوسطية

إنّ الدلالة الاصطلاحية لمدلول الوسطية تعني التوازن والاعتدال، وقد روى الطبري بإسناده عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في قوله تعالى: "**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**" قال عدولاً[١٣]. وممّا يدل أيضًا على أنّ وصف الأمة بالوسط يُراد به كون أفرادها عدولا خيارًا، قوله تعالى: "**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**" آل عمران١١٠، فأُمّة الإسلام جُعلت أُمّة وسطًا، عدلاً خيارًا، والعدل الخيار يتضمّن الدلالة على كونهم بين الإفراط والتفريط.

الوسطية حق وعدل وخير ومطلب شرعي أصيل ومقصد أسمى ومظهر حضاري رفيع، فهي أفضل الأمور وأنفعها للناس، كما أنّها الاعتدال في كل أمور الحياة ومنهجها. وهي الاستواء والاستقامة والتوسّط بين حالتين، بين مجاوزة الحد المشروع والقصور عنه. والوسط لُغة بين طرفي الشيء. وجاء في الحديث "خير الأمور أوسطها" وواسطة القلادة الجوهر الذي في وسطها وهو أجودها. الوسطية، توسّط بين الطرفين وهو ما يعبّر عنه لُغة بالاقتصاد، أي موقف الوسط والاتزان، فلا إفراط ولا تفريط. وهي استواء واستقامة في الاعتقاد والسلوك

---

[١٢] خالد بن سعود البليهد، مفهوم التطرف الديني في الشرع، موقع صيد الفوائد، http://www.saaid.net/Doat/binbulihed/110.htm

[١٣] الطبري–ابن جرير، تفسير القرآن، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ) ج ١٤٣:٣، البخاري، صحيح (دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ)، رقم ٤٤٨٧.

والمعاملة والأخلاق وهذا يعني أنّ الإسلام بالذات دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق فليس فيه مغالاة في الدين ولا تطرّف ولا شذوذ في الاعتقاد ولا تهاون ولا تقصير ولا استكبار ولا خنوع أو ذُل وخضوع وعبودية لغير الله، ولا تعصّب ضد الآخرين ولا رفض لهم ولا إكراه أو إرهاب أو ترويع بغير حق كما لا إهمال في دعوة الناس الى دين التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة وهو الدين الأيسر والأسهل، والأبعد عن الشدة والقسوة كما قال الحق سبحانه "**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**" سورة البقرة١٨٥، وقال أيضًا "**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**" الحج٧٨[١٤].

مفهوم الاعتدال

الاعتدال هو التزام المنهج العدل الأقوَم، والحق الذي هو وسط بين الغلو والتنطّع، وبين التفريط والتقصير؛ فالاعتدال والاستقامة منهج وسط بين طرفين، وهما: الإفراط والتفريط. والاعتدال هو: الاستقامة والتزكية، والتوسّط والخيرية. فالاعتدال يرادف الوسطية التي ميّز الله بها هذه الأمة[١٥].

[١٤] خديجة مستعد، الوسطية والاعتدال الطريق لفهم معاني الإسلام، الجزيرة نت، https://www.aljazeera.net/blogs/2017/9/24.

[١٥] د. محمد طاهر منصوري، دور المؤسسات التربوية في مواجهة التطرف، مصدر سابق.

المبحث الثاني: نبذة تاريخية عن الغلوّ والتطرّف

الغلوّ آفة بشرية ارتبطت بالبشر حتى قبل الإسلام، فحذّر القرآن والسُنة منها.. كما أنّ الغلوّ والتطرّف ظهرا في الأمّة تاريخيًّا مع الخوارج.

المطلب الأول: العلاقة بين ممارسة العنف والغلوّ أو التطرّف

العنف هو ممارسة عملية، بينما الغلوّ أو التطرّف أو التعصّب هو توجّه فكري وشعور نفسي.. لكنّ العنف غير المشروع لا يمكن له أن ينشأ في فراغ بدون رؤية وتوجيه فكري منحرف، سواء عرَّفناه بالغلوّ، أو التطرّف، أو التعصّب، أو الشذوذ الفكري في فهم النصوص، فكل عنف يُمارَس على الأرض هو في الواقع نتاج فكرة متطرّفة شاذّة عنيفة.. أو بمعنى آخر العنف غير المشروع هو عرَض لمرض مؤسّس له اسمه الغلوّ والتطرّف والتعصّب.. ومن الواجب مواجهة المرض لينتفي العرَض.. فالفكر، أيّ فكر يسبق العمل، والاعتقاد بالقلب والعقل والوجدان هو رأس عمل الجوارح وسابق له، ولعلّ ذلك بعض مفهوم قول أبي حسن البصري: "الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل"، وفساد التصوّر يفسد العمل ولو بدا للناس صالحًا، يقول تعالى: "**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**" الزمر٦٥.. ولذلك فتصحيح المفاهيم والتصوّرات مقدّم على تصحيح السلوك والممارسات، فالخطأ في التطبيق يختلف عن الخطأ في الاعتقاد، يقول تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**" النساء٤٨، ونفهم من ذلك أنّ كل خطأ في الممارسة أو السلوك أو التطبيق قابل لمغفرة الله –تعالى– وعفوه، لكنّ الشرك بالله وهو أمر اعتقادي يتعلّق بالقلب والعقل ويتحكّم في الفكر، ويشكّل المفاهيم، فهذا لا يتجاوز عنه المولى سبحانه.. وهكذا حرص الإسلام قرآنًا وسُنّة على تصحيح

المفاهيم والتصوّرات والأفكار والعقائد أولا بأول، من أمثلة ذلك "**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**" الحجرات١٤.. إلى أن قال: "**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**"الحجرات١٥.. وحسب بعض الناس أنّ طريق الإيمان إلى الجنّة مفروش بالأزهار والرياحين، لا فتنة فيه، ولا اضطهاد، ولا مشقّة، فنزل القرآن يدرأ هذا الوهم، ويُخطِّئ هذا الفهم: "**الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**"العنكبوت١-٣.. ومِن الناس من يحسب أنّ التغيير المادي سبب التغيير في عالم النفس، فيقرّر القرآن عكس ذلك، ويبيّن أنّ التغيير الروحي والمعنوي هو الأصل والأساس: "**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**" الرعد١١. وهكذا ظلّ القرآن الكريم ثلاثة وعشرين عامًا يبيّن الحقائق ويزيل الأباطيل، ويصحّح التصوّرات والمفاهيم، وصحّح النبي –صلى الله عليه وسلم– مفاهيم كثيرة جدًّا، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون من المفلس؟"، ولعل تقديم نية القلب عن عمل الجوارح، في مثل قوله صلى الله عليه وسلم في القاعدة الحاكمة: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" البخاري ومسلم، وقولهم "نيّة المرء خير من عمله"، يؤكّد على أنّ تحقّق المفهوم في اللُب أو العقل، وتحقّق اليقين في القلب، هو الذي يحدّد النية، وهي ما تسبق العمل أو الممارسة أو السلوك بالجوارح والحواس، إنّ النيّة تسبق العمل، وإن المفهوم أو الاعتقاد هو الذي يوجّه النية، ولقد استقرّ لدى العلماء أنّ ترك الفرض أو الواجب مع الاعتقاد بوجوبه أخف في الحكم عن ترك الفرض مع الاعتقاد بعدم وجوبه.. ولذلك فرّقوا بين حُكم تارك الصلاة تكاسلا في أدائها، وبين تارك الصلاة منكرًا لفرضيتها جاحدًا بها، ففسّقوا المتكاسل، وكفّروا الجاحد بها.. وفرّقوا كذلك بين مرتكب المعصية عن ضعف أو شهوة أو انعدام عزيمة، وبين

مرتكب ذات المعصية منكرًا تحريمها من حيث الأساس، الفعل في الحالين واحد لكنّ الذي يميّز بينهما هو الاعتقاد العقلي والقلبي.

فالمطلوب دائمًا وفي المقام الأول تصحيح الاعتقاد، ثم تصحيح الممارسة، فالممارسة الخاطئة الناتجة عن غفلة أو نسيان أو ضعف في العزم، يمكن تصحيحها بسهولة بمجرّد التذكير بالعقيدة أو المفهوم أو التصوّر الذي يحكم الممارسة، والذي يحكم عليها بالصواب أو الخطأ.. أمّا عند فساد الاعتقاد، يصبح تصحيح الممارسة غير ممكن.. فلننظر إلى أبينا آدم عليه السلام إذ يصفه المولى –عزّ وجلّ–: "**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**" طه١١٥، ثم وصف المولى –عزّ وجلّ– عاقبة معصيته، فيقول: "**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**" طه١٢١–١٢٢، فلأنّ المعصية جاءت عن ضعف وغواية، فإنّه بمجرد أن تذكّر أحدث توبة، وندم على ما فعل، وعزم على عدم العودة إلى تلك المعصية، فتاب الله –تعالى– عليه. وهكذا عندما أخطأ نبي الله موسى –عليه السلام–، فقتل الذي من عدوه يقول المولى –عزّ وجلّ–: "**فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ* قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ**" القصص١٥–١٧، فعندما سدّد موسى –عليه السلام– ضربة إلى خصمه فقتله، كان يؤمن ويعتقد أنّ القتل خطأ من عمل الشيطان، هذا الاعتقاد أو الإدراك هو الذي جعله يراجع نفسه فيندم ويتوب ويعزم على عدم العودة إلى قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ، هذا الإدراك منع موسى –عليه السلام– أن يقع في ذات الخطأ مكرّرًا فعلة القتل، عندما تعرّض لنفس الضغوط، يقول تعالى: "**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ* فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**" القصص١٨–١٩، لقد تعرّض

موسى –عليه السلام– لنفس ظروف غواية الأمس، فهذا الذي من شيعته يستنصره للمرة الثانية على الذي هو عدوّ له ولقومه، فلما همّ أن يبطش بالذي هو عدو لهما تحت ضغط الانفعال العصبي، ذكّره الرجل قائلا: "**أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ...**"، هنا يتوقف موسى –عليه السلام– عن فعل البطش، لأنّه عاهد الله على ألا يكون من الجبابرة والعُتاة.. فالذي منع موسى –عليه السلام– من مواصلة القتل هو الإدرك لخطورة فعل القتل، وقُبح هذا الفعل عند الله –تعالى– فامتنع عن تكراره ولجم غضبه، ونهى نفسه عن فعله. فما بالنا لو أنّ موسى –عليه السلام– في هذه المرحلة كان قد أسّس اعتقادًا في جدوى فعل القتل في حقّ الذين من عدّوه؟ فلا شكّ لدى موسى أنّ قوم فرعون كانوا يستعبدون بني إسرئيل، ولا شكّ لديه أنّ فرعون وملئه قد أقاموا المذابح لقومه بني إسرائيل، فقتلوا رجالهم، وذبحوا أبنائهم الصغار، واستبقوا نساءهم جواري لديهم، وقصة ميلاد موسى –عليه السلام– ذاتها شاهدة على تلك المذابح في حقّ بني إسرائيل، فلو أسّس موسى –عليه السلام– اعتقادًا عقليًا وقلبيًا مؤدّاه شرعية الثأر من بني فرعون، وشرعية قتل فتيانهم ورجالهم من أجل رفع الظلم عن بني إسرائيل، لو اعتنق موسى –عليه السلام– هذه الفكرة، لأصبحت عملية قتل الفتيان من بني فرعون بطولة وعملا عظيمًا من أجل رفع الظلم عن قومه، وبالتالي لكان قد قام بفعلها مرّات عدّة، وشجّع نفسه على القيام بها، وكافأ نفسه على فعلها، بدلا من ندمه على ذلك وتوبته الشديدة، وعزمه على عدم معاودتها.. الذي حكم سلوك موسى –عليه السلام– وحدّ من تكرار عملية القتل، كان هو مفهوم موسى –عليه السلام– وعقيدته بأنّ القتل ظلم عظيم.

نخلص من قصة معصية آدم –عليه السلام– ثم توبته، ومعصية موسى –عليه السلام– ثم توبته، أنّ الاعتقاد هو الذي يحكم الممارسة والسلوك، وأنّ تصحيح المفهوم مقدّم دائمًا على تصويب الممارسة.. وأنّ معركة الوسطية المسلمة مع الغلوّ والتطرّف والعنف هي معركة

مفاهيمية فكرية بامتياز. كما أنّ مسألة الاعتقاد أو المفاهيم تعمل عمل المكابح التي تكبح جماح العاطفة، أو الثورة، أو الغضب، أو الشهوة.. والجوارح التي تتحرّك بلا مفاهيم صحيحة كالقاطرة التي تندفع بلا مكابح فتدهس كل شيء أتت عليه حتى يحطّمها جسم صلب أقوى منها وأصلد.

المطلب الثاني: الغلوّ غريزة بشرية

من استقراء التاريخ البشري نجد أنّ الغلو غريزة بشرية ضارة أو سيئة مثل غرائز أخرى كثيرة يولد بها الإنسان، كالطمع والشُحّ والأنانية، والنرجسية والكِبْر والحسد.. وكلها غرائز مولودة مع الإنسان يعمل الدين والنسَق القيمي الاجتماعي على تهذيبها وتحجيمها في أصغر صورة ممكنة.. إنّ عبادة الملوك في الأُمم السابقة ما هي إلا صورة من صور الغلوّ في تقدير هؤلاء الملوك والحكّام تصل إلى تقديسهم، وهذا وصف المولى –عزّ وجلّ– لفرعون "**فَحَشَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى**" النازعات٢٣-٢٥، وكما ادّعى فرعون لقومه مقام الربوبية، وصف نفسه بصفة من صفات المولى –عزّ وجلّ– فقال: "**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**" غافر٢٩، ومع كل غلوّ اعتقده فرعون في نفسه، كان الملأ من أتباعه يغالون فيه مثل هذا الغلوّ تعظيمًا ومهابة، وهكذا أطاعوه، يقول تعالى: "**فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ**" الزخرف٥٤، فيدخل في أسباب فسوق قوم فرعون الغلوّ في اعتقادهم في ربوبية فرعون وقوته وجبروته.

وعبادة الأصنام كانت أصلها غلوًّا في أشخاص صالحين تم تخليدهم في صورة تماثيل، ثم أعقب ذلك أجيال عبدت تلك التماثيل، كما حدث مع قوم نوح –عليه السلام– "**وَقَالُوا لَا**

تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَاسُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا" نوح٢٣، وفي التفسير أنّ هؤلاء أسماء رجال صالحين من قومهم، وقد أدّى الغلوّ فيهم إلى عبادة تماثيلهم لاحقًا.. ولو راجعنا كل خروج عن دين الله في الأُمم السابقة لوجدناه بسبب الغلوّ في التدين أو الغلوّ في الأنبياء أو الصالحين "**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**" التوبة٣٠، فكان عاقبة الغلوّ الشرك والعياذ بالله، ولذلك حذّر القرآن الكريم أهل الكتاب من الأُمم السابقة على الإسلام من الغلوّ في الدين: "**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**" النساء١٧١، "**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ**" المائدة٧٧. وحذّرت السُنة النبوية المسلمين من الغلوّ في الدين، إذ جعل النبي –صلى الله عليه وسلم– الغلوّ في الدين سبب هلاك الأُمم السابقة، "أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" أخرجه أحمد:١/٢١٥، والنسائي:٢٦٨، وابن ماجه:٣٠٢٩. ممّا سبق من استعراض تاريخ الغلوّ في الأمم السابقة على أُمّة الإسلام، نجد أنّ الغلوّ في العقائد والأفكار والتعصّب للزعماء والقادة والملوك والمصلحين قديم قِدَم البشرية ذاتها، وهو على هذا غير مرتبط بنصّ ديني معين يُساء فهمه أو يتم الخطأ في تأويله، وهو ناجم عمّا جُبل عليه الإنسان من المبالغة والتهويل في تقديس الظواهر اللافتة، وما ينتج عن هذا الغلوّ في الاعتقاد من آثار واضحة على السلوك والممارسة.. فالذين غالوا في الاعتقاد بأنبيائهم أشركوهم في الألوهية مع الله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، والذين غالوا في تعظيم زعمائهم الصالحين، انتهى بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله، والذين غالوا في ملوكهم أنزلوهم منزلة الألوهية ثم أطاعوهم طاعة عمياء في المكره والمنشط، في المعقول وفي غير المعقول، فيما فيه مصلحتهم، وفيما ضد مصالحهم، بل إنّ المشركين قبل بعثة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بلغت بهم مغالاتهم في آلهتهم أنّهم كانوا يقتلون أبناءهم سفهًا تقرّبًا لتلك الآلهة التي لا تضرّ ولا تنفع، ولا

ترى ولا تسمع، يقول تعالى: "**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**" الأنعام١٣٧، ثم يعقّب المولى على ذلك: "**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**" الأنعام١٤٠، وهكذا بلغ الغلوّ بالمشركين قبل الإسلام حدّ السفه بالتضحية بالأبناء، والحرمان من الطيبات من الرزق غلوًّا في دينهم الذي دانوا به، سواء كان بقايا من حنفية خلطوها بأكاذيب وأوهام، أم كان من عمل كهنة الأصنام بالكامل، لقد دفعهم هذا الغلوّ المقيت في الاعتقاد إلى السفه البالغ في العمل والسلوك.

ولقد كانت الرهبانية كذلك التي ابتدعها النصارى لونًا من ألوان الغلوّ في الدين، قال تعالى: "**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**" الحديد٢٧، وهكذا أثبت التاريخ البشري كلّه أنّ ظاهرة الغلوّ في الاعتقاد الذي يؤدّي إلى التطرّف في الممارسة والسلوك، مرتبط بتاريخ البشرية كلها وليس وقفًا على فهم خاطئ لنصّ مقدّس يبشّر به دين من الأديان، ولقد جاءت رسالة الإسلام باعتباره الدين الخاتم، ليحذّر من هذا الغلوّ بكل صوره وأنواعه: الغلوّ في الاعتقاد، والغلوّ في الأشخاص، والغلوّ في العبادات، والغلوّ في الزهد ومخاصمة الدنيا، فحذّر من ذلك كله، ونهى عن ذلك كله لضبط المفاهيم وضبط السلوك، وعلى ذلك فإنّ أي تصوّر يربط بين الإسلام كدين خاتم، وظواهر الغلوّ والتطرّف وممارسة العنف الديني باعتباره ارتباط شرطي، تصوّر مردود عليه بالتاريخ البشري السابق لأُمّة الإسلام، فتاريخ البشرية شاهد على أنّ الإسلام جاء لمواجهة ظاهرة الغلوّ على كل المحاور.. لقد حدّد الإسلام جوانب الغلوّ والتطرّف فوجدها تنحصر في محاور، منها:

١ – الغلوّ في أشخاص القادة والزعماء وأنّ الأُمم أصحاب الديانات تغلو أشدّ ما تغلو في أنبيائها وصلحائها، فحرص الإسلام حرصًا بالغًا على التنبيه على بشرية الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– وعبوديته لله، فقال: "**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**" الإسراء١، وقال: "**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**" الكهف١، وقال: "**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**" الكهف١١٠، وقال: "**لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**" آل عمران١٢٨، وقال: "**قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**" الأعراف١٨٨، وقال تعالى آمرًا نبيه –صلى الله عليه وسلم–: "**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**" الإسراء٩٣، وحرص الرسول على ذلك فأكّد على طبيعته البشرية في غير مناسبة، فورد عنه أنّه قال: "إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض" من حديث أُم سلمة متفق عليه، وقال صلى الله عليه: "إنما أنا بشرٌ، إذا أمرتُكم بشيءٍ من دينِكم فخُذوا به، وإذا أمرتُكم بشيءٍ من رأيي، فإنما أنا بشرٌ" من حديث رافع بن خديج، صحيح مسلم، صححه الألباني، وقال محذّرًا من الغلوّ في تعظيمه صلى الله عليه وسلم: "لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ" رواه البخاري.

٢ – وحذّر الإسلام من الغلوّ والتطرّف في تقدير الذات والعُجب بالنفس، فقال تعالى: "**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**" النجم٣٢، "**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا**" النساء٤٩.

٣ – وحذّر من الغلوّ والتطرّف في العبادة، فورد في حديث سعد بن أبي وقاص عند الطبراني "إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة"، واشتهر بين العامة حديث: "لا رهبانية في

الإسلام"[١٦].. وفي الحديث "أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" أخرجه البخاري ومسلم.

٤ – وحذّر من الغلوّ والتطرّف في الزهد ومخاصمة مظاهر الدنيا، فقال تعالى: "**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**" القصص٧٧، وقال عزّ من قائل: "**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَالِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**" الأعراف٣٢.

٥ – وحذّر من الغلوّ والتطرّف في الخصومة للأُمم الأخرى، فقال سبحانه: "**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**" سورة البقرة١٩٠، وقال عزّ وجلّ: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**" المائدة٨، كما قال تعالى: "**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**" المائدة٢.

٦ – ولم يكتفِ الإسلام بالنهي عن العدوان على الأُمم الأخرى بدون مبرّر من قتال أو عدوان أو تحريض أو نحوه، بل حثّ على الموضوعية في الحكم على هذه الأُمم، وعدم التعميم في اتهامهم بالفساد ونحوه، يقول تعالى: "**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**" آل عمران١١٣، وقال تعالى في وصف أهل الكتاب: "**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**" آل عمران٧٥. وهكذا حرص الإسلام أشدّ الحرص على محاربة الغلوّ والتطرّف في كل شأن من شؤون الحياة، وحافظ على شعار أُمّة الإسلام وهو الوسطية والاعتدال في الأمر كله، يقول

[١٦] موقع نداء الإيمان، من فتاوى اللجنة الدائمة لإفتاء السؤال الثاني من الفتوى رقم ٩٨٤٠ برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز.. الجواب الحديث صحيح.

تعالى: "**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**" سورة البقرة١٤٣.

ورغم ذلك يخطئ من يظنّ أنّ ظاهرة الغلوّ والتطرّف وما ينتج عنهما من ممارسة العنف في أُمّة المسلمين وليدة قرن من الزمان هو ذلك القرن الذي نشأت فيه جماعات الإسلام الحركي، وإنّما انتقل مرض الغلوّ والتطرّف إلى المسلمين باعتباره آفة بشرية، كما انتقلت أمراض أخرى من حب الشهوات أو حب الدنيا وذلك في صدر الإسلام، فكانت من واجبات تمام رسالة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– مواجهة تلك الآفات البشرية، فجاءه شاب مبتلى بشهوة النساء فطلب الإذن بالزنا، فعالجه النبي –صلى الله عليه وسلم– باللين، ولقد قرّر القرآن الكريم حرص بعض المسلمين على الدنيا في قوله تعالى: "**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ**" آل عمران١٥٢.. ومن هذا نفهم كيف تسلّلت أمراض الأُمم السابقة إلى أُمّة الإسلام، كنزعات بشرية طبيعية، عمل الإسلام على تهذيبها والقضاء عليها، وكما تسلّلت رغبات وشهوات النفوس إلى بعض المسلمين، تسلّلت أيضًا آفة الغلوّ والتطرّف لبعض أفراد من الرعيل الأول الذي عاصر رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، "جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهِم، فَقالَ: أنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي"[١٧]. هذه النزعة في المبالغة في الزهد، والغلوّ في

[١٧]الراوي: أنس بن مالك| المحدث: البخاري| المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: ٥٠٦٣| خلاصة حكم المحدث: [صحيح].

العبادة، حتى تجاوز الحدّ، كانت تظهر كفلتات في عصر النبوّة، فكلّما تنامى منها حادثة إلى مقام رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ردّ أصحابها إلى التوازن والاعتدال، فمن ذلك "آخَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بينَ سَلمانَ وأبي الدَّرداءِ، فزارَ سَلمانُ أبا الدَّرداءِ، فرأى أُمَّ الدَّرداءِ مُتَبَذِّلَةً، فقال: ما شأنُكِ مُتَبَذِّلَةً؟! قالتْ: إنَّ أخاكَ أبا الدَّرداءِ ليس له حاجةٌ في الدُّنيا، قال: فلمَّا جاءَ أبو الدَّرداءِ، قرَّبَ إليه طعامًا، فقال: كُلْ، فإنِّي صائمٌ، قال: ما أنا بآكِلٍ حتَّى تأكُلْ، قال: فأكَلَ، فلمَّا كان اللَّيلُ، ذهَبَ أبو الدَّرداءِ ليقومَ، فقال له سَلمانُ: نَمْ؛ فنامَ، ثمَّ ذهَبَ يقومُ، فقال له: نَمْ؛ فنامَ، فلمَّا كان عِندَ الصُّبحِ، قال له سَلمانُ: قُمِ الآنَ، فقامَا فصلَّيَا، فقال: إنَّ لنَفْسِكَ عليكَ حقًّا، ولِرَبِّكَ عليكَ حقًّا، ولِضَيْفِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لِأهلِكَ عليكَ حقًّا؛ فأَعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فأَتَيَا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذكَرَا ذلكَ، فقال له: صَدَقَ سَلمانُ"[١٨]، ومن ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم– لحنظلة: "والَّذِي نَفْسِي بيدِه، لو تَدومونَ علَى ما تكونونَ عندِي، وفي الذِّكرِ، لصافَحَتْكم الملائكةُ على فُرُشِكم وفي طُرُقِكم، ولكن يا حَنْظلةُ ساعةً وساعةً"[١٩].

ثم ظهر الخوارج بعد نحو أربعين عامًا من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فتمحوروا حول تأويل خاطئ عن مفهوم الحاكمية لله.. ذلك التأويل الذي اعتبره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكبار الصحابة معه والتابعين خروجًا عن حدود الاجتهاد في فهم النصّ، ولو كان اجتهادًا خاطئًا، لأنّ هذا التأويل تعدّى الاجتهاد إلى الانحراف، وترتّب عليه ممارسة الخروج على جماعات المسلمين واستحلال القتل للمخالف بغير حقّ. فكان خروج الخوارج هو أول إعلان منظّم عن ظاهرة الغلوّ والتطرّف وممارسة العنف لفرقة كاملة من فرق المسلمين في

---

[١٨] الراوي: وهب بن عبد الله السوائي أبو جحيفة| المحدث: الألباني| المصدر: صحيح الترمذي| الصفحة أو الرقم: ٢٤١٣ | خلاصة حكم المحدث: صحيح | التخريج: أخرجه البخاري (١٩٦٨).

[١٩] رواه مسلم.

التاريخ، قال ابن حزم: "ومَن وافق الخوارج من إنكار التحكيم، وتكفير أصحاب الكبائر، والقول بالخروج على أئمة الجَوْر، وأنّ أصحاب الكبائر مخلَّدون في النار، وأن الإمامة جائزة في غير قريش، فهو خارجي وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون، وإن خالفهم فيما ذكرنا، فليس خارجيًّا"[٢٠].

إنّ ظاهرة ظهور الخوارج كجماعة فكرية منظّمة على هذا النحو الذي ظهرت به في تاريخ المسلمين وبعد وفاة سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بأقل من ثلاثين عامًا فقط، ورفعهم شعار الحاكمية لله كمطلب أساسي أو كفيصل يتمايزون به على الناس، ثم معاودة ظهور أشباههم على فترات طيلة تاريخ المسلمين فيما بعد، دون أن يكون بين الجماعة الأولى للخوارج، والجماعات التالية لها نسب يتم من خلاله توارث ذات الأفكار والأطروحات، فليس لمن ظهر بعدهم علاقة مادية ملموسة بمن سبقوهم، يؤشّر على حقيقتين في غاية الخطورة:

الحقيقة الأولى: أنّ انحراف العقول عن التأويل السليم لنصوص الدين أمر وارد التكرار حتى دون وجود حاضنة اجتماعية أو بيئية تؤدّي إلى هذا الانحراف الفكري، ممّا يتطلّب معه عناية خاصة لجهود المربيين والمؤسّسات التعليمية في كل جيل، لتحصين الأجيال الناشئة ضد أُسس أفكار الغلوّ والتطرّف، ومعالجة جذورها أولا بأول.

الحقيقة الثانية: أنّه ربما تسرب إلى تراث المسلمين بعض أقوال وردت عن جماعة الخوارج الأولى تلك التي ظهرت في صدر تاريخ المسلمين، فلا شكّ أنّهم كان لديهم منظّروهم وزعماؤهم المفكرون وخطباؤهم وأصحاب الرأي والحُجة فيهم، ولا شكّ أنّهم كانوا يستخدمون النصوص الدينية التي تؤيد ما ذهبوا إليه من تأويل منحرف للدين، وذلك لقربهم الزماني لحياة النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولقربهم المكاني واختلاطهم بالصحابة –رضوان الله عليهم–

[٢٠] الفصل في الملل والأهواء والنحل ١١٣/٢.

والتابعين، وعلى هذا فكما أنّ العلم رحم بين أهله، فلا بدّ أنّ الانحراف الفكري والغلوّ والتطرّف في الدين رحم بين أهله أيضًا.. وهذا دافع آخر يدفعنا إلى التدقيق في التراث الإسلامي وإعادة معايرته على القرآن الكريم والسُنة النبوية الصحيحة الثابتة ثبوتًا قطعيًا مع قطعية دلالتها، لتنقيته مما تسرّب إليه من مقالات تدفع إلى الغلوّ والتطرّف ربّما دسّها عليه بعض متكلمي الخوارج المتقدّمين.

وفي جميع الأحوال تظلّ ظاهرة خروج جماعة الخوارج الأولى، مُلهمة في هذا البحث، ولو كان مدى اهتمامه الزمني القرن الأخير من الزمان، وموضوعه الرئيسي هو تنظيمات الحركة الإسلامية الحديثة، للعلاقة الوثيقة في التأويل الفكري لنصوص القرآن الكريم والسُنة النبوية، ووحدة الشعار المرجعي الأساسي (الحاكمية لله) بين الظاهرتين.

المطلب الثالث: الغلوّ في الاعتقاد أو المذهب أو الأشخاص سبب العنف في أنحاء العالم

إذ يؤدي هذا الغلوّ دائمًا إلى تحقير المخالف ونفي إنسانيته وسرعان ما يتحوّل إلى شرعنة قتله والتخلّص منه، إنّ المجازر التي يتعرّض لها المسلمون في بورما (ميانمار) على يد البوذيين من سكّان المنطقة تعطي انطباعًا قويًا بأنّ تعاليم بوذا ولا شكّ تدعو إلى العنف الإجرامي وتؤسّس له، لكن بالرجوع إلى تعاليم بوذا نجدها تحثّ على التسامح حتى تكاد تحرِّم القتل كما تحرِّم الخمور والموبقات (القواعد الخمس التي تشكّل أساس الممارسات الأخلاقية للبوذية: الكف عن القتل، الكف عن أخذ ما لم يُعطَى له، الكف عن الكلام السيئ، الكف عن السلوكيات الحِسية المُشينة، الكف عن تناول المشروبات المُسْكِرة والمخدرات.. باتباع هذه

التعاليم يمكن القضاء على الأصول الثلاثة للشرور: الشهوانية، الحِقد والوَهم[٢١]). بالمقارنة بين التعاليم المتسامحة وبين الممارسات العدوانية الإجرامية التي تشكّل جرائم ضد الإنسانية يكمن الغلوّ في الاعتقاد.. هذا الغلوّ الذي قد يكون لجنس بشري على حساب جنس، أو لون على حساب لون، أو عرق بشري على حساب آخر.. فكل عنف يُمارَس في هذا العالم نتج حتمًا عن غلوّ أدّى إلى نفي إنسانية الآخر، ومن ثَمَّ محاولة محوه من الوجود.

المطلب الرابع: الغلوّ بسبب الخطأ في قراءة وفهم النص المقدّس والتأثّر الخاطئ بالتراث

١- اقتطاع النص من سياقه اللُغوي وسياقه الظرفي الموضوعي. مثل رفع شعار قوله تعالى: "**وقاتلوهم**"، دون النظر إلى السياق اللُغوي الذي يعلّل الأمر بقتالهم للمسلمين، أو قتالهم كافة كما يجتمعون كافة لقتال المسلمين.. ليس الأمر هنا لمطلق القتال لا لُغة ولا موضوعًا، ومثل قوله تعالى: "**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**" الأنفال٦٠، فيتّخذها البعض شعارًا عامًا دافعًا –ربما إلى العدوان–، بينما استكمال الآية الكريمة يقول: "**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**" الأنفال٦٠، والقرآن الكريم هنا يقرّ أعظم أنواع السلم العالمي القائم على توازن القوى، وهو خيار سلام استراتيجي قائم على مبدأ تكافؤ القوى الذي يمنع أي قوة من محاولة الاعتداء مخافة ردّ الاعتداء بالمثل.. ومثل الاستشهاد بقوله صلى الله عليه وسلم لأئمة الكفر من قريش: "تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح؛"رواه أحمد في مسنده. إنّ الاستدلال بمثل هذا الحديث مُقتَطعًا من

---

[٢١] الأخلاق البوذية،
https://areq.net/m/%D8%A3%D8%AE%D9%84%D8%A7%D9%82%D9%8A%D8%A7%D8%AA_%D8%A8%D9%88%D8%B0%D9%8A%D8%A9.html

سياقه الزمني والظرفي الموضوعي يتنافى ولا شكّ مع نصوص الإسلام الأخرى المحكمة، كقوله تعالى: "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**" الأنبياء١٠٧، وكقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا رحمة مهداة"، بل وتجلّى ذلك في فعله في كل سيرته، فلمّا عرض عليه مَلَك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، قال: "لا لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئًا"، ومع أسرى بدر إذ قبِل الفداء مرجّحًا إياه على قتلهم، وبعد فتح مكّة إذ قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".. فأين موضع قوله: "لقد جئتكم بالذبح" من نصوص القرآن والسُنّة، ومن سيرته صلى الله عليه وسلم؟! كل ذلك معناه أنّه تم اقتطاع النص من سياقه الظرفي الموضوعي.

٢- عدم ردّ النصوص الظرفية إلى النصوص الحاكمة التي عليها مدار الدين، فلا شك أنّ قوله تعالى: "**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**" سورة البقرة٢٥٦، وقوله تعالى: "**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**" يونس٩٩، هي من أصول الدين الذي لا يقبل الإكراه، بل وجعل الإكراه على الكُفر غير مُحقِّق للكُفر، إذ يبقى المؤمن على إيمانه ولو نطق بكلمة الكُفر مُكرَهًا، لقوله تعالى: "**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**" النحل١٠٦، فكيف نحتج بحديث: "أُمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى" رواه البخاري ومسلم؟! ولا شكّ عند المتأمل أنّ هذا الحديث الشريف إنّما يحثّ على قتال المشركين المحاربين، وأمّا المشرك المسالم أو المعاهد، الذي يكفّ أذاه عن المسلمين فهو معصوم الدم، وهذا مقتضى سيرته صلى الله عليه وسلم مع المشركين، فلم يقتلهم أو يأمر الصحابة بقتلهم إلا من خلال مواجهة حربية، بل كان يتفاوض معه المشركون وهم على شركهم، كما حدث عند الحديبية، وكما جاءه أبو سفيان إلى المدينة بعد نقضهم العهد، ولم يقتلهم النبي ولم يأمر بقتلهم، وكذلك فعل مع يهود المدينة إذ

صالحهم حتى حاربوه، بل لمّا أطلق طُلقاء مكّة بعد الفتح لم يشترط عليهم الإسلام قبل الإطلاق.. فإنّ ردّ النص الظرفي إلى النص الذي عليه مدار الدين، هو العاصم من الغلوّ في الفكر أو الشذوذ في الفهم.

٣-عدم تنقيح مرويات التراث بشروط علم الحديث.. لقد رأينا في الفقرة السابقة أنّه حتى إذا صحّ الحديث فيجب قياسه إلى النص الأعلى وهو القرآن الكريم، وفهم المعنى في ضوء فهم توجيهات القرآن الكريم قطعية الثبوت والدلالة.. لكننا أيضًا أمام معضلة أخرى، وهي الاستناد إلى أحاديث ضعيفة السند أو غير قطعية الدلالة بما تحمله من أوجه متعدّدة للتأويل، ومثال ذلك تعرّض كثير من كتب سيرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إلى حوادث اغتيال أمر بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفيها مبالغات بالغة الشذوذ تروي أنّ سرايا الاغتيال كانت تقطع الرؤوس وتحتفظ بها ثم تضعها بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-! إنّ أغلب كتب السيرة تنسب إلى النبي والصحابة القيام بسبع عمليات اغتيال لقادة الشرك، ومن الكتب ما زاد في العدد على هذه السبع المشهورة، ولقد ثبت بتطبيق شروط صحة الحديث من اتصال السند وعلوم الجرح والتعديل من هذه العمليات ثلاث عمليات فقط وقد تم تنفيذها وفق ضوابط احترازية شديدة، وهي مقتل كعب بن الأشرف، وخالد بن سفيان الهذلي، وأبي رافع سلام بن أبي حقيق، وأمّا بقية الوقائع فهي غير قطعية الثبوت، وكل ما قيل عن إلقاء الرؤوس المقطوعة بين يدي رسول الله موضوع لا صحة له ولا أصل.

إنّه بدون تنقيح التراث من المرويات الضعيفة الواهية، سيظل هناك مجال خصب لكل داعية إلى العنف أن يأخذ من نصوص التراث مسوّغًا لدعوته، ناسبًا إياها إلى النبي الأعظم وإلى كبار الصحابة.

نخلص من هذه النبذة التاريخية أنّ الغلوّ والتطرّف انحراف بشري عن الفهم المستقيم يدفع إلى اعتناق معتقدات تميل إلى التشدّد والتعصّب، وينتج عنه مجموعة من السلوكيات والممارسات الضارة، تبدأ بالنظرة السلبية أو الدونية للآخر صاحب الرأي أو العقيدة أو العِرق أو اللون أو

الجنس المختلف مع المتطرّف، وتتطوّر في الغالب إلى اعتزال المجتمع الكبير الواسع والميل إلى العزلة والحياة داخل جماعات أصغر حجمًا يتوافر فيها انسجام وتماثل في طريقة التفكير والمعتقد.. وعادة ما يُنتِج هذا المعتقد ثمّ حياة العزلة شعورًا نفسيًّا عميقًا يسيطر على تلك الجماعة الأصغر حجمًا من المجتمع بتآمر المجتمع الخارجي عليها، واستهدافه لوجودها، وتميل إلى تفسير كل ما يدور حولها من أحداث تفسيرًا تآمريًّا مرَضيًّا، مع تعميق الشعور بالتميّز والعلوّ شعورًا يدفع باستمرار نحو المحافظة على نقاء الجماعة مما يصيبها بالعزلة والانغلاق أكثر فأكثر. وغالبًا ما يلجأ هذا النوع من الجماعات إلى ممارسة العنف لصدّ أنواع الهجوم التآمري المنتظر من المجتمع الكبير تجاههم، ويزداد الأمر خطورة وحدّة إذا تم تدعيم هذه الرؤى المتطرّفة بنصوص مقدّسة، بحيث تصبح حروب تلك الجماعات نفسها ضد الآخر حروبًا مقدّسة، وتصبح إراقة الدماء في سبيلها قرابين تقدّم إلى السماء.. وأنّ هذا الانحراف البشري قديم قدَم البشرية نفسها، وأنّه كلما ارتبط الإنسان وارتبطت الجماعة بالقيم العليا للدين، مع التأويل السليم المنضبط لنصوصه المقدّسة، كلما نجح العالم في الحدّ من انتشار ظاهرة الغلوّ والتطرّف ومن ثَمّ العنف المؤسّس عليهما.

الفصل الثاني: نماذج لنشأة الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة

حركة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في نجد

الفصل الثاني: نماذج لنشأة الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة

حركة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في نجد

تُعدّ الحركة الوهّابية أو دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في نجد، ومن ثَمّ في شبه الجزيرة العربية، هي أول حركة إصلاحية انفصالية في تاريخ المسلمين قامت على فكرة الانفصال عن الأُمّة، لإنشاء كيان تأسيسي جديد، فغالبية الحركات الإصلاحية السُنية على امتداد تاريخ المسلمين، لا سيّما في القرون الأخيرة، قرون استضعاف وخمول المشرق المسلم، كانت حركات إصلاحية من الداخل، مثل الحركة السنوسية في ليبيا، والحركة المهدية في السودان، فتلك حركات قامت في الأساس ضد المحتل الأجنبي، وكانت تدعو ضمن ما تدعو إلى الإصلاح داخل الأُمّة المسلمة مجتمعًا وسُلطة.. لكنّ حركة الشيخ محمد عبد الوهّاب عملت على مواجهة الدولة العثمانية القائمة، التي كانت تُعدّ في ذلك العصر هي السُلطة الرمزية المُمثّلِة لأقاليم العالم المسلم، هذا على الصعيد السياسي والعسكري، كما اختطّت لنفسها خطّ المواجهة مع المسلمين أنفسهم فوصفتهم بأهل البدع، واتهمتهم بالوقوع في الشركيات، وأغلظت عليهم بذريعة القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولقد غالى أتباع هذه الحركة غلوًّا كبيرًا في التعصّب لها، حتى يصفها بعض الغُلاة بأنّها "دعوة الإمام التى هي دعوة الإسلام، دعوة السلف الصالح، يمكن أن يتحدّث عنها المؤرخ فيسهب، والأديب فيطنب، والعالم فيؤسّس، والمربي فيقرّب، وغيرهم"[٢٢].

إنّ وصف أي حركة، أو دعوة إصلاحية، أو تجديدية، أو تغيرية داخل المجتمع المسلم والأُمّة المسلمة بأنّها دعوة الإسلام، هو الدليل الدامغ على التعصّب والغلوّ للأشخاص والأفكار

[٢٢] صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، الرياض ١٤١٩/١٠/٢٦، موقع صيد الفوائد، http://www.saaid.net/monawein/t/3.htm.

والمذاهب والحركات والأحزاب، وهو بداية الانحراف عن المسار التاريخي للإصلاح عبر اثني عشر قرنًا هي عمر تاريخ المسلمين السابق على ظهور أولى تلك الحركات.

ولقد عاش الباحث في الحجاز وخالط دعاة وأبناء الحركة والدعوة الوهّابية نحو عشرين عامًا كاملة، ولقد كوّن صورة كاملة عن ممارساتهم وعاداتهم، بل ومآلات المجتمع نفسه الذي فشت فيه دعوتهم، ورفَعَت أعلامها وعلّمت في المدارس، وهيمنت على المنابر، ووجّهت في وسائل الإعلام، وحكمت أيضًا بالقوانين أو حالفت الحاكم وأيدّته -على أقلّ تقدير-، لكنّه لا يريد في هذا البحث الموضوعي أن يصدر حكمًا عن رأي أو مشاهدة، ولا أن يصف الممارسة فيبدي رأيًا فيها، وإنّما أراد أن يظلّ البحث مختصًّا بالأصول الفكرية الموجّهة للسلوك والممارسة والحركة والعمل والاجتهاد، ونظر فيما كُتب عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، فوجد تباينًا شاسعًا، وتفاوتًا عظيمًا بين مؤيّد غالٍ في دعوته مغالاة كاد أن يجعلها معادلا فعليًا لدعوة الإسلام ذاته، أو اعتبرها ممثّلا حصريًّا للإسلام.. ومنهم من بالغ في عداوتها فجعلها من فرق الخوارج، ومنهم من أخرجها من دائرة أهل السُنّة والجماعة، فأراد في هذا البحث أن يورد أصولها الفكرية من منابع الدعوة الوهّابية نفسها، ومن مرجعياتها وأئمتها ودُعاتها، لنسمع منهم ولا نسمع عنهم، التماسًا للإنصاف، وطلبًا للموضوعية البحثية، وقصدًا للعدالة في التصوّر والحُكم.

المبحث الأول: الأصول الفكرية لدعوة محمد بن عبد الوهّاب

إنّ هذه الحركة قد وُلِدت في الهامش السياسي للعالم الإسلامي، وللخلافة العثمانيّة، وفي فضاء جغرافي بعيد عن الحواضر الكبرى، مثل: القاهرة، أو دمشق، أو بغداد، أو تونس...، وهذا ما جعل هذه الحركة (في بنيتها الشكليّة على الأقلّ) قوّة تمرّد الهامش على المركز، والبداوة على الحضارة، وعنف انتماء للقبلي والعشائري على قيم الانتساب إلى المدن، والحواضر الكبرى، والدولة الحديثة، على نحو أكثر تجريدًا. في هذه الدعوة بعدٌ ثوريّ خفيّ ومسكوت عنه، ضدّ البنيات السياسيّة القائمة، وضدّ الشعائر الدينية السائدة. وفي كلّ الأحوال، جنّدت أتباعها (من داخل نجد ومن خارجها) ممّن كان ولاؤهم للخلافة العثمانية ضعيفًا أو معدومًا، وممّن كانت أسطورة العودة إلى الزمن الأوّل للإسلام تحرّك فيهم متخيّلاً حافلاً بممكنات الاستعادة، وببعدها الفردوسي[٢٣].

الأصول الفكرية للتوحيد والتكفير بالبدع الشركية من أقوال الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وتلاميذه:

نصوص صريحة في التكفير

١ – الشكّ والتوقّف لا يعصم الدم: "ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: "من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم ماله ودمه". وهذا من أعظم ما يبين معنى: (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرُم ماله ودمه حتى يضيف إلى

[٢٣] عبد الرزاق القلسي، قراءة في كتاب حلف نجد لحمادي الرديسي، باحث تونسي في نشأة المذهب الوهابي: بحث أركيولوجي في أصول العقيدة الوهابية، موقع مؤمنون بلا حدود.

ذلك (الكفر بما يُعبد من دون الله) فإن شك، أو توقف، لم يحرم ماله ودمه! فيا لها من مسألة، ما أجلّها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.[٢٤]".

٢ – الردّة بالجدّ والهزل والمزاح: "هذه أصول أنواع الردة: القول والاعتقاد والفعل والشك، وينشأ عن هذه الأصول أنواع كثيرة من نواقض الإسلام، وبعض الجُهّال أو المغرضين يستنكرون الكلام في بيان أسباب الردة عن الإسلام ويصفون من يتكلم في ذلك بأنه تكفيري ويحذّرون منه. فالردة بالقول كأن يتكلم بلفظ الكفر والشرك غير مُكره، سواء كان جادًا أو هازلا أو مازحًا، فإذا تكلم بكلام الكفر فإنه يحكم عليه بالردة إلا إذا كان مُكرهًا.[٢٥]".

٣ – الاستغاثة بغير الله كُفر مُخرِج من الملّة: "وكذلك الذي يدعو غير الله ويستغيث بغير الله فيقول لأحد الأموات: يا فلان أغثني، ويا فلان أنقذني، ينادي الموتى والمقبورين، أو ينادي الشياطين والجن، أو ينادي الغائبين ويستنجد بهم، إذا دعا غير الله واستغاث بغير الله من الأموات والغائبين، فإنه يكفر بذلك.[٢٦]".

٤ – لا عُذر بالجهل لمن يعيش في أرض المسلمين: "من تلفّظ بالكفر كفر إلا أن يكون مُكرهًا، ومن كان يعيش في بلاد ليس فيها إلا كفار، فهذا يُعذر بالجهل، وأمّا الذي يعيش بين المسلمين وفي بلاد المسلمين ويسمع القرآن ويسمع الأحاديث وكلام أهل العلم، لا يُعذر بالجهل لأنه بلغته الحُجة، ولكنه لم يهتم بها بل قد يقول: هذا دين الوهابية، أو دين أهل نجد، أو دين فلان وفلان، كما يقولون عن التوحيد إنه دين ابن عبد الوهاب مع إنه دين الرسول صلى الله عليه

---

[٢٤] الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي، كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، تحقيق أبو مالك الرياشي القفيلي، مكتبة عباد الرحمن، ط١، ص٢٧.

[٢٥] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، كتب دروس في شرح نواقض الإسلام للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ط٣، مكتبة الرشد ٢٠٠٥م، ص٢٠.

[٢٦] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٢١.

وسلم، وابن عبد الوهاب لم يأتِ بشيء وإنما دعا إلى دين الرسول صلى الله عليه وسلم.... أو يقولون هذا دين الخوارج، يسمّون الموحدين خوارج، أهؤلاء يعذرون بالجهل؟ هؤلاء مكابرون لا يُعذرون بالجهل[٢٧]".

٥ – تكفير المعيّن: "سؤال: يقول العلماء: لا يكفر المعين إذا وقع في الكفر إلا إذا وُجدت الشروط وانتفت الموانع وأقيمت الحُجة عليه؟ فهل هذا صحيح؟

جواب: نعم هذا صحيح، ولكن قيام الحُجة يحصل ببلوغ القرآن إليه على وجه يفهمه لو أراد الفهم".

٦ – كُفر أصحاب المذاهب المعاصرة كالعلمانية: "سؤال: نسمع في هذا العصر دعوى العلمانية وهي فصل الدين عن الدولة فهل أصحاب هؤلاء مرتدون؟

الجواب: لا شك أن أصحاب المذاهب المعاصرة الإلحادية مرتدون، مثل العلمانية، والحداثية، والقومية والشيوعية، لأنها مخالفة للإسلام[٢٨]".

٧ – التكفير بالحاكمية: "ومن الناس من يفسر الشرك أنه شرك الحاكمية ويغفلون ما عداه، ويقولون: التوحيد هو توحيد الحاكمية والشرك هو شرك الحاكمية. ونقول: هذا نوع من أنواع الشرك، لأن التشريع حق لله عز وجل، والحكم بما أنزل الله عبادة، لكن ليس الشرك محصورًا في هذا النوع، بل الشرك عام في الدعاء والذبح والنذر والاستغاثة[٢٩]".

٨ – استباحة الدماء: "أن الشرك يبيح دم المشرك وماله ويوجب جهاده، قال صلى الله عليه وسلم: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم

---

[٢٧] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٣١.

[٢٨] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٣٤.

[٢٩] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٤٤.

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" فلا يعصم المال والدم إلا التوحيد، أما الشرك فإنه يبيح الدم والمال بمقاتلة أصحابه، هذا هو الشرك وما يترتب عليه من العقوبات في الدنيا والآخرة، وهو أنواع كثيرة أعظمها: دعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، والذبح لغير الله، والسجود لغير الله، والنذر لغير الله، والركوع لغير الله، إلى آخره..... ومن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر[٣٠]".

٩ – ترتيب أولويات الدين: "فلو أن الإنسان ترك الزنا وترك شرب الخمر والربا وترك جميع المحرمات إلا أنه مشرك لم ينفعه ذلك كله، ولو يصلي الليل والنهار، ولو تصدق بجميع أمواله ما دام عنده شرك أكبر فلن ينفعه ذلك. أما لو كان عنده توحيد وسلامة من الشرك وإخلاص لله، فهو لو عمل الكبائر التي دون الشرك فإنه يرجى له المغفرة، وإن عُذب فإنه لا يخلد في العذاب، فكيف نترك الأمر الخطير ونتجه إلى ما دونه ونقول هذا العمل هو الدعوة إلى الله عز وجل. الآن تعرفون جهود الدعوة وكثرة الدعاة وأن لها مؤسسات ومراكز لكن الأضرحة على حالها، بل تزيد في العالم الإسلامي، والتصوف والبدع يكثران! أين الدعوة إلى الله؟ أين هذه الجهود وثمراتها؟[٣١]".

١٠ – "هذا هو حال عُبّاد الأموات والأضرحة الآن، يتخذون الأولياء والصالحين وسائط عند الله، يذبحون لهم عند قبورهم وينذرون لهم ويستغيثون بهم ويدعونهم من دون الله، فإذا قيل لهم: هذا شرك قالوا: هؤلاء وسائط بيننا وبين الله، نحن لا نعتقد أنهم يخلقون مع الله، ويرزقون مع

[٣٠] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٤٧.

[٣١] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٥٥.

الله، ويدبرون مع الله، وإنما اتخذناهم وسائط بيننا وبين الله، يبلغون الله حوائجنا، فيذبحون لهم ويعظمونهم وينذرون لهم بحجة أنهم وسائط بينهم وبين الله، فهذا هو شرك الأولين[٣٢]".

١١ – الشكّ في التكفير كُفر: "فهذا أشد كفرًا، فالذي يشك في كفر المشركين عمومًا سواء كانوا من الوثنيين أو من اليهود والنصارى أو من المنتسبين للإسلام وهم يشركون بالله يجب اعتقاد كفرهم، فكل من أشرك بالله وعبد معه غيره من الأشجار والأصنام والأحجار والأوثان، والقبور والأضرحة فإنه كافر مشرك يجب تكفيره حتى ولو كان يدّعي الإسلام، ويقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، لأن الشرك يُبطل الشهادتين ويُناقض الإسلام ويُفسد التوحيد، فيجب على المسلم أن يكفّر المشركين الذين يعبدون غير الله سواء كانوا من العرب أو من العجم، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو المتسمين بالإسلام، هذه عقيدة ليس عليها مساومة، فمن لم يكفّر المشركين يكون مرتدًا كافرًا مثلهم، لأنه تساوَى عنده الإيمان والكفر، لا يفرّق بين هذا وهذا فهو كافر[٣٣]".

١٢ – "سؤال: يوجد في القنوات الفضائية من يقول إن اليهود والنصارى إخواننا في الإيمان، فما حكم هؤلاء؟ هل يكفرون؟

جواب: من قال إن اليهود والنصارى إخواننا فإنهم يكفرون بذلك، إلا إذا كان القائل جاهلا فإنه يبين له فإن أصر فإنه يحكم بكفره، وأما إذا تاب تاب الله عليه[٣٤]".

١٣ – في تكفير المعيّن: "جواب: من أظهر الكفر يحكم عليه بالكفر، ومن أشرك بالله يحكم عليه بأنه مشرك، ولكن لا تجزم له بالنار، فأنت تحكم عليه بالكفر في الدنيا بموجب ما صدر

---

[٣٢] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٦٠.

[٣٣] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٨٠.

[٣٤] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٩٦.

منه، وأمّا في الآخرة فأنت لا تحكم عليه أنه من أهل النار، فقد يكون قد تاب وأنت لا تدري، فالسائل قد خلط بين الأمرين: مسألة التكفير ومسألة الحكم بالنار على معين[٣٥]".

١٤ – في مسائل الحُكم: "وكذلك من يقول: إن حكم الله حق ولكن لا يلزم الالتزام به، ويجوز للإنسان أن يحكم بغيره وأن يتمشى مع الزمان إذا رأى المصلحة في ذلك، فهذا مرتد عن دين الله، لأنه لا يجوز أن يحكم بغير ما أنزل لله عز وجل، وكل حكم سوى حكم الله عز وجل فإنه باطل.... أي لا خيار في حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إن شئت قبلت وإن شئت لم تقبل! ولكن إن شئت أن تتنازل عن حقك فهذا شيء آخر، أما أن تقول لا أقبل وأذهب إلى المحاكم القانونية، فهذه ردة عن دين الإسلام[٣٦]".

١٥ – "من حكم بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه لا يعتقد أن هذا يجوز أو أحسن من حكم الله أو أن هذا مساو لحكم الله وإنما حمله هواه على هذا، أو أنه طمع في مال أو منصب فحكم بخلاف حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من أجل هذا الذي صرفه من غير اعتقاد، فهذا يسمى كفرًا عمليًا وهو من الكفر الأصغر وهو كبيرة من كبائر الذنوب وخطير جدًا، ولكن لا يحكم بأنه خرج من الملة لأن عقيدته باقية[٣٧]".

١٦ – "فأهم شيء العقيدة، والناس مختلفون فيها فلا بد أن يحكم بينهم بما أنزل الله فتبين لهم العقيدة الصحيحة من العقيدة الباطلة، أما أن يقال: دعوا الناس على ما هم عليه من العقائد ولا

[٣٥] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص٩٦.

[٣٦] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٠٢.

[٣٧] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٠٣.

تنفّروا الناس وكل له عقيدته، فهذا لا يجوز وهو كلام باطل، ومن أجاز أن يختار كل إنسان العقيدة التي يريدها وأن الناس أحرار في الاعتقاد فهذا يرتد عن دين الإسلام[٣٨]".

١٧ – رفض رأي المخالف أيًّا كان: "وكذلك الحكم في الأسماء والصفات فيحكم على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتوردية والخوارج والمرجئة بما أنزل الله ويبين بطلان عقائدهم، وأما توحيد الربوبية فلا نزاع فيه، أما أن يقال: اتركوا الناس على عقائدهم فأمر باطل ومنكر، وهذا مخالف لدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام خصوصًا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[٣٩]".

١٨ – "فالحكم بما أنزل الله عام وليس خاصًا بمسائل المنازعات والخصومات في الأموال فقط كما يظن بعض الناس، وأما أمور العقائد فالناس يُتركون كل يختار ما يريد ويبقى على ما يريد فهذا أمر عظيم وخطير جدًا، فحكم الله شامل لكل هذه الأمور وما هو أكثر منها. ويجب على الحكّام أن يحكموا بما أنزل الله وهذا من أعمالهم وأن يلزموا الناس بحكم الله[٤٠]". "فمسألة الحكم بما أنزل الله مسألة عظيمة وفيها تفاصيل كما ذكر أهل التفسير، فلا يطلق الكفر على كل من حكم بغير ما أنزل الله بل يفصل في هذا بين من يرى أن حكم غير الله أحسن أو أنه يساوي حكم الله أو أنه مخير فهذا يُحكم عليه بالكفر المخرج من الملة، أما من كان يرى أن حكم الله هو اللازم وهو الحق ولكن خالفه لهوىً أو لرشوة أو لطمع دنيوي فهذا يحكم عليه بأنه كفر دون كفر، وأن هذا فسق[٤١]".

١٩ – الوعيد على انتقاد العلماء: "أو الكلام في العلماء والوقيعة في أعراضهم، وأنهم علماء حيض ونفاس، وأنهم علماء سلاطين ومداهنة وما أشبه ذلك من المقالات الشنيعة التي يرددونها

---

[٣٨] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٠٤.

[٣٩] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٠٥.

[٤٠] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٠٧.

[٤١] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٠٩.

ويكتبونها مما لا يخفى، وكل هذا داخل في معنى الآية الكريمة وعلى صاحبه من الوعيد ما ذكره الله في هذه الآية، والله تعالى ذكر أن الكفار يسخرون من المؤمنين ويتنقصونهم[٤٢]".

سؤال: هل يستوي الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالعلماء من جهة الحكم؟

الجواب: الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم أشد بلا شك، والاستهزاء بالعلماء قبيح لأنهم ورثة الأنبياء، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: "العلماء ورثة الأنبياء" فالذي يستهزئ بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنما يستهزئ بالأنبياء. من طريق اللزوم، لماذا يستهزئ بهم؟ إلا لوراثتهم العلم، وحملهم له.

"سؤال: ما حكم من يستهزئ بالدين لإضحاك الناس؟

جواب: الحكم أنه كافر، سواء كان جادًا أو هازلا أو يُضحك الناس فإنه يكفر بعد إيمانه، والدين ليس محلا للاستهزاء والسخرية[٤٣]".

٢٠ – شهود الألعاب البهلوانية: "سؤال: هل الذين يأتون إلى الألعاب البهلوانية وغيرها التي تعتمد على السحر، يكفرون وهم لم يرضوا بها؟

جواب: إذا لم يرضوا بها فقد فعلوا محرمًا يأثمون عليه، أما أذا رضوا بها وهم يعلمون أنها سحر فإنهم يكفرون بهذا[٤٤]".

٢١ – "سائل: هل الحكم بغير ما أنزل الله من الكفر الأصغر أم من الأكبر؟ وما الدليل على ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

---

[٤٢] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٣٥.

[٤٣] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٤١.

[٤٤] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٥٦.

جواب: هذه مسألة واضحة ومبينة في كلام أهل العلم والأئمة، أن من حكم بغير ما أنزل الله يعتقد جواز ذلك أو أنه أحسن من حكم الله أو أنه مساو لحكم الله، أو أنه مخير إن شاء حكم بحكم الله وإن شاء حكم بغيره، هذا كافر بالإجماع[٤٥]".

٢٢ – الإعراض عن تعلّم العلم الشرعي: "الإعراض معناه الانصراف عن الشيء مع عدم الرغبة فيه. لا يتعلمه، أي: لا يتعلم دينه رغبة عنه لا كسلا أو عدم قدرة، وهذا يكفر لأنه لا يريد الدين، فإذا أعرض عن تعلمه كفر، لأنه لو كان له في الدين رغبة لتعلمه، ومن هؤلاء من ينادون الآن بتنقية المناهج الدراسية من العلوم الدينية لأنها بزعمهم تزرع التشدد والغلو والتطرف والإرهاب، وكذلك من يتعلمه ولكن لا يعمل به، وهذا أيضا يكفر ويرتد عن دين الإسلام، فإذا كان لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي الزكاة، ولا يحج ولا يؤدي الواجبات ولا يتجنّب المحرّمات، فهذا لا رغبة له في العمل فهذا يكفر[٤٦]".

٢٣ – "أني أقول لا يتم إسلام الإنسان حتى يعرف معنى لا إله إلا الله، وأني أعرّف من يأتيني بمعناها، وأني أكفّر الناذر إذا أراد بنذره التقرب لغير الله، وأخذ النذر لغير ذلك، وأن الذبح لغير الله كفر، والذبيحة حرام؛ فهذه المسائل حق، وأنا قائل بها[٤٧]".

٢٤ – "إن أعداء الدعوة من أهل نجد والحجاز والمصريين والأتراك غير مؤهلين للسماع منهم لكون غالب عداوتهم للدعوة من باب الجهل والحسد، وكفهم عما يخالف الشريعة مما ألفوه من البدع، وانقطاع ما يصل إلى بعضهم من أموال حقًا كانت أم باطلاً[٤٨]".

---

[٤٥] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٧٣.

[٤٦] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، المصدر السابق، ص١٩٠.

[٤٧] عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، الطبعة السادسة، سنة ١٩٩٦م، ج١، ص ٣٤، من جواب الشيخ ابن عبد الوهاب على أهل القصيم.

المبحث الثاني: نماذج من ممارسات الحركة الوهّابية وما أسموه الجهاد والغزو

ربّما يكون من العسير على باحثي الزمن الحالي أن ينقّبوا في آلاف الصفحات ممّا خطّها مؤرخو الحركة الوهّابية عن أحداث تلك الفترة الزمنية، التي امتدّت نحو ثمانين عامًا كاملة، ليقرأ عن مئات بل ربّما آلاف من حالات الكرّ والفرّ والإغارة والقتال، والسلب والنهب وقطع الطُرق، مما اصطلح مؤرخو الحركة على تسميته جهادًا وغزوًا وغنائم، فكان لزامًا على الباحث استكمالا لاستجلاء أثر الحركة الوهّابية على واقع المسلمين، على الفكر والممارسة معًا، أن يُقرَن هذا الغلوّ والتطرّف الفكري بالممارسة الدموية في الواقع، لتكتمل الصورة، ورغم الأولوية الكبرى التي يوليها هذا البحث للأصول الفكرية باعتبارها المحرّك الفعلي للممارسة والسلوك على الأرض، لكن ربّما لا يتبادر إلى عقل قارئ ما فداحة الخطر الداهم الناتج عن الغلوّ والتطرّف الفكري الاعتقادي، حتى يرى شيئًا من الممارسات، فخطورة الأفكار دائمًا تكمن في تحوّلها إلى ممارسات سلوكية في حياة الناس، ولأجل جلاء هذه الصورة ومحاولة المطابقة بين الاعتقاد الفكري والتطبيق العملي للحركة الوهّابية، رأى الباحث إيراد بعض نصوص المؤرّخين كأنموذج فقط على هول ما وقع من حوادث التاريخ، ومن ذلك:

١ – ما ذكره الجبرتي المؤرّخ المصري الشهير في حوادث ذي الحجة سنة ١٢٢٣هـ، حيث قال عن أهم الأحداث: "ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهّابي الناس عن الحج، والحال ليس كذلك؛ فإنه لم يمنع أحدًا يأتي الحج على الطريقة المشروعة وإنما يُمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يُجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة،

---

[٤٨] أد. خالد بن عبد الله بن عبد العزيز القاسم، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دائرة المعارف الإسلامية، موقع شبكة الألوكة الإلكتروني، نقلا عن الشيخ عبد الله عبد اللطيف عن أعداء الدعوة.

وقد وصل طائفة من الحجّاج المغاربة حجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله، ولم يتعرّض أحد لهم بشيء، ولمّا امتنعت قوافل الحج المصري والشامي وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل إليهم من الصدقات والعلائف والصُرر التي كانوا يتعيّشون منها خرجوا من أوطانهم ونسائهم، ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك، وأتوا إلى مصر والشام ومنهم من ذلك إلى إسلام بول يتشكّون من الوهابي، ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من إجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التي بأسماء رجال الدولة كالفِراشة والكِناسة ونحو ذلك، ويذكرون أن الوهّابي استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها، فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم إما حرصًا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم، أو لنوائب الزمان فتكون مدّخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء، فلمّا تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة فارتدت معنى لا حقيقة، وارتسم في الأذهان حُرمة تناولها وأنها صارت مالا للنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها، والنبي عليه الصلاة والسلام منزّه عن ذلك ولم يدّخر شيئًا من عرَض الدنيا في حياته..... وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعة منها، إلى أن حضر الوهّابي واستولى على المدينة وأخذ تلك الذخائر فيقال: إنه عبى أربعة سحاحير من الجواهر المحلاة بالألماس والياقوت العظيمة القدر، ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة ألماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام، ونحو مائة سيف قراباتها ملبّسة بالذهب الخالص ومنزل عليها الماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم، ونحو ذلك وسلاحها من الحديد الموصوف كل سيف منها لا قيمة له، وعليها دمعات باسم الملوك والخلفاء السالفين وغير ذلك[٤٩]".

[٤٩]الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (ص: ٨٤٢ وما تلاها) في أحداث سنة ١٢٢٣هـ.

٢ – "وفي سنة ١٦٦٥هـ قام أناس من رؤساء بلدة حريملاء وقاضيهم سليمان بن عبد الوهّاب[٥٠]، على نقض عهد المسلمين ومحاربتهم، وأجمعوا على ذلك وعزلوا أميرهم محمد بن عبد الله بن مبارك وأخرجوه من البلد، وكان الشيخ رحمه الله قد أحس من سليمان أخيه إلقائه الشبه على الناس وغير ذلك، فكتب إليه الشيخ ونصحه وحذره شؤم العاقبة، فكتب إلى الشيخ وتعذّر منه، وأنه ما وقع منه مكروه وإنه إن وقع من أهل حريملاء رِدة[٥١] أو مخالفة، لا يقيم فيها ولا يدخل فيما دخلوا فيه[٥٢]".

٣ – "ثم دخلت السنة السابعة والستون بعد المائة والألف، وفيها تضرّر دهام بن دواس[٥٣] من الحرب بينه وبين المسلمين، وطلب من محمد بن سعود المهادنة، وطلب الدخول في الدين وتجري عليه أحكام المسلمين، فطلب عليه الإمام محمد خيلا وسلاحًا، فبذل له ما طلب، وطلب منه أيضًا أن يرسلوا إليه معلّمًا يحقّق لهم التوحيد ويقيم شرائع الإسلام، فأرسل إليهم الشيخ محمد: عيسى بن قاسم، وعلّمهم وذاكرهم وانتفع به رجال كثير من أهل الرياض ولهذا لما نبذ دهام العهد هاجر منهم رجال كثير إلى الدرعية"[٥٤]، ولا يخفى على القارئ ما في هذه الصيغة من رموز إسلامية تشي بأنّ المؤرّخ يتحدّث عن جماعة المسلمين في مواجهة الكافرين، "بينه وبين المسلمين، الدخول في الدين وأن تجري عليه أحكام الإسلام، ومبعوث من الدرعية يعلّمهم

مع ملاحظة أن الكتاب مكتوب بلغة عصره، وإن بعض الهفوات اللغوية من الأصل.

[٥٠]الشيخ سليمان بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي، أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان قاضيا على حريملاء، واشتهر عنه معارضته لمنهج أخيه وسيرته.

[٥١]مؤرخو الحركة الوهابية يسمون كل خروج عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود (ردّة)، بمعنى نقض العهد، وربما قصدوا ما هو أكبر من ذلك.

[٥٢]الشيخ سليمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ط٤، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٩٨٢م، ص٦٥.

[٥٣]دهام بن دواس أمير الرياض.

[٥٤]الشيخ سليمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، المصدر السابق، ص٦٧–٦٨.

ويقيم فيهم الشعائر، وهجرة رجال من أهل الرياض إلى الدرعية"، مع أن أهل الرياض هؤلاء من عامة المسلمين، ولو جهلوا أحكام التوحيد على منهج الشيخ محمد بن عبد الوهّاب.

٤ – "ثم دخلت السنة السابعة والثمانون بعد المائة والألف، وفيها سار عبد العزيز إلى الرياض بجنود المسلمين، ونازل أهلها أيامًا عديدة، وضيّق عليهم، واستولى على بعض بروجهم وهدم أكثرها، وهدم المرقب، وحصل بينهم قتال، قُتل من أهل البلد عدة رجال، وقُتل من الغزو اثنى عشر رجلا، منهم عقيل بن ناصر، وابن خفيقان، وذلك في شهر صفر.. وبعد هذه الوقعة دخل قلب دهام الرعب والخجل، وداخله الخوف والوجل فلم يستقر له عين، وقام يحاول الانهزام وجمع رؤساء بلده وأخبرهم بحقيقة مقصده وأنه ملئ خوفًا ورعبًا فصاحوا عليه بأجمعهم، وقالوا: خذ منا العهد والميثاق. فقال لهم: دعوني فليست هذه البلد لي وطن، ولا أجد لي بها أنس ولا سكن.. فلما انتصف ربيع الثاني، سار عبد العزيز غازيًا إلى الرياض فلما قرب من بلدة عرقة، عارضه البشير بأن ابن دواس خرج من الرياض هاربًا، فحثّ عبد العزيز السيْر إليها، وقدمها بعد العصر، فإذا دهام قد ألقى الله في قلبه الرعب فخرج منها في النهار هو ونساؤه وعياله وأعوانه، وهذا شيء حدث، فإنه ما خاف من أهل بلده خيانة، بل كلهم صادقون معه ولا حصل عليه تضييق يلجئه إلى ذلك، والحرب بينه وبين المسلمين له وعليه ولكن الله سبحانه جعلها آية لمن افتكر وعبرة لمن اعتبر، قيل إنه انتفخ سحره، وطاش قلبه ولُبّه، فقام فزعًا مرعوبًا وركب خيله وركابه، فلما ظهر من القصر قال: يا أهل الرياض، هذا لي مدة سنين أحارب ابن سعود، والآن سئمت من الحرب فمن أراد أن يتبعني فليفعل، ففر أهل الرياض في ساقته الرجال والنساء، هربوا على وجوههم إلى البر وقصدوا الخرج وهلك منهم خلق كثير عطشًا وجوعًا، ذكر لي أن الرجل من أهل الرياض يأخذ الغرب، يجعل فيه ماء، ويجعله على ظهره، والغرب لا يمسك الماء، والإبل عنده لا يركبها، وتركوها خاوية على عروشها، الطعام واللحم في القدور، والسواني في المناحي، والأبواب لم تُغلق، وفي البلد من الأموال ما يعجز عنه الحصر، فلما

دخل عبد العزيز الرياض نادى فيها بالأمان، وأرسل إلى أهلها الذين انهزموا يدعوهم إلى الرجوع إليها، فرجع كثير منهم وسكنوها، وحاز عبد العزيز ما فيها من أموال الهاربين بين السلاح والطعام والأمتعة وغير ذلك، ومات من تبع دهام في هزيمته نحو أربعمائة. وقد أقام هذا الحرب سبعة وعشرين سنة، وذكر لي أن القتلى بينهم في هذه المدة نحو من أربعة آلاف رجل من أهل الرياض ألفان وثلاثمائة، ومن المسلمين ألف وسبعمائة[٥٥]"، فلو أنّ السادة العلماء الأفاضل ممّن يناصرون الحركة الوهّابية، أو يبرّرون بعض مواقف رجالها وجنودها ويحملونها على حسن الظنّ، قرأوا مثل هذه الحوادث التاريخية ومن أقلام مؤرخي الحركة أنفسهم ومن شهاداتهم على أنفسهم وعلى حركتهم، ثمّ يرضون ذلك أو بعضه، أو يرون للحركة الوهّابية بعض العُذر فيما مارست على الأرض بعدما أصّلت في الفكر من غلوّ وتطرّف وشذوذ وعنف، فما يأخذون إذن على منظمات يجرّمها العالم بأسره، مثل داعش وبوكو حرام[٥٦] ومثيلاتهما؟!

[٥٥] الشيخ سليمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، المصدر السابق، ص١١٩-١٢٠.

[٥٦] جماعة إسلامية نيجيرية سلفية جهادية مسلّحة، تتبنى العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع ولايات نيجيريا.

المبحث الثالث: ملحوظات على بعض الأصول الفكرية لحركة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب من كتبهم الأصلية

١ – المسارعة في التكفير.

٢– جعلوا كبائر الذنوب والبدع والمنكرات من نواقض الإسلام المخرجة من الملّة، الموجبة لحدّ الردة.

٣– عدم العُذر بالجهل لمن يفهم العربية ويقرأ القرآن، لأنّه لو أراد العلم الشرعي لتعلّمه، وأصلا رفض تلقي العلم الشرعي الذي يقيم به المسلم إسلامه يخرجه من الملة. بالإضافة إلى النصوص التي أشرنا إليها سابقًا من كتاب دروس في شرح نواقض الإسلام، يضيف الشيخ صالح الفوزان: "وأكثر ما تكون هذه القبور والأضرحة في بلاد العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فكيف تقولون هؤلاء جهال. إلى متى الجهل؟ لأنه بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن زالت الجاهلية وجاء العلم والحجة، فهل يُعذر بالجهل وهو يعيش في بلاد المسلمين ويحفظ القرآن، ويقرأ القرآن ويسمعه، ويسمع كلام أهل العلم خصوصًا بعدما جاءت وسائل الإعلام التي تنقل إلى الناس كلام أهل العلم، ويُقرأ فيها القرآن صباحًا مساءً بصوت يسمعه من في المشرق والمغرب، كيف يقال: إن هؤلاء ما بلغتهم الحجة؟ هؤلاء جهال! مع أن أكثرهم معهم شهادات عُليا في اللغة العربية وعلوم الشريعة والقراءات والفقه والأصول. فالحاصل أنهم لا حُجة لهم، وحُجتهم داحضة عند ربهم، ونسأل الله أن يهديهم إلى الصواب، وأن يستبين لهم الحق، وأن يتركوا العناد، ويتركوا التقليد الأعمى، ويرجعوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحقّقوا إسلامهم ويصحّحوا دينهم ويكونوا من أمة محمد صلى الله

عليه وسلم، ولا يكونوا من أمة المشركين وأتباع أبي جهل وأبي لهب[٥٧]". وحتى على فرض صحة الأصل الفكري الاعتقادي على كُفر المبتدع ووقوعه في الشرك الأكبر –رغم عدم صحة ذلك عند أهل السُنة والجماعة–، فإنّ تطبيق أحكام الردّة وقتال المرتدّين حقّ أصيل للسلطان وحده باتفاق علماء أهل السُنّة، ولقد اتفق أهل العلم على أنّ إقامة الحدّ أمر مختص بالسلطان أو نائبه. "وما عليه أهل السنة: أن إقامة الحدود حق للإمام لا غير، ولا يجوز لأحد كائنًا من كان أن ينازعه فيه، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "وقسْمة الفيء، وإقامة الحدود؛ إلى الأئمة ماضٍ، ليس لأحد أن يطعن عليهم، ولا ينازعهم[٥٨]".

يقول القرطبي –رحمه الله–: "لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر الذين فُرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود وغير ذلك لأن الله سبحانه خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعًا أن يجتمعوا على القصاص فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود[٥٩]".

ويقول ابن رشد الحفيد رحمه الله: "وأما من يقيم هذا الحد – أي: جلد شارب الخمر– فاتفقوا على أنّ الإمام يقيمه وكذلك الأمر في سائر الحدود.[٦٠]"[٦١].

٤– تكفير المعيّن إذا ارتكب واحدة من نواقض الإسلام العشرة، التي جمعها وبيّنها الشيخ ابن عبد الوهّاب.

---

[٥٧] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، كتب دروس في شرح نواقض الإسلام للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، ص٥٤.

[٥٨] من أصول السنة لأحمد بن حنبل، رواية عبدوس بن مالك العطار، ص٣٠.

[٥٩] القرطبي ٢/ ٢٤٥–٢٤٦.

[٦٠] محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ٢/٢٣٣.

[٦١] الشيخ أ.د. عرفة بن طنطاوي، إقامة الحدود حق للسلطان وحده، موقع الألوكة الإلكتروني، https://www.alukah.net/sharia/0/152900/.

٥- التكفير بالظاهر، ولو خالف ما في قلبه ما نطق به لسانه في حالة السخرية والاستهزاء بآيات الله.

٦- تكاد تتلمّس عصمة العلماء، ودخول الاستهزاء بهم ضمن ناقض الإسلام الخاص بالاستهزاء والسخرية من آيات الله ورسوله والمؤمنين، وعلّة ذلك أنّ السخرية من العالم لا تكون من شخصه وإنّما ممّا يحمله من علم.

٧ – حصر الإسلام خاصة في جانب العقيدة –وهو أخطر الجوانب لأنّ نفيه عن الآخر يعني تكفيره- في منهجهم ورؤيتهم وتصورهم، ولذلك يرد في مصادرهم كثيرًا ضلال الأشاعرة والماتردية والصوفية وأهل الكلام والشيعة، والتصريح بكفرهم جميعًا في كثير من المواضع.

٨ – لا تكاد تجد في كتبهم المؤسّسة لمنهجهم وأصولهم الفكرية استشهادًا أو شرحًا لعالم سابق أو فقيه، فهم يتلقّون مباشرة من القرآن الكريم ومن كتب الحديث، وقليل جدًّا من الاستشهاد بابن تيمية وابن القيم، وأندر منه بالإمام أحمد بن حنبل، وما عدا ذلك لن تجد استدلالا ولا عزوًا إلى إمام من الأئمة، ولا عالم من علماء المسلمين.

٩ – عدم قبول التعدّد في فهم العقيدة، وكأنّها لا تتقبّل تعدّد المذاهب والاجتهادات، بما في ذلك تفسير الأسماء والصفات.. وهذا ينعكس على نظرتهم للآخر المختلف معهم، فهذا الآخر كله في سلة واحدة كلها ضالة وكلها هالكة.

١٠ – التكفير في الحاكمية.

١١- الغلوّ في قضية الولاء والبراء.

١٢- النظرة الانتهازية للتعامل مع غير المسلمين، فيستفيدون منهم كل أنواع الاستفادة فيما لا يقدرون عليه، وفيما لا يتوفّر عندهم من علوم الدنيا، مع بغضهم أشدّ أنواع البُغض القلبي،

وغاية الإحسان في فهمهم هو مكافأتهم بالمقابل المادي دون النفسي والقلبي.. فغير المسلمين عندهم أعداء ولو لم يقاتلوا، ودارهم دار حرب، وليست دار دعوة.

١٣ – انعكاس هذه الأصول الفكرية على ممارسة وسلوك الحركة الوهّابية على الأرض، فلو أنّ الشيخ محمد بن عبد الوهّاب اكتفى بنشر أفكاره واتخذ له مجموعة من التلاميذ، لكان قد أسّس مدرسة فكرية أو عقائدية أو فقهية في فهم الإسلام، أو كان أسّس لمذهب خامس من مذاهب الفقه، أو بعث مدرسة تجديدية لمذهب الإمام أحمد بن حنبل مستعينًا باجتهاد ابن تيمية، لكنّ الحركة الوهّابية لم تكتفِ بالدعوة إلى مبادئها الفكرية وأصولها الاعتقادية، بل عمدت إلى تنفيذ منهجها بقوة السلاح، ورأت في غاراتها على الإمارات الصغيرة المجاورة نوعًا من الجهاد في سبيل الله، واعتبرت خصوم الدعوة الوهّابية أعداء لإسلام التوحيد الخالص، وإن انتسبوا إلى الإسلام بحكم النشأة والبيئة، فعمدت الحركة إلى التكفير العملي التطبيقي المسلّح، بعد أن تساهلت كثيرًا في إطلاق التكفير على العصاة والمبتدعين.. ودون أن تحتلّ مسألة السُلطة والحُكم أي مساحة في التنظير الفكري أو الأصول الفكرية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، فلم أجد لها نصًّا يفرد لها اهتمامًا خاصًّا، فإنّه مارس الحصول على السُلطة والحُكم بشكل عملي تطبيقي، فهو دون أن يدعو في رسائله أو دروسه أو مكاتباته إلى الدولة الوهّابية أو السعودية، أو دولة التوحيد الخالص، عمل بكل قوته وطاقته على الأرض متحالفًا مع الأمير محمد آل سعود لإقامة هذه الدولة، ودون أن ينظّر أو يدعو لفكرة الخروج على سُلطة الحكم العثماني وسيطرة الدولة العثمانية على الجزيرة العربية، فقد قام بالفعل بالتمرّد التطبيقي على الأرض على سُلطة السلطان العثماني.

١٤ – وقعت الحركة الوهّابية في تناقض فجّ بين أصولها الفكرية وعملها على أرض الواقع في مسألة الخروج على الحُكّام. يقول الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، حين ورده "سؤال: من يكفّر

الحُكّام ويطلب من المسلمين الخروج على حكامهم هل هو من الخوارج؟ جواب: هذا هو مذهب الخوارج إذا رأى الخروج على ولاة الأمور المسلمين وأشد من ذلك إذا كفّرهم فهذا مذهب الخوارج. سؤال: ما موقفنا من الذين يكفّرون حُكّام المسلمين اليوم جملةً وتفصيلا؟ هل هم من الخوارج؟ أفيدونا بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا؟ جواب: الذين يكفّرون حكّام المسلمين هؤلاء من الخوارج[٦٢]".

ويصف الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ بداية خروج الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وجماعته بالسلاح، فيقول: "بدأ الجهاد بالسيف، وبالكلام والبيان، والحُجة، والبُرهان، ثم استمرت الدعوة مع الجهاد بالسيف، ومعلوم أنّ الداعي إلى الله عز وجل إذا لم يكن لديه قوة تنصر الحق وتنفّذه فسرعان ما تخبو دعوته وتنطفي شهرته، ثم يقلّ أنصاره. ومعلوم ما للسلاح والقوّة من الأثر العظيم في نشر الدعوة، وقمع المعارضين ونصر الحق، وقمع الباطل ولقد صدق الله العظيم في قوله عز وجل وهو الصادق سبحانه في كل ما يقول: **(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)** الحديد٢٥، فبين سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبينات، وهي الحُجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل، وأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البيان، والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحق وينشر به الهدى ويعامل الناس على ضوئه بالحق والقسط، وأنزل الحديد فيه بأس شديد، فيه قوة وردع وزجر لمن خالف الحق، فالحديد لمن لم تنفع فيه الحُجة وتؤثر فيه البينة، فهو الملزم بالحق، وهو القامع للباطل..... فالعاقل ذو الفطرة السليمة، ينتفع بالبينة، ويقبل الحق بدليله،

[٦٢] الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، كتاب دروس في شرح نواقض الإسلام، ص١٧٤.

أما الظالم التابع لهواه فلا يردعه إلا السيف، فجدّ الشيخ رحمه الله في الدعوة والجهاد، وساعده أنصاره من آل سعود، طيب الله ثراهم على ذلك، واستمروا في الجهاد والدعوة من عام ١١٥٨هـ إلى أن توفي الشيخ في عام ١٢٠٦هـ فاستمر الجهاد والدعوة قريبًا من خمسين عامًا. جهاد، ودعوة، ونضال، وجدال في الحق، وإيضاح لما قاله الله ورسوله، ودعوة إلى دين الله، وإرشاد إلى ما شرعه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

حتى التزم الناس بالطاعة، ودخلوا في دين الله، وهدموا ما عندهم من القباب، وأزالوا ما لديهم من المساجد المبنية على القبور، وحكّموا الشريعة، ودانوا بها، وتركوا ما كانوا عليه من تحكيم سوالف الآباء والأجداد، وقوانينهم، ورجعوا إلى الحق.

وعمُرت المساجد بالصلوات، وحلقات العلم، وأُديّت الزكوات، وصام الناس رمضان، كما شرع الله عز وجل، وأُمر بالمعروف، ونُهي عن المنكر، وساد الأمن في الأمصار، والقرى، والطرق، والبوادي، ووقف البادية عند حدهم، ودخلوا في دين الله وقبلوا الحق، ونشر الشيخ فيهم الدعوة[٦٣]". فضد مَن كان جهاد الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وحركته وحلفاءه؟ هل كان ضد عدو أجنبي غاصب احتل أرضهم؟ أم كان ضد البادية وأمرائها التابعين للدولة العثمانية أو الخاضعين لها؟ ألم يكونوا ممّن يشهدون بالشهادتين ولو كانوا من أهل البدع والمعاصي حتى ولو كانت كبائر؟ ألم تكن أول عداوته مع أمير الإحساء وتوابعها من بني خالد سليمان بن عريعر الخالدي[٦٤]؟

[٦٣] صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، بحث حول الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته المجددة، الرياض ١٤١٩/١٠/٢٦، موقع صيد الفوائد الإلكتروني http://www.saaid.net/monawein/t/3.htm.

[٦٤] صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، المرجع السابق.

فكان هذا هو التناقض بين ما تؤمن به الدعوة الوهّابية وتدعو إليه في أصولها الفكرية من عدم الخروج على الحاكم، وبين ممارستها الخروج بالقتال المسلّح الذي أسمته جهادًا ومارسته في حياة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب نحو خمسين عامًا، ثمّ واصله أبناؤه وأحفاده من بعده، وقد بيّن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي خبر استيلائهم على الحرم المكي، واستحلالهم لأخذ الأموال والذهب والجواهر التي كانت مخبوءة في الحجرة الشريفة[٦٥].

١٥ – يحتج أتباع ودعاة الدعوة الوهّابية بأنّ كل ما قام به الشيخ محمد بن عبد الوهّاب والحركة الوهّابية من دعوة أعقبها حرب مسلّحة على الإمارات العربية المختلفة في الجزيرة العربية، بعموم الفساد في أرجاء البلاد المسلمة، حتى بدت لهم أنها باتت على الشرك، حتى ولو تسمّوا بالإسلام انتسابًا، ويلخّص لنا الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن حال العصر الذي ظهر فيه الشيخ محمد بقوله: ((كان أهل عصره ومصره في تلك الأزمان قد اشتدت غربة الإسلام بينهم وعفت آثار الدين لديهم، وانهدمت قواعد الملّة الحنيفية، وغلب على الأكثرين ما كان عليه أهل الجاهلية وانطمست أعلام الشريعة في ذلك الزمان، وغلب الجهل والتقليد والإعراض عن السنة والقرآن وشبّ الصغير لا يعرف من الدين إلا ما كان عليه أهل تلك البلدان، وهرم الكبير على ما تلقّاه من الأباء والأجداد، وأعلام الشريعة مطموسة، ونصوص التنزيل وأصول السُنة فيما بينهم مدروسة، وطريق الآباء والأسلاف مرفوعة الأعلام وأحاديث الكُهّان والطواغيت مقبول غير مردود، ولا مدفوعة قد خلوا ربقة التوحيد والدين وأدوا واجتهدوا في الاستغاثة والتعلّق بغير الله من الأولياء والصالحين والأوثان والأصنام والشياطين، وعلماؤهم ورؤساؤهم على ذلك مقبلون، وببحر الأجاج شاربون به، قد أغشتهم العوائد والمألوفات وحبستهم الشهوات والإيرادات عن الارتفاع إلى قلب الهدى من النصوص المحكمات والآيات

[٦٥] الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (ص: ٨٤٢ وما تلاها) في أحداث سنة ١٢٢٣هـ.

البينات[٦٦]))[٦٧]، هذه هي المبرّرات التي جعلت الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وحركته ابتداء يكفّرون أهل بيئتهم وجيرانهم، ثمّ يشنّون عليهم الحروب بالسيف لاحقًا. ولا يختلف أهل العلم على بدعية أعمال هؤلاء الجهّال الذين عاصروا الشيخ وحركته، ولا على كونهم من العصاة، ومنهم من كان يرتكب الكبائر أو يصرّ عليها، ألم يسع الشيخ وحركته ما وسع حركات الإصلاح على امتداد تاريخ المسلمين من تعليم الجاهلين، وتفهيم العصاة، ودعوتهم بالتي هي أحسن، وتغيير المنكر باللسان الذي هو أداة العلماء والدعاة في التغيير، ثمّ محاولة إصلاح نُظم الحكم والسياسة من داخل مؤسّسة الحكم نفسها، من خلال النُصح للسلطان العثماني وحاشيته؟

[٦٦] عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، ج٣، ص٣٨١ – ٣٨٢.

[٦٧] صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، بحث حول الشيخ محمد بن عبد الوهّاب وحركته المجددة، الرياض ١٤١٩/١٠/٢٦، موقع صيد الفوائد الإلكتروني http://www.saaid.net/monawein/t/3.htm.

المبحث الرابع: خُلاصات من أقوال بعض العلماء والمفكرين عن الحركة الوهّابية

يقول الشيخ محمد الغزالي عن الشيخ محمد بن عبد الوهّاب: "فليس معنى هذا أنّه استوعب تعاليم الإسلام كلها إيضاحًا وتبيانًا.. إنّ هناك مصلحين آخرين أمكنهم أن ينصفوا جوانب أخرى من الدين نالها الغمط وغطّاها الجهل. واهتمام ابن عبد الوهّاب بأمر العقيدة ضرب من التخصّص العلمى أملى به المزاج النفسى وأوحت به ضروريات البيئة[٦٨]"، وقال عن الحركة الوهّابية: "ولست أحب أن أعكّر صفو التوحيد بمسلك سخيف، وقد رأيت من زوّار الأضرحة ما يثير التقزّز، ويوجب الإنكار.. والذي أراه أنّ تعليم هؤلاء قد يفتقر إلى جهد شديد، ولكنّه واجب، بل هو متعيّن، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرب! إنهم يكرهون التجسيد اليهودي، والتعديد النصراني، وأنواع الوثنيات البوذية والهندوكية والعربية القديمة، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامي، بل يقاتلون دونه بكل ما أوتوا! فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك؟ أكاد أقول إنّ الحرص على تكفيرهم مرض نفسي لا يقل عن المرض الذي يعاني منه هؤلاء![٦٩]". "الواقع أنّ حركة ابن عبد الوهّاب من الناحية العلمية سليمة، وقد تكون الوسائل الرديئة هي التي هزمتها..... ألا نستفيد من ذلك كله أن الوسائل يجب أن يُعاد النظر فيها على ضوء التجارب الفاشلة؟ إنّ الإقناع أهم من التخويف، والدليل أجدى من السيف، وأنا أريد هداية الناس لا أَسرهم! ومن نظر إلى الدنيا على أنها مغنم له إذا انتصر، فهو قاطع طريق! وليس داعيًا إلى الله، وهو أجهل الناس بسيرة محمد وشريعته! وإذا كان القتال الغبي لا مساغ له من أجل العقيدة فكيف إذا كان في سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس،

---

[٦٨] الشيخ محمد الغزالي، معركة المصحف، ص١٦٢، ١٦٣.

[٦٩] الشيخ محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، كتب الأسئلة الأستاذ خالد محمد خالد، (دار المقطم للنشر والتوزيع، ط٥، ٢٠٠٤م)، ص٢٩٥.

أو صورة ترسم على ورقة، إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة! وعلى أية حال فمن الخير أن ينأى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الأمزجة السوداوية والطباع الغضوب والمتلمّسون للبراء العيب![٧٠]"، "وعلى معتنقي فكر السلف أن يتجرّدوا لنصرة دينهم فالمدى فسيح! أمّا أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفي هو نصرة الدين، وأن إلحاق هزائم بالأشاعرة قُربى إلى الله، فذاك الآن نوع من البطالة! قال لي صديق من نجد: نطاق العقائد أوسع ممّا ذكرت، والذين يقفون به عندهم الذين يؤمنون بالوحيين معا! قلت دهشًا: ما تعني بالوحيين؟ قال: الكتاب والسُنة! قلت: هذه تثنية مثيرة! فإن القرآن معجزة تحدّى الله به الإنس والجن! وهو مقطوع بثبوته كلمة، كلمة! ولا كذلك السُنة! أكثر السنة أحاديث آحاد يُعمل بها في الفروع، أما العقيدة فتحتاج إلى نص متيقن ثابت بالتواتر! والقرآن أصل الإسلام، والسُنة فرع يجيء بعده، بيانا وتفسيرا[٧١]".. "ولو رُزق محمد بن عبد الوهّاب أتباعًا ذوي حكمة وبصيرة لكانت الأقطار التى انفتحت له أضعاف مساحتها الآن.. إن الدعاة المصابين بضيق الفطن، واصطياد التهم، وشهوة الغلب يضرون أكثر مما ينفعون[٧٢]".

ويصف الشيخ أحمد الريسوني، أحد علماء المغرب، والرئيس السابق للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، ما آلت إليه الحركة الوهّابية فيما وصفه بالإسلام السعودي، يقول: "ولنذكر بعض الخصائص والمميّزات التي عُرف بها وتميز بها، علمًا بأن بعضها يرجع إلى أيام الشيخين محمد بن عبد الوهّاب ومحمد بن سعود، وبعضها تشكّل خاصة في ظل "الدولة السعودية الثالثة":

---

[٧٠] الشيخ محمد الغزالي، المرجع السابق باختصار يسير، ص٢٩٦.

[٧١] الشيخ محمد الغزالي، المرجع السابق، ص٢٩٧.

[٧٢] الشيخ محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه، ص٥٦.

١- الشدة والخشونة، وهي سمة بارزة: سواء في الأفكار، أو في الأحكام، أو في الألفاظ... حتى لقد أصبح "السلفي" أو "الوهّابي" في أعين عامة الناس رمزًا للشدة والغلظة والتزمت.

٢- التعامل مع المسلمين والحكمُ عليهم من خلال ثقافة التكفير والتضليل والتبديع، شعوبًا ومذاهب وطوائف وأفرادًا... بل حتى كبار العلماء – القدماء والمعاصرون – لا يسلمون من تضليلهم وتبديعهم وحملاتهم، وقد يصل الأمر إلى حد تكفيرهم.

٣- الاعتماد على العنف والسيف.

٤- إشعال الفتن والصراعات بين المسلمين؛ فشيوخ الإسلام السعودي دأبهم وديدنهم شنُّ الغارات وإشعال الصراعات، ضد المذاهب الفقهية الإسلامية، والمذاهب الكلامية الإسلامية، والمذاهب الصوفية الإسلامية، والحركات الدعوية الإسلامية، وضد أفراد العلماء والمفكرين المسلمين.

٥- خوارج على الأمة وعلمائها، مداخل مع الولاة والطغاة[٧٣]".

أمّا الدكتور كمال حبيب فيذكر في بحثه بعنوان: "الوهّابية.. النشأة، التحولات، الخطر الماثل" مجموعة من الخُلاصات:

"الوهابية المفاصلة".. ملهمة حركات العنف الإسلامي المعاصر

"أسّس عبد الوهّاب التبرير الديني لحق استخدام العنف ضد الآخر المسلم. ولجوء الوهّابية لتسويغ هذا العنف والقتل باعتباره عودة لنفس المسلك العربي ذي الطابع البدوي قبل الإسلام القائم علي فكرة الإغارة والسلب والنهب لتحقيق المكاسب، ولكن هذه المرة مدعومًا بغطاء

[٧٣] الشيخ أحمد الريسوني، مقال بعنوان: الإسلام السعودي من الازدهار إلى الانحدار، موقع العمق المغربي، https://al3omk.com/235984.html.

أيديولوجي ديني وقوة سياسية طامحة أن تكون تعبيرًا عن إمامة سياسية تبسط يدها علي كامل الجزيرة العربية، وما حولها من بلاد الإسلام بعد ذلك.

الحركة الوهّابية لا تجتهد للأمة وإنما تجتهد في مواجهتها، وبدلا من السعي لاستصحاب أصل الإسلام للناس ومجادلتهم بالحسنى فيما تراه خطأ في سلوكهم فإنها تعتبر أن الناس قد أطبق الشرك علي سلوكهم وأصبحوا خارجين عن الإسلام، ومن هنا نشأت نزعة استسهال وتسويغ تكفير المسلمين ومثّلت الأساس الفكري لكل روافد الحركة الإسلامية التي تورّطت في ممارسة الإرهاب باسم الإسلام حتى يومنا هذا.

تحالف محمد بن عبد الوهّاب مع محمد بن سعود فتعانق المشروع الديني مع الطموح السياسي، وتحوّلت الحركة البازغة من حالة محلية بسيطة إلي قوة تحرّكها دينامية الغزو والقتال تحت عنوان الجهاد، فبسطت سلطانها وتأثيرها علي البلدان المجاورة في الجزيرة العربية من اليمن وحتي الشام، وأصبحت تمثّل تحديا لدولة الخلافة العثمانية علي مستوي بسط سيطرتها على الحرمين الشريفين ومكة والمدينة وعلي مستوي إمكان تحالفها مع قوى الإنجليز البازغة في المنطقة.

الدولة السعودية هُزمت، بيد أن الدعوة الوهابية لم تُهزم، فقد استطاعت خلال ثمانين عامًا أن تؤسّس لنفسها وجودًا وأتباعًا وأن تُحدث تغييرًا حقيقيًا وهائلا وضخمًا في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) استنادًا إلى منطق أيديولوجي ذي طابع بدوي استخدم الدين ربما لأول مرة في تاريخ الحركات الاجتماعية الإسلامية لتحقيق مشروع سياسي.

يقول ستيفان لاكروا المستشرق الفرنسي في كتابه "زمن الصحوة" إن المملكة تظل بقعة معتمة باستمرار في الدراسات التي تتحدّث عن الحركة الإسلامية، رغم تأثيرها الهائل علي أفكار

وتوجهات تلك الحركات المنتشرة في الشرق الأوسط. ويبدو أن اللحظة التي ترك فيها محمد بن عبد الوهّاب شؤون السياسة والحكم لعبد العزيز بن سعود بعد سقوط الرياض سنة ١٧٧٤م، وكان عمره قد زاد علي السبعين وتفرّغ للعلم، كانت إيذانًا بانتقال السلطة السياسية بشكل كامل إلي أيدي أبناء سعود الذين أصبح الواحد منهم يُوصف بالإمام بينما أصبح أبناء محمد بن عبد الوهّاب يُوصفون بـ"آل الشيخ" أو المشايخ، ولم نعد بشأن سلطتين وإنما سلطة سياسية واحدة تدعمها وتبرّر لها سلطة آل الشيخ الدينية.

يقول ستيفان لاكروا أيضًا إنّ هذه الكيانات (هيئة كبار العلماء يتم تعيين أعضاءه بمرسوم ملكي ويختص بإصدار الفتاوى في القضايا المجتمعية والشأن العام، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء وتختص بإصدار فتاو تخص الأفراد، والرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وتنسّق بين هيئات ومنظّمات الدعوة في البلاد) نشأ عنها ما يُشبه هيكل هرمي في المجال الديني وهو أمر نادر الحدوث نسبيًا في العالم السُني، لافتًا إلى أن أغلب أعضائها ينتمون إلى الأرستقراطية الدينية القادمة مما يُعرف بالهلال النجدي الذي هيمن علي المجال الديني منذ القرن التاسع عشر واحتكر العلم الديني الوهّابي وسيطر علي منابره.

لا يبدو لنا أن الجوانب الإحيائية في أفكار الوهّابية تساوي الخسارة الكبيرة والهائلة التي حدثت لتحقيق تلك الأفكار على الأرض، كما أن منازع الهدم القاسية والبدوية في الحركة في تقديرنا تغلب بكثير من حيث نتائجها وخسائرها ما تعتبره هي أفكارًا سلفية تعيد الناس إلي العقيدة الصحيحة.

الوهّابية مارست أعمالها القتالية دون إذن من الإمام أو الدولة التي كانت تمثّل المسلمين في ذلك الوقت.

كل حروب الوهّابيين في الجزيرة العربية كانت ضد مسلمين اعتبرهم الوهّابيون مشركين لأنهم ليسوا داخلين في جماعتهم التي تعتبرها الوهّابية الجماعة الحقة المعبرة عن السلف الصالح.

تضخم قضايا العقيدة في العقل الوهابي واعتبار أن الوهابية هي المعيار التمامي الصواب لكي تكون مسلمًا حقيقيًا ويصح دينك وتدخل الجنة، أفضى إلى أن يكون الآخر في التصور الوهّابي هو الأشعري السني، والصوفية، والشيعة، وأهل وحدة الوجود والفلاسفة، وكل من خالف الفكر الوهّابي، أي أن عمل الوهّابيين الانقسامي في الحقيقة كان نشاطه الرئيسي نحو عناصر الأُمة المسلمة الداخلة في معنى أهل السنة والجماعة.

الوهّابية إذن تريد في التحليل النهائي صياغة إنسان جديد هو "الإنسان الوهّابي"، ذلك الذي يتبع الشيخ محمد بن عبد الوهّاب مجدّد الدين وباعثه، في تعبير جديد يجسّد مذهبية جديدة وليست تجديدية، تعبّر عن غربة الإسلام، فطوبى للغرباء الذين سيعود معهم الإسلام قويًا نابضًا.

فكرة الولاء والبراء هي أحد الأفكار الضرورية والأساسية ضمن الوهابية، فالمذهبية الوهابية الجديدة تركّز علي البراءة من الكفر كما تركّز على الولاء "للمسلمين" وهم هنا الوهابيون.[٧٤]".

ورغم هذه السلبيات التي أوردها كثير من العلماء والأئمة والباحثون حول غلوّ الحركة الوهّابية وتشدّدها ووقوعها في قضايا شائكة، من التساهل في التكفير، ومن الوقوع في الدماء، ومن الخروج عن سُلطة السلطان العثماني، التي كان يعترف بها مسلمو ذلك الزمان، فإنّ هناك كثيرًا من العلماء والفقهاء والدعاة تأثّروا بها وأيّدوها حول العالم، ومنهم من ما زال يثني عليها ويعتبرها تجديدًا عظيمًا في بعث دعوة الإسلام، ولهؤلاء المؤيّدين أتوجّه بذات الأسئلة الثلاثة المحورية في مسألة الحركة الوهّابية:

[٧٤] كمال حبيب، أكاديمي مصري وباحث في الشؤون السياسية والحركات الإسلامية وصاحب أول كتاب في مراجعات الجماعة الإسلامية المصرية وهو كتاب الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة، بحث بعنوان: الوهابية النشأة، التحولات، لخطر الماثل، موقع أصوات أونلاين، رؤى، https://aswatonline.com/2018/11/14.

السؤال الأول: حول تكفير المبتدع، وتكفير المعيّن، وتضييق العُذر بالجهل، وتكفير الهازل والهازئ ولو لم يعتقد نطقه بكلمة الكُفر.

السؤال الثاني: حول الدماء التي استُحلّت طوال أكثر من خمسين عامًا من الزمان، مع قبائل تنتسب إلى الإسلام، واستحلال المال الذي كان موجودًا في الغرفة الشريفة.

السؤال الثالث: حول قضية الخروج على سلطان ذلك الزمان، مع إفتائهم أنّ هذا مذهب الخوارج.

ونختم الحديث عن الحركة الوهّابية، بإيراد موقف العقيدة الطحاوية من قضية تكفير مَن نطق بالشهادتين، ففي الفقرة رقم ثمانية وسبعين يقول الطحاوي: ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحلّه. ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله. ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنّطهم. ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه. والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان[٧٥]. وأهل الكبائر من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحّدون –وإن لم يكونوا تائبين– بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين. وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه: **(ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)**، وإن شاء عذّبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم بعثهم إلى جنته[٧٦].

---

[٧٥] الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي، المتوفي ٣٢١هـ، متن العقيدة الطحاوية بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، (دار ابن حزم، سنة ١٩٩٥م)، ص٢١.

[٧٦] الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي، المرجع السابق، ص٢٣.

"إن أهل السُنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملة، لكان مرتدًا يُقتل على كل حال[٧٧]، "ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنى والسرقة، وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضًا، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين. ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والقاذف والسارق لا يُقتل وإنما يُقام عليه الحد فدل على أنه ليس بمرتد[٧٨]".

[٧٧]وما عليه أهل السنة: أن إقامة الحدود حق للإمام لا غير، ولا يجوز لأحد كائنًا من كان أن ينازعه فيه (الشيخ أ.د. عرفة بن طنطاوي، إقامة الحدود حق للسلطان وحده، موقع الألوكة الإلكتروني. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «وقسْمة الفيء، وإقامة الحدود؛ إلى الأئمة ماضٍ، ليس لأحد أن يطعن عليهم، ولا ينازعهم. من أصول السنة لأحمد بن حنبل، رواية عبدوس بن مالك العطار، ٣٠.

[٧٨]القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، المتوفي سنة ٧٩٢هـ، (مكتبة المؤيد، ط٢، سنة١٤٠٨هـ)، ص٣٤٥-٣٤٦.

الفصل الثالث: الحركة الإسلامية الحديثة

الفصل الثالث: الحركة الإسلامية الحديثة

كانت الأُمّة المُسلمة طوال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، في حاجة ماسّة إلى بعث جديد يقود مسيرة إصلاحها، ويعمل على تجديد ما اندثر من عزيمتها وقوتها، وإيمانها ويقينها، ويصحّح لها ما استقرّ في النفوس والعقول من ممارسات وعادات غلب عليها الجهل والتخلّف، ويعيد لها مجدها وعزّتها، ويستردّ استقلالها من ربقة الاحتلال الأجنبي الذي غلب على معظم أرجائها، ولم تخلُ الأُمة من مفكرين ومجدّدين، واستمرّت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي دون توقّف، وقد حمل لواءها في القرن التاسع عشر، اسمان بارزان أحرزا قصب السبق في ذيوع الصيت أكثر من أقرانهما، وهما جمال الدين الأفغاني وتلميذه الأستاذ الإمام المجدّد الشيخ محمد عبده، لكنّ المتأمل في نضال المصلحيْن الكبيريْن ومنهجهما، لا يراه يكاد يحيد عن مسيرة الإصلاح التاريخية في عالم المسلمين، لقد ظلا يجتهدان للأُمّة ومن داخل مؤسّسة الأُمّة، لا من خارجها ولا ضدها، وبالجملة كان كل منهما يعمل لإصلاح ما هو قائم، وليس لتفكيك ما هو قائم لبناء جديد مغاير!

ثمّ خَلَفَ عصرهما عصر وسيط تسلّم فيه لواء الدعوة إلى الإصلاح اسمان كبيران أيضًا تتلمذا على منهاج الأولين، وأضافا إليه ما لم يكن فيه، وهذان هما مُحب الدين الخطيب ومحمد رشيد رضا.

المبحث الأول: الآباء الداعمون للحركة الإسلامية في القرن العشرين الميلادي

ونقصد بهم الدُعاة الذين أثّروا في تأسيس الحركة الإسلامية الحديثة، نُسخة ما بعد الحركة الوهّابية، مُحب الدين الخطيب، ومحمد رشيد رضا.

أمّا محمد رشيد بن علي رضا وُلد عام ١٨٦٥ في قرية "القلمون" على شاطئ البحر المتوسّط من جبل لبنان وتبعد عن طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال، وتوفي بمصر ١٩٣٥م. ويعتبر محمد رشيد رضا مفكرًا إسلاميًا من روّاد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجري. وبالإضافة إلى ذلك، كان صحفيًا وكاتبًا وأديبًا لُغويًا. هو أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده. أسّس مجلة المنار على نمط مجلة «العُروة الوثقى» التي أسّسها الإمام محمد عبده، ويعتبر حسن البنا أكثر من تأثّر برشيد رضا.. كان الشيخ رشيد رضا أكبر تلامذة الأستاذ الإمام محمد عبده، وخليفته من بعده، حمل راية الإصلاح والتجديد، وبعث في الأمة روحًا جديدة، تُحرِّك الساكن، وتنبّه الغافل، لا يجد وسيلة من وسائل التبليغ والدعوة إلا اتخذها منبرًا لأفكاره ودعوته ما دامت تحقّق الغرض وتوصل إلى الهدف.

وكان (رحمه الله) متعدّد الجوانب والمواهب، فكان مفكرًا إسلاميًا غيورًا على دينه، وصحفيًا نابهًا ينشئ مجلة "المنار" ذات الأثر العميق في الفكر الإسلامي، وكاتبًا بليغًا في كثير من الصحف، ومفسرًا نابغًا، ومحدّثًا متقنًا في طليعة محدّثي العصر، وأديبًا لغويًا، وخطيبًا مفوهًا تهتز له أعواد المنابر، وسياسيًا يشغل نفسه بهموم أُمته وقضاياها، ومربيًا ومعلمًا يروم الإصلاح ويبغي التقدم للأُمة.

وخلاصة القول: إنه كان واحدًا من رواد الإصلاح الإسلامي الذين بزغوا في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وعملوا على النهوض بأُمتهم؛ حتى تستعيد مجدها الغابر، وقوتها الفتية على هدى من الإسلام، وبصر بمنجزات العصر[٧٩].

وولد محب الدين الخطيب في حي القيمريّة بدمشق عام ١٨٨٦م. لازم العلماء، وتفتّحت آفاق تفكيره العلمي، بدأ نشاطه الحركي وهو طالب في الآداب والحقوق بتأسيس «جمعيّة النهضة العربيّة» بالأستانة لتوثيق الصلة باللُغة العربية، انتقل إلى القاهرة وشارك في جريدة المؤيد، وفي سنة ١٩١٣م أسّس الشيخ محمد رشيد رضا مدرسة الدعوة والإرشاد فدرّس فيها الشيخ محب الدين، ثم سافر إلى مكّة فأسس المطبعة الأميريّة، وأصدر جريدة القِبلة الناطقة باسم حكومة الحجاز، وكان الشريف حسين يستشيره في كثير من الأمور الخارجيّة مع الشيخ كامل القصاب. لمّا دخل العرب دمشق عام ١٩١٨م بقيادة الأمير فيصل عاد الشيخ محب الدين الخطيب، وأُنيط به إدارة وتحرير الجريدة الرسميّة للحكومة باسم «العاصمة"، ثم عاد إلى مصر واستقرّ في القاهرة حيث عمل في تحرير جريدة الأهرام خمس سنوات، وهناك أسس المكتبة السلفيّة ومطبعتها، حيث قام بطباعة الكتب السلفيّة، ونشر كثيرًا منها، وأصدر مجلة الزهراء، وهي مجلة أدبيّة اجتماعيّة دامت خمس سنين، ثمّ أسّس جريدة الفتح، ثمّ تولّى تحرير مجلة الأزهر ست سنوات، ثمّ ساهم في إنشاء جمعية الشبان المسلمين في القاهرة، وأحدث قيام جمعية الشبان المسلمين في القاهرة ردة فعل شديدة لدى دعاة الإلحاد والعلمانيين والمبشّرين، فتربّصوا به حتى وجّهوا أنظار النيابة العامّة إلى مقال كتبه بعنوان: «الحرية في بلاد الأطفال»

[٧٩] أحمد تمام، رشيد رضا رائد الصحافة والتعليم، موقع إسلام أون لاين، https://islamonline.net/archive/.

نال فيه من كمال أتاتورك فقُبض عليه وحُكم عليه بالسجن لمدة شهر[٨٠]. ولارتباط مسيرة الشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب في العمل المشترك لفترات طويلة، ولتشابك جهودهما، مع تداخل الظروف التي أحاطت بأعمالهما، يحسن أن ندرس جهودهما وآثارهما معًا دون فصل بينهما.

١ – النشأة والتكوين

التكوين السلفي النصوصي المبكّر للشيخ رشيد، والذي يهتم بالمنقول أكثر من المعقول، والذي كان قد توارى فترة صحبته للإمام، قد عاد إلى البروز مرة أخرى! كذلك زاد انغماس الشيخ رشيد –بعد رحيل أستاذه– في السياسة والعمل السياسي، فأفاض في معالجة علاقات العرب والأتراك، والمسألة الشرقية، والتدخل الاستعماري الغربي في الشرق العربي والإسلامي، كما كان في طليعة الذين أبصروا خطر المشروع الصهيوني على فلسطين والعرب والمسلمين[٨١]. "سالمنا السياسة فساورت وواثبت! وأسلسنا لها فجمحت وتقحّمت! وكنا نهم في بعض الأحيان فيصدف بها عنا الأستاذ الإمام! ولم ننل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله[٨٢]!".

٢ – **العلاقة بالوهّابية..** "ناهيك بعلاقاته الوثيقة بالحركة الوهّابية، وزعيمها الملك عبد العزيز آل سعود، وكتابه الوهّابيون والحجاز شهيد وشاهد على هذه العلاقات.[٨٣]"، "وكان الشيخ محمد عبد الوهّاب رحمه الله تعالى مجددًا للإسلام في بلاد نجد بإرجاع أهله عن الشرك والبدع التي

---

[٨٠] أ. د. حماه الله ولد السالم، حجاج ومهاجرون (علماء بلاد شنقيط موريتانيا في البلاد العربية وتركيا من القرن ٩ إلى القرن١٤)، ص١٧٣–١٧٥.

[٨١] د. محمد عمارة، الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية، دار السلام، ص١٧.

[٨٢] د. محمد عمارة، المرجع السابق، ص١٩.

[٨٣] د. محمد عمارة، المرجع السابق، ص١٩.

فشت فيهم إلى التوحيد والسُنة على طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية، وإنما كان نجاحه سريعًا بتأييد آل سعود له ومنعهم إياه ممن يريده بسوء، وما كان آل سعود أقوى شيوخ عشائر نجد وأمرائها، ولكنّ الله نصرهم بنصر دينه، فكان من أمرهم ما كان من فوز وفلاح، ثم من بلاء وامتحان، ثم ما كان من رد الله الكرّة لهم في هذه الأيام، ذلك بأن أمراء مكّة المفسدين في الأرض، الملحدين في الحرم، قد تصدّوا لمقاومة دعوة الإصلاح والتجديد الوهّابية من بدء ظهورها، فأذاعوا في العالم الإسلامي كله أنها دعوة كفر وابتداع وعداوة للمسلمين والإسلام.[٨٤]".. أمّا الشيخ محب الدين الخطيب، فقد أسّس للمكتبة السلفية في مصر –وليست بالضرورة أن تكون الدعوة السلفية متطابقة مع الحركة الوهّابية– وفي إحدى الرسائل من الشيخ رشيد يقول فيها: "إن مُحب الدين الخطيب وعبد العزيز العتيقي قد توجها إلى البصرة بمهمة سياسية فأرجو أن تروج مهمتهما ".. كان الغرض من الرحلة توحيد الجهود مع الإمام عبد العزيز آل سعود في الشؤون العربية العامة المشتركة" ومفاوضته فيما كان ينبغي للعرب أن يقوموا به لوقاية بلادهم من شرور الحرب العالمية الأولى ونتائجها، ولكن لم يتمكن صاحب الترجمة من إتمام مهمته ورحلته في سبيل العروبة والإسلام[٨٥]". ويقول محمد وفيق زين العابدين: "بل كان الخطيب –رحمه الله– من أوائل من أظهروا المنهج السلفي في مصر والشام في العصر الحديث؛ فقد ساهم –رحمه الله– في رسم حدوده وتوضيح معالمه والدعوة إليه والذب عنه وعن رموزه، من ذلك تصديه للدفاع والذب عن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب وعن دعوته الموسومة من خصومها بالدعوة الوهّابية، وأظهر أكثر من مرة في أكثر من موضع

[٨٤] محمد رشيد رضا، الوهابيون والحجاز، ١٣٤٤هـ، ص٦.

[٨٥] د. محمد عبد الرحمن برج، محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية ٩٠٦-١٩٢٠، ص١١٥-١١٦.

أنها دعوة التوحيد الخالصة التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، رضوان الله عليهم[٨٦]".

٣ – **العلاقة مع حركة الشريف بن علي..** "ووجدنا العلاقات الوثيقة بينه –الشيخ رشيد رضا– وبين حركة الشريف حسين بن علي (١٨٥٦–١٩٣١) لتأسيس دولة عربية مستقلّة عن العثمانيين.. حتى لقد ذهب إلى سورية عندما أعلن أهلها استقلالها تحت حكم الملك فيصل بن الحسين، وانتُخب رئيسًا للمؤتمر السوري فيها ولم يغادرها إلا عندما أجهض الاحتلال الفرنسي هذا الكيان العربي(١٩٢٠م)"[٨٧]، **انضمام محب الدين الخطيب للشريف حسين..** "سافر الخطيب بعد عيد الفطر كما يقول لتأسيس مطبعة أميرية لحكومة الحجاز وإصدار جريدتها الرسمية القِبلة."، "وحين وصل الخطيب إلى دمشق دعته جمعية العربية الفتاة ليكون عضوًا في لجنتها المركزية التي تشرف على إدارة الدولة من وراء ستار، ونيط به تحرير الجريدة الرسمية للحكومة واسمها العاصمة، وأُبيح له أن يكتب فيها المقالات التوجيهية كما يشاء بلا مراقبة".

٤ – **كثرة إنشاء وتكوين الجمعيات واللجوء للعمل السري..** "لم يكن لدى الشباب العربي في هذه الفترة اتجاه إلى تجميع النشاط في جمعية واحدة وإنما تعدّدت الجمعيات، وكان من المألوف أن يكون الواحد عضو في أكثر من جمعية وسيظل ذلك أحد سمات الحركة العربية سواء قبل إعلان المشروطية[٨٨] أو بعدها، فرفيق العظم وحقي ابن عمه أعضاء في جمعية النهضة العربية وفي الوقت نفسه أعضاء مؤسّسين في جمعية الشورى العثمانية، وكذلك الحال بالنسبة لمحب الدين الخطيب الذي كان إلى جانب رئاسته لجمعية النهضة العربية مندوبًا عن جمعية الشورى

---

[٨٦] محمد وفيق زين العابدين، من أئمة الإصلاح العلامة محب الدين الخطيب ١٣٠٥–١٣٨٩، مجلة البيان ٢٠فبراير٢٠١٢.

[٨٧] د. محمد عمارة، الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية، ص١٨.

[٨٨] المشروطية هو الدستور العثماني الثاني عام ١٩٠٨م.

العثمانية في اليمن أوكل إليه تأسيس الفرع الرابع عشر لهذه الجمعية هناك.[٨٩]"، "تأسّست جمعية الشورى العثمانية حسب رشيد رضا من التُرك والعرب والأرمن والكرد بغرض اتحاد الشعوب العثمانية على اختلاف أجناسها ومللها في السعي لجعل الحكومة العثمانية حكومة شورى وعدل لصيانة الدولة من التمزيق بالاختلاف الذي هو ظهير الاستبداد والتفرّق الذي هو نصير الاستعباد.[٩٠]"، "من كان منهم عربيًا نزاعًا إلى الخير صار عضوًا في جمعية النهضة العربية ومن كان من الضبّاط والموظفين ينزع إلى الحرية والإصلاح صار في جمعية الشورى العثمانية[٩١]"، "وإمعانًا في السرية ينبه رفيق العظم زميله الخطيب أن عقاب من يخون الجمعية الموت، والشعبة هي التي تكلّف بإجراء العقاب على من يخون إمّا بالاقتراع أو بإنشاء فرع لكل شُعبة من الفدائيين (الأنارشست) تكلّف بمثل هذه الأعمال.[٩٢]"، وليس على الداخل (المشترك في الجمعية) أن يدفع إلا ثلاثة قروش.. وينبه إلى مسألة الكتمان، أما كيفية الدخول فهي كما ذكرتموها الآن الداخل لا ينبغي له معرفة أحد من الجمعية إلا مَن فوقه أو مَن تحته، أي الذي أدخله والذي دخل بواسطته[٩٣].

مزيد من الجمعيّات السرّية: وفي المقدّمة التي كتبها رشيد رضا في كتاب لآثار رفيق العظم، ذكر أن هذه الجمعية السرية أُسست للتأليف بين أمراء جزيرة العرب وللتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التي أُنشئت في الولايات العربية وفي الأستانة لمقاومة تعصّب الاتحاديين وضغطهم على العرب ولحفظ حقوق العرب في الدولة والعمل لمستقبلهم[٩٤].

---

[٨٩] د. محمد عبد الرحمن برج، محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية ٩٠٦-١٩٢٠، ص٣٤.

[٩٠] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٣٥.

[٩١] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٣٨.

[٩٢] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٤٤.

[٩٣] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٤٤.

[٩٤] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٩٦.

٥- **الولع بتكوين والانضمام إلى الجمعيّات السرّية..** "كانت الجمعية –العربية الفتاة– كجمعية سرية قد أعطت لكل رقمًا سريًا في التخاطب والمكاتبات، فعبد الغني العريس كان يكاتب الخطيب الأول رقمه ٢١ والخطيب رقمه ٢٨، كذلك جاءته التعليمات التالية: لتكن كل مخابراتك من تحارير وغيرها هكذا العنوان: ع.ف A.F، وألا يرسل شيئًا في البريد العثماني وتحت هذه الكلمة ثلاثة خطوط لزيادة التنبيه بشأنها"، "وكان العضو يقسم بالله وبشرفه أن يحافظ على أسرار جمعيته ويفضّل مصلحتها ومصلحة إخوانه فيها على كل مصلحة سواها، وأن يطيع قانونها وأوامرها وألا يحنث بيمينه والله على ما يقول شهيد[٩٥]".

٦- **النزعة إلى السرّية والازدواجية في العمل معًا:** فلا يكتفون بالسرّية فقط، ولكن يضيفون إليها الازدواجية في العمل، "ونقرّر في إحدى جلسات لجنة المؤتمر أن لجنة المؤتمر هي التي تقوم به في الظاهر وأمّا في الحقيقة فهي عصابتنا التي تقوم به في الخفاء، كما تقرّر في جلساتنا الرسمية، إذا كان لديك بعض الإخوان ممن يعتمدون عليهم في صدقهم وأمانتهم ورزانتهم فلكم أن تقدموا اسمه إلى مركز جمعيتنا (ت) واسطتي سيكون لكم عونًا في أعمالها في مصر، تقبل خالص أماني والسلام عليك، أخوك (٢١) وهو الرقم السري لعبد الغني العريسي.[٩٦]".

٧ - **التحالف التاريخي بين حركات وأحزاب وجمعيّات العرب والمسلمين مع الطرف القوي** الذي يحتاج إلى دعمهم ثمّ يغدر بهم لاحقًا، فيتيحون جمعياتهم دائمًا كجمعيات وظيفية تؤدّي دورها ثمّ يتم التخلّص منها أو التنصّل من التعهّدات تجاهها، أو معاداتها والتنكيل بها (خط ظاهر على طول تاريخ الحركة)، كما تشير إلى التهوّر وعدم الرويّة في الإعلان عن مناصرة

[٩٥] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٧٦.

[٩٦] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٨١.

طرف على طرف دون التأكّد من كامل أهدافه وخطواته اللاحقة. "المراسلة دائرة بين جمعية الشورى العثمانية بمصر وجمعية الاتحاد والترقي في استنبول لإلحاق الأولى بالثانية فتكون فروع جمعية الشورى العثمانية كلها فروعًا لجمعية الاتحاد والترقي التي صار بيدها زمام الأمر في السلطنة العثمانية... فلتحيا الحرية والمساواة وليحيا الجيش[٩٧]".

"ومن المعروف أن جمعية الشورى العثمانية رفضت قبل إعلان الدستور أن تُدمج في جمعية الاتحاد والترقي، حيث أبى رشيد رضا هذا الاندماج، وقال لمندوب جمعية الاتحاد والترقي: إن تعدّد الجمعيات مع وحدة الغاية والمقصد لا يعد تفرقًا، ولا يحدث ضعفًا[٩٨]. لكن نجاح حركة الاتحاد والترقي في إجبار السلطان عبد الحميد على العمل بالدستور أثار عواطف العرب وجعل جمعية الشورى العثمانية تسعى إلى أن تكون فروعها فروعًا للاتحاد والترقي، ولعل هذا أيضًا من باب التقرب من السُلطة الجديدة التي آمل الجميع فيها الخير بعد عهد الاستبداد الحميدي.[٩٩]"، "وحينئذ رأيت نفسي أمام واجب جديد فاندفعت فيه، وذلك أني اتفقت مع أعضاء الفرع الرابع عشر لجمعية الشورى العثمانية على أن نقلبه إلى جمعية الاتحاد والترقي وأن نقيم لهذه الجمعية ناديًا لائقًا.[١٠٠]".

٨ – **تضارب المبادئ بين الجمعيات والأحزاب**، وجه التشابه مع البنا أو الآفة التي انتقلت إلى حسن البنا.. "(الشريف) يرغب في علاقة قوية مع بريطانيا ولكنّه يتوقّع وينتظر وعدًا كتابيًا منها بعدم التدخل في شؤون جزيرة العرب الداخلية وفي حماية الأمير من اعتداءات خارجية

---

[٩٧] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٥٠، والنص لرسالة رفيق العظم.

[٩٨] هزرشي بن جلول، الشيخ محمد رشيد رضا والدولة العثمانية، (رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٣-٢٠٠٤)، ص٦١.

[٩٩] د. محمد عبد الرحمن برج، مرجع سابق، ص٥٢.

[١٠٠] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٤٩.

أجنبية وعثمانية، والشريف نفسه في محادثة سرية مع الرسول عبّر عن نفسه في حرية ووضوح قائلا: مدّوا إلينا يد المساعدة ونحن من جانبنا لا نعين بتاتًا هؤلاء المعتدين.[١٠١]".

وإذا كان الشريف حسين يقع في هذه الحيرة وهذا التخبّط، فهو تارة يعلن الولاء والمساندة للسلطان العثماني بغية إنقاذه من المدّ السعودي الزاحف من نجد، ثمّ يناور بالإنجليز يطلب حمايتهم ليواجه بهم الخطر السعودي من جهة، والتبعية للعثمانيين من جهة أخرى، وطمعًا في الاستقلال بدولة عربية تشمل الحجاز والعراق والشام يقيم عليها مملكته العربية الكبرى، فسنجد أنّ حلفاءه الذين تحالفوا معه في هذه المرحلة كانوا مثله بل أشدّ منه اضطرابًا، كالشيخين رشيد رضا ومحب الدين الخطيب، ورفيق العظم وجميعاتهم السرّية وأحزابهم العلنية كلها، كانت تدور في ذات الفلك من الحيرة والاضطراب وعدم الوضوح. فتارة تجدهم يؤيّدون الملك عبد العزيز آل سعود وحركته الوهّابية الزاحفة بجيوش نجد البدوية تجاه مقدّسات المسلمين، وتارة يتحالفون مع الشريف حسين، وهم معه يتحالفون مع من يحالف وينخدعون بذات الوعود التي ينخدع بها، وتارة مع حركة التحرير والترّقي حتى يعلن مُحب الدين الخطيب فرع جمعيته في اليمن فرعًا للاتحاد والترّقي، وتارة ينضمّون للسلطان العثماني ضد الاتحاد والترّقي، ومرّة مع استقلال العرب ذاتيًا أوسياسيًا، وأخرى يندّدون بإعلان سقوط السلطان العثماني، ويقيمون الأرض ويقعدونها لغياب ما يعتبرونه (الخلافة الإسلامية)! حال مستمرة من التيه وتشتّت الجهود وعدم وضوح الرؤية وغياب الهدف، مع عمل متواصل في –اللا اتجاه– لا يتوقّف ريثما يراجع اللاهثون هنا وهناك مواقفهم ويخطّون لأنفسهم طريقًا واضح المعالم، وغاية محدّدة يمكن الوصول إليها!

[١٠١] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص٩٨.

٩ – انخداع جديد بالإنجليز: "علم ممثلوا جمعية الجامعة العربية في مصر علمًا أكيدًا أنّ دولة بريطانيا العظمى عزمت عزما نهائيًا على مؤازرة العرب فيما يطلبون من تحسين أحوالهم وجمع شملهم وخلاصهم من الإدارة التركية المرتبكة، وأنّ علينا نحن العرب أن لا ننخدع بأضاليل الألمان والمنضّمين إليهم وأن نقابل بالجميل كل من يفعل جميلا معنا[١٠٢]".

وقوع في براثن خداع جديد: "جاء ذلك عقب إذاعة نبأ اتفاق انجلترا وفرنسا على إحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش الإنجليزية في المنطقة الغربية من سوريا وكذلك كليكيه.[١٠٣]".. هكذا قدّم رشيد رضا ومحب الدين الخطيب ورفقاؤهما، الجمعيات التي أنشأوها وآلاف الشباب والرجال الذين انضموا إليها وآمنوا بمبادئها حلمًا بالحرية والعدالة والنهضة والمجد، مطيّة جاهزة للقوة الأكبر أن تركب وتقود وتستغلّ وتوظّف، ثمّ يأتي تلامذتهم من بعدهم وهم مؤسّسو الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة ليقعوا في نفس الفِخاخ المنصوبة لهم، ولذا تجد مآلات الحركات العربية التي قادها رشيد رضا والخطيب ورفيق العظم، متكرّرة الإخفاق والفشل ومتشابهة كل التشابه مع مآلات الحركة الإسلامية الحديثة، ويُلدغ العربي الحركي والمسلم الحركي من ذات الجُحر وأشباهه مئات المرّات ولا يتعلّم!

هذا لا ننفرد بإقراره، وإنما يقرّه محب الدين الخطيب بعد أن خدم الشريف حسين ثلاث سنوات كان فيها لسانه الناطق، وبوق دعايته، ورافع راياته حتى أنّه هو الذي اختار له ألوان العلم الأربعة المميّزة لدولة بني هاشم، ثمّ يقول في مذكّراته التي نشرها د. محمد برج: "الدراسة التي أصدرها الخطيب في ٢٥أكتوبر ١٩٢٤ في مجلة الزهراء بمناسبة سقوط الحسين بعنوان: "الحسين بن علي كما رأيته في ثلاث سنوات" قال فيها إن الحسين عندما تولّى إمارة الحجاز،

[١٠٢] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص١١٠.

[١٠٣] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص١٤٤.

رسم لنفسه خُطة أساسية وهي أن يستعين بقوة الدولة العثمانية على خسف شوكة جيرانه أُمراء الأقطار العربية الأخرى، ولا سيما السيد الإدريسي والإمام ابن سعود، ليقنع الأستانة بإخلاصه لها، وليوسّع نطاق إمارته بعصا الترك، وليجعل لنفسه هيبة بين القبائل.. إن الاتحاديين لم يحفظوا للشريف حسين باشا هذا الجميل، بل كانت لهم أيضًا خطة في الحجاز يترقّبون الفرص لتنفيذها، وهي أن يزيلوا إمارة الأشراف نهائيًا ويجعلوا البلاد ولاية تُدار بما يشبه إدارة المستعمرات.[١٠٤]"، أمّا رشيد رضا فيعلن عن الوصول إلى نفس النتيجة تقريبًا، إذ يعلن عن اعتزال السياسة إذا لم يفِ الإنجليز بوعودهم، فيقول في رسالته إليهم: "ويشير رشيد رضا في هذه الوثيقة أنّ هذا رأيه ورأي إخوانه المقيمين في مصر الذين يرون أن منتهى ما يمكنهم من السعي لخدمة أُمتهم وبلادهم في هذا الزمن العبوس القمطرير هو أن يبلّغوا بريطانيا العُظمى آراءهم وأمانيهم التي يعتقدون أنها أماني العرب والمسلمين كافة، وقد فعلنا، فإن أسعدهم الحظ بقبول طلبهم شكروا بما استطاعوا من قول وعمل، ولا يكون نصيبهم من عملهم حينئذ كنصيب من ذهب من إخوانهم إلى البصرة بإذن السلطة البريطانية هنا، فألقتهم الحكومة الإنجليزية في السجن هناك، ولا تدري ممن تُقبل الشفاعة بالإفراج عنهم، وإذا لم يسعدهم الحظ بقبول طلبهم، فإنّهم لا يشتغلون بالسياسة العربية ولا غيرها البتة، بل ينتظرون تصاريف الأقدار والله يفعل ما يشاء ويختار[١٠٥]".

هذا الاكتشاف الذي يقرّره الشيخان أخيرًا من كونهما كانا ألعوبة في أيدي قوى كبرى تحرّكهما حيث تشاء، يثبته الباحث الجزائري هزرشي بن جلول في حق الشيخ رشيد رضا، فيقول: "الواقع أن القراءة المتأنية لصفحات مجلة المنار، ومؤلفات الشيخ تبرز أن موقفه من السلطان تراوح بين المدح والقدح، أو بين الدفاع عنه والانتصار له. وقد حدث ذلك في ظل أحداث مختلفة،

---

[١٠٤] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص١٣٦.

[١٠٥] د. محمد عبد الرحمن برج، المرجع السابق، ص١١٧-١١٨.

وانقلابات متسارعة، وتحولات مفاجئة أثرت بشكل بارز على تفكيره ومواقفه ورغم أن الشيخ محمد عبده كان قد نهى الشيخ رشيد رضا عن الاشتغال بالسياسة، لأن المصلحة تقتضي عدم زيادة أعداء الدولة، ورغم أن الأخير أكّد مرارًا أن دعوته الإصلاحية إنّما ترتكز على الجانب التربوي والتعليمي والاجتماعي، فإنه انخرط في العمل السياسي مبكرًا، لكن بشكل سري.[١٠٦]"، ويضيف هزرشي بن جلول: "وحسب رأيي فإن هذه الازدواجية في المواقف تؤكّد صحة ما ذهب إليه المفكّر محمد عمارة عندما أكّد أنّ مواقف الشيخ عبده تكون مؤيّدة للسلطان في الأراضي التابعة لهذا الأخير، وساخطة عليه عندما يكون في أماكن لا تقع ضمن سيادة الدولة، وإذا كان موقف الشيخ رشيد رضا يتطابق إلى حد ما مع موقف الشيخ محمد عبده، فهل يمكن القول أنهما كانا يمارسان نوعًا من التقية السياسية؟ وبالتالي هل يمكن القول أن الكواكبي والأفغاني كانا أكثر جرأة وثورية في مواقفهما، وأنّ الخط البياني للحركة الإصلاحية أخذ طابع الانحدار والتراجع مع عبده ورضا؟[١٠٧]".

١٠- **فكرة رشيد رضا عن اللامركزية**، وهي ضد السلطة المطلقة للدولة العثمانية، وبالتالي تحقيق نوع من الحكم الذاتي للأقاليم المختلفة وهي صورة مبكّرة لفكرة الدولة القُطرية المستقلة.. "إن حزب اللا مركزية كان يُراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معًا وكان سبب تأسيسه هو ما أنذرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة، وقد كنا نعتقد أنّ الدولة لا يمكن أن تعيش طويلا إذا أصرّت على شكل حكومتها المركزية وتحكيم التُرك في جميع شعوب الدولة[١٠٨]"، "لكنّ الخطيب كان له دور آخر هام إلى جانب عضويته في حزب اللا مركزية كان معتمد العربية الفتاة في مصر، تُرسل إليه منشوراتها من باريس فيطبعها ويرسلها إليها، ويوزّع

---

[١٠٦] هزرشي بن جلول الباحث الجزائري، الشيخ محمد رشيد رضا والدولة العثمانية، ص٤٥.

[١٠٧] هزرشي بن جلول، المرجع السابق، ص٥٦.

[١٠٨] هزرشي بن جلول، المرجع السابق، ص٦٩.

على البلاد العثمانية ما يوزعه.[١٠٩]"، ويدعو محب الدين الخطيب صراحة إلى الثورة، وخلع الخضوع –الشكلي– للسلطان العثماني، وذلك في منشوراته التي يصدرها مع صحيفة القِبلة التي يصدرها لتنطق بلسان الشريف حسين، "هذه المنشورات التي كانت توزع بين القبائل العربية في الحجاز بهدف كسبها إلى جانب الثورة، يقول: وعلى هذا فإننا نعلن لمن بقى من مسلمي المملكة التركية وخصوصًا جيشها وقوّادها بأنّهم إذا لم ينهضوا لإسقاط حكومة هؤلاء التورانيين الأغرار ويعلنوا براءتهم منهم فإننا نقطع آخر أمل لنا بعودة رونق الإسلام لتلك المملكة وتكون فاتحة براءتنا فيها طي اسم سلطانها من خُطب الجمعة التي أبقينا اسمه فيها حتى الآن حُرمة لآثار إسلامه وأملا بقيام من يخلّص البلاد من المتغلبين عليها.[١١٠]".

١١– **دور مجلتي المنار والفتح الإصلاحي:** ورغم المآخذ التي تُؤخذ على الشيخين محمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب في عملهما السياسي المضطرب، وتأسيسهما العديد من الجمعيات السرية والعلنية، وتحالفاتهما المتأرجحة، ورهانهما على مختلف القوى الإقليمية والدولية، وحصول قدر من التلوّن مع المنتصر سياسيًا، والمتصدّر للحكم، وكل هذا القدر من التأرجح والتذبذب بين القوى الإقليمية والمحلية، فتارة مع الشريف حسين، وأخرى مع الوهّابيين، وثالثة مع السلطان، ورابعة مع الاتحاد والترّقي، وخامسة مع الإنجليز، وكلها أمراض خطيرة في العمل العام، لكنّ دعوتهما الإصلاحية كان لها وجه حسن يتمثّل في دورهما الصحفي الريادي عبر مجلتي المنار والفتح، يقول الدكتور محمد عمارة عن المنار: "ولقد بلغت المنار ما لم يبلغه منبر إسلامي شهدته الأُمة في ذلك التاريخ، فكانت بحق تُرجمان أفكار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، أي المنار لأعظم تيّارات التجديد الإسلامي في العصر الحديث والمشكاة التي أضاءت من خلالها أنوار العبقرية التجديدية للشيخ محمد عبده، ولولاها لخبت في هذا الرجل

---

[١٠٩] هزرشي بن جلول، المرجع السابق، ص٧٤.

[١١٠] هزرشي بن جلول، المرجع السابق، ص١٢١–١٢٢.

نيرانه وأنواره على حد السواء.. ففضل الشيخ رشيد رضا أنّه حمل فكر محمد عبده التجديدي والإصلاحي إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي على امتداد ما يقرب من أربعين عاما.[١١١]"، "بل وكانت المنار المنطلق للحركات الإسلامية الجماهيرية، التي رفعت شعارات شمولية المنهاج الإسلامي للدين والدولة.. للعقيدة والشريعة.. للفرد والأُمة.. للدنيا والآخرة.. في مواجهة العلمانية العربية التي أرادت اختزال الإسلام، واستبعاد حاكميته في ميادين الاجتماع والحياة[١١٢]". أمّا مجلة الفتح، فيَذكر فيها الشيخ محب الدين الخطيب، الفكرة الداعية إلى إصدارها في إحدى افتتاحياتها، فقال: "إن الفتح أُنشئت لمماشاة الحركة الإسلامية وتسجيل أطوارها ولسد الحاجة إلى حادٍ يترنّم بحقائق الإسلام مستهدفًا تثقيف النشء الإسلامي وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته إلى هذا الجيل من الأجيال الإسلامية التي تقدّمته[١١٣]".

وعن غايته من تأسيس جمعية الشبان المسلمين، يقول: "كنت أنا وأحمد تيمور باشا والسيد محمد الخضر حسين حريصين على أن تكون هذه المؤسّسة الأولى للإسلام في مصر قائمة على تقوى من الله وإخلاص، وكنّا حريصين على أن يتولّى إدارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى المتابعون للإستعمار على أدوات الثقافة والنشر في العالم الإسلامي وفي مصر على الخصوص"، ويقول أيضًا: "وكانت الجمعية حدثًا كبيرًا من أحداث الحركة الإسلامية لأنّ دُعاة الإلحاد والتحلّل كان قد أستفحل أمرهم وظنوا أنّ قيادة الأمة قد أفلتت من أيدي ممثلي الإسلام وانتظمت إلى أيديهم"[١١٤].

---

[١١١] د. محمد عمارة، مرجع سابق، ص١٤.

[١١٢] د. محمد عمارة، المرجع السابق، ص٣٨.

[١١٣] محب الدين الخطيب، مجلة الفتح، افتتاحية العدد الأول من عام ١٣٥٣هـ.

[١١٤] الشيخ ممدوح فخري المدرس بأصول الدين، محب الدين الخطيب لمحات من حياته وقبسات من أفكاره، ص٥.

وهكذا تتحقّق النظرية أنّ لكل حركة أو دعوة أو نظرية وجهها الحسن المقبول الذي يجذب الناس إليها، ولولا هذا الوجه الحسن المقبول ما اتّبعها الناس، ولا اندفع عشرات وربما مئات من العلماء والمشايخ والمؤرّخين والكُتّاب إلى مدح الشيخين سيرة ومسيرة، عملا وآثارًا، وليس مِن عمل البحث ولا الباحث الانحياز للأشخاص ودعواتهم وحركاتهم، ولا خصومتهم، وإنّما عمل البحث والباحث كالمحقّق الذي يبحث عن الحقائق، ويفتّش عن الوقائع، ويترك الحكم نفسه لحقيقة الأفكار والأعمال المُعلنة بعد جمع أكبر قدر منها من مصادرها الأصلية، كل ذلك بهدف الاستفادة من الوجه الإصلاحي الحسن، وتجنّب الوقوع في ذات الأخطاء التي وقع فيها السابقون والتحذير منها. ربما في حالة الشيخين محمد رشيد رضا ومُحب الدين الخطيب، لم نلحظ تطرّفًا فكريًا ولا غلوًّا حزبيًا ولا عنفًا تنفيذيًا، على النحو الذي سجّلناه من متابعتنا لأفكار وحروب الحركة الوهّابية التي سجلوها بأنفسهم على أنفسهم، ولكنّنا وجدنا حيرة وتخبّطًا وسرّية وازدواجية، كما وجدنا تأييدًا ومناصرة للدعوة الوهّابية، ونشرًا لمنهجها، وبقدر أستاذيتهما المشهودة لمؤسّسي جماعات الحركة الإسلامية الحديثة والمعاصرة، انتقلت تلك الأمراض والعيوب إلى الحركة الوليدة، ولعلّنا نشهد شيئًا منها في السطور القادمة.

المبحث الثاني: المؤسّسون الفاعلون- حسن البنّا

الشيخ حسن البنّا

لا أظنّ أنّ هناك اسمًا في بلاد المسلمين في القرن العشرين أثار ويثير كل هذا القدر من اللغط والاختلاف والاهتمام، وما يزال يثير، مثل اسم الشيخ حسن البنا، فهو الرجل الذي أطلق فكرة وأعلن دعوة وأسّس تنظيمًا، ما يزال ينتشر في جنبات العالم منذ ما يقرب من مائة عام.. مع شخصية بوزن حسن البنا يتعامل الباحث بمنتهى الحساسية والرهافة، فلا يكفيه أن يكون موضوعيًا منصفًا، لكي يُقنع نفوسًا تشرّبت الفكرة حتى صارت كما يصفها الواصف كالميت بين يدي مغسّله! أن تراجع فكرتها وتصوّرها كله على ميزان الإسلام الصحيح الواضح، فيُلزم الباحث نفسه بألا يكتفي بالقاعدة التي ألزم بها نفسه طيلة البحث بأن يأخذ الأصول الفكرية من مصادرها، ولا أن يزن الشخصية من منطوقها ومكتوبها وتراثها الفكري والسلوكي، فلا يسمع عن حسن البنا، ولكن يسمع منه، فحسب، ولكن عليه أيضًا ألا يبدي ولو قدرًا بسيطًا يكاد يكون خفيًّا من التعسّف في تأويل نصوص البنا، بل ويؤول كل ما احتمل معاني منها إلى وجه حسن إن وجَد، وألا يُغفل أيّ عامل من عوامل البيئة والتاريخ الذى نشأت به الفكرة والحركة والظروف والملابسات التي دفعت إلى سلوك منحى مُعيّن..

والباحث إذ يتوخّى ذلك فإنّما يرجو المولى -عزّ وجلّ- أن يجعل ميزانه مجرّدًا عن الهوى الشخصي والميل القلبي، خالصًا لوجهه تعالى، ويدعوه أن يكتب لكلماته القبول الذي يأخذ بها إلى قلوب المسلمين صادقة ناجعة مؤثّرة، يترتّب عليها عمل في ترك الغلوّ والتعصّب والتطرّف للأشخاص والهيئات والجماعات والأحزاب والأفكار والدعوات، ليكون الانتماء للإسلام الخالص وحده!

١ – **شخصية أمنية سرّية بامتياز**.. "وإن كنت أوصي الذين يعرّضون أنفسهم للعمل العام ويرون أنفسهم عُرضة للاحتكاك بالحكومات ألا يحرصوا على الكتابة، فذلك أروَح لأنفسهم وللناس، وأبعد عن فساد التعليل وسوء التأويل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[١١٥]"، وهذه نصيحة عجيبة، فإنّه حري بالذي يعمل في العمل العام أن يكون كتابًا مفتوحًا للناس، وهكذا كانت حياة سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حتى في أدقّ تفاصيلها وفي بيته معروضة على الناس.. إنّ هذه السرّية وهذا الغموض يكشف أول ما يكشف عمّا يبعث الريبة في الحركة والسلوك، كما يؤدّي إلى غياب كتابة التاريخ وضياع التجارب، وفقدْ الخبرات، فيبدأ الجيل الجديد من حيث بدأ الجيل السابق ولا يستفيد من تجاربه، وهو في العموم عكس منهج القرآن الكريم الذي حثّنا على قراءة التاريخ وقصص السابقين.

٢– **مدخل إلى أسباب نشأة حركة البنا:** النظرة غير الموضوعية لمكانة السلطان العثماني، نظرة طالب يافع لم يتمكّن بعلم الواقع الذي تعلّمه أساتذته بعد (رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، ورفيق العظم وغيرهم الذين قاوموا السُلطة المُطلقة، وفساد نظام حكم السلطان طويلا) "لقد قامت تركيا بانقلابها الكمالي وأعلن مصطفى كمال باشا إلغاء الخلافة، وفصل الدولة عن الدين في أُمّة كانت إلى بضع سنوات في عُرف الدنيا جميعًا مقر أمير المؤمنين، واندفعت الحكومة التركية في هذا السبيل في كل مظاهر الحياة."[١١٦]، "وظهرت كتب وجرائد ومجلات كل ما فيها ينضح بهذا التفكير الذي لا هدف له إلا إضعاف أثر أي دين، أو القضاء عليه في نفوس الشعب لينعم بالحرية الحقيقية فكريًا وعمليًا في زعم هؤلاء الكتّاب والمؤلفين، وجُهزت صالونات في كثير من الدور الكبيرة الخاصة في القاهرة يتطارح فيها زوّارها مثل هذه الأفكار، ويعملون بعد ذلك على نشرها في الشباب وفي مختلف الأوساط.. رد الفعل: كان لهذه الموجة

[١١٥] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، (مكتبة آفاق، ط١، ٢٠١٢)، المقدمة، ص٥.

[١١٦] حسن البنا، المرجع السابق، ص٥٤.

رد فعل في الأوساط الخاصة المعنية بهذه الشؤون كالأزهر وبعض الدوائر الإسلامية، ولكن جمهرة الشعب حينذاك كانت إمّا من الشباب المثقّف وهو مُعجب بما يسمع من هذه الألوان، وإمّا من العامة الذين انصرفوا عن التفكير في هذه الشؤون لقلة المنبّهين والموجّهين، وكنت متألمًا لهذا أشد الألم[١١٧]".

من أخطر الأمور أن تنشأ الحركات كردّ فعل لا كفكرة أصيلة. وعلى العموم فكما كانت حركة العلمنة متطرّفة لا تعبّر عددًا وعمقًا عن حقيقة الشعب، فإنّ أي ردّ فعل سيجيء عنيفًا متطرّفًا في الاتجاه المضاد. والشيخ هنا نفسه يعترف بأمور، منها انصراف عامة الشعب عن مثل هذه الدعوات، وفي هذا دليل على سطحية وهامشية تلك الأفكار وعدم تغلغها في المجتمع المصري، كما يعترف بقيام الأزهر والمؤسّسات الدينية بمواجهتها، فإذا كان الحال كذلك فكان من المناسب جدًّا والمعقول تمامًا أن تنضمّ كل الجهود إلى جهود تلك المؤسّسات لتعضيد المواجهة، بدلا من التشتّت والتشرذم إلى فرق مواجهة مختلفة. وليس أدلّ من قوة حضور الوعي الإسلامي ما يضيفه الشيخ بعد سطور بقوله: "كان هؤلاء جميعًا يتحدثّون في هذه الموضوعات، وفي وجوب القيام بعمل إسلامي مضاد، وكنّا نجد في ذلك ترويحًا عن النفس وتسلية عن هذا الهم**!**[١١٨]".

٣-علاقة التلمذة بمحب الدين الخطيب ومحمد رشيد رضا: "كما كان ينفس عن نفسي كذلك التردّد على المكتبة السلفية، وكانت إذ ذاك قُرب محكمة الاستئناف، حيث نلتقي الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير السيد محب الدين الخطيب ونسمع من زوّاره بعض ما ينّفس عن النفس، كما كنا نتردّد على دار العلوم، ونحضر في

[١١٧] حسن البنا، المرجع السابق، ص٥٦.

[١١٨] حسن البنا، المرجع السابق، ص٥٦.

بعض مجالس الأستاذ رشيد رضا رحمه الله، ونلقى فيها الكثير من الأعلام والفضلاء كذلك[١١٩]".

٤ – **حداثة السنّ وحماس واندفاع الشباب مع ضعف العلم وغياب الحكمة والتجربة:** "وكنت أتكلم في حماسة وتأثر وشدّة، من قلب محترق مكلوم، فانبرى بعض العلماء الجالسين يرد علي في قسوة كذلك، ويتهمني بأنني أسأت إلى الشيخ وخاطبته بما لا يليق، وأسأت إلى العلماء والأزهر، وأسأت بذلك إلى الإسلام القوي العزيز، والإسلام لا يضعف أبدًا والله تكفّل بنصره.[١٢٠]"، "فكان تبسّم كذلك له معناه، وسألت الشيخ مصطفى الطير على انفراد ما معنى هذا؟ فقال معناه أنك فاجأت الناس بما لم يكونوا ينتظرون، فهم كانوا يترقّبون أن يروا شيخًا فخمًا ضخمًا كبير السن جليل المظهر، فإذا بهم يلقون فتى لم يصل إلى الخامسة والعشرين فعلينا إذن أن نعيد إلى نفوسهم الطمأنينة وأن نبذل الليلة جهدًا كبيرًا في الإقناع، فقلت يا أخي التوفيق بيد الله والتأييد من الله وحده.[١٢١]".. إنّ قضية أحداث الأسنان قضية قديمة ينسبها البعض إلى حديث ورد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الترمذي، والمتأمّل في نصّ ذلك الحديث سيرى أنّه جمع بين حداثة السنّ والمروق من الدين، فليست حداثة السنّ عيب في ذاتها، بل إنّ بعض الصحابة –رضوان الله عليهم– حول النبي كانوا شبابًا، ومع ذلك كانوا من أعظم من قدّم من التضحيات، مثل معاذ ومعوذ ابني عفراء اللذيْن قتلا أبا جهل في غزوة بدر، ومثل أسامة بن زيد الذي لقّبه النبي –صلى الله عليه وسلم– بأنّه الحِبّ ابن الحِبّ، وقلّده قيادة جيش متّجه لتخوم الروم! –قيادة الجند العسكرية تختلف عن القيادة المدنية–، وإذا كانت كتب

---

[١١٩] حسن البنا، المرجع السابق، ص ٥٦.

[١٢٠] حسن البنا، المرجع السابق، ص٥٩.

[١٢١] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٢٠، مع ملاحظة أن الشيخ حسن البنا تقلد منصب مرشد عام الجماعة وهو في سن اثنين وعشرين سنة.

السيرة والتاريخ تروي لنا بطولة وشجاعة وحماسة الشباب، فإنّها قلّما تحكي لنا عن حكمة هؤلاء ونضجهم وخبرتهم وتجربتهم، ونحن نفهم من القرآن الكريم أنّ الرجل ما زال في نقص حتى يبلغ الأربعين من عمره، "**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي**" الأحقاف١٥، كما كانت سنّ النبوّة في الأربعين من العمر، ويكثر أن يكون الجنود من الشباب النجباء، وقد يكون منهم فلتات في العبقرية في مجال من المجالات، لكنّ القادة والحكماء يحتاجون إلى خبرات وتجارب الحياة، وهناك وظائف وأدوار في الحياة لا يكتسبها الإنسان بكفاءة تامّة إلا بشغل أدوار أخرى تمهيدية، فحتى يصبح الرجل أميرًا حانيًا حليمًا حكيمًا، فلا بد له –في الأغلب– أن يكون مرّ بدور الزوج والأب والمسؤول عن الأُسرة، فتلك الأدوار تهذّب من سلوك الفرد وتُكسبه الكثير من الصفات والمهارات اللازمة لسياسة الأمور.. أمّا حداثة السن –ومهما بلغت العبقرية والنجابة– تثير الندّية والتنافس في الأقران، فما بالك فيمن كان أسنّ منك؟! وأنت عندما تذكر هذه الملحوظة اليوم لتيار ذلك التنظيم وجمهوره للتدليل على اندفاع كثير من الخطوات وعدم حكمتها، واجهوك بالاستنكار، رغم أنّ ذات التنظيم يعتمد في لوائحه اختيار أكبر الأعضاء سنًّا لشغل منصب إرشاده إذا خلا منصب المرشد حتى إجراء الانتخاب، ولا تجد في مكتب إرشاده وهو بمثابة مجلس إدارته مَن هو أقل مِن سنّ الخمسين بحال، إلا نوادر على مدار التاريخ التالي للشيخ حسن البنا!

٥- **العمل للنهضة لم ينقطع قبل نشأة الجماعة،** "وتكوّنت نواة طيبة من هؤلاء الفضلاء وواصلت اجتماعها بعد عيد الفطر، وأعقب ذلك أن ظهرت مجلة الفتح الإسلامية القوية يرأس تحريرها الشيخ عبد الباقي سرور نعيم رحمه الله، ومديرها السيد محب الدين الخطيب، ثم آل تحريرها وإدارتها إليه، فنهض بها خير نهوض، وكانت مشعل الهداية والنور لهذا الجيل من شباب الإسلام المثقف الغيور، وظلت هذه النخبة المباركة من الفضلاء تعمل حتى بعد أن

فارقت دار العلوم، وظل يحركها نفر من هذا الشباب المخلص. حتى كانت هذه الحركات جمعية الشبان المسلمين فيما بعد.[١٢٢]"، "وهكذا كانت حياتي في القاهرة خليطًا عجيبًا من الحضرة في منزل الشيخ أو منزل علي أفندي غالب، إلى "المكتبة السلفية" حيث السيد محب الدين الخطيب، إلى دار المنار والسيد رشيد، إلى منزل الشيخ الدجوي، ثم منزل فريد بك وجدي، ودار الكتب أحيانًا، ومسجد شيخون أحيانًا أخرى.[١٢٣]"..

مثل هذه الجهود التي كان يبذلها الأزهر، ويبذلها المصلحون عبر إصدارات صحفية قيّمة مثل المنار والفتح وغيرهما، ومحاولات مستمرة لإنشاء جمعيات الإحياء مثل جمعية الشبّان المسلمين، وغيرها، تدلّ على أنّ سلسلة الكفاح من أجل النهضة لم تنقطع في منطقة الشرق كلها، وتعاقبت في سلسلة ممتدّة يحمل مشعلها جمال الدين الأفغاني، فمحمد عبده، فرشيد رضا، فمحب الدين خطيب وغيرهم كُثر، ولم تكن الحال كما يتصوّرها البعض حالكة السواد، ولم يكن ميدان الإصلاح خاليًا، وكان من الطبيعي بل ومن المتعيّن أن تمتدّ كل يد إصلاحية لما هو قائم بالفعل لتعضيده وتقويته وجبر عوامل النقص فيه، لا بحث عن عمل جديد بقيادة جديدة ومسار مختلف!

وهكذا الشيخ يؤكّد في موضع آخر سعادته البالغة بقيام مثل تلك الهيئات والكيانات العاملة للإسلام، "كما كنت على صلة تامة بمجموعة الشباب التي تعرفت إليها في القاهرة من قبل، وتعاهدنا على العمل للدعوة الإسلامية العامة. وكم كنت سعيدًا فرحًا أشد الفرح حينما قرأت في الجرائد صباح يوم من الأيام نبأ الاجتماع الأول لتكوين جمعية الشبان المسلمين –وفقها الله– واختيار المرحوم عبد الحميد بك سعيد رئيسًا لها على أثر مجهودات هؤلاء الإخوة من الشباب

[١٢٢] حسن البنا، المرجع السابق، ص٦١.

[١٢٣] حسن البنا، المرجع السابق، ص٦٦.

المؤمن، وأذكر أنني كتبت توًا إلى عبد الحميد بك سعيد معلنًا اشتراكي بالجمعية، وواظبت على دفع الاشتراك، وتابعت خطواتها، وما طرأ عليها من تطورات وحوادث بكل اهتمام، وألقيت أول محاضرة هامة لي في القاهرة في ناديها بشارع مجلس النواب..... ولا زلت أُكن لرجالها المؤسّسين والعاملين فيها كل تقدير لجهودهم الإسلامية القيمة.[١٢٤]".. في كل الأحوال لا يمكن لقارئ أو باحث أن يفتّش في النوايا، لكن من حقّ الجميع أن يتساءل أسئلة بريئة عن الدوافع من أجل الفهم لا من أجل محاسبة الناس على دواخلهم، ألم يكن إنشاء الحركة الجديدة الناشئة بواسطة هؤلاء الشباب، برغم كثرة الحركات المعاصرة العاملة للإسلام والدعوة، محاولة للبحث عن دور؟ يقول الشيخ عن العام الأول في تاريخ جماعته الناشئة: "وتدريب القادرين على الخطابة والدعوة تدريبًا علميًا بحفظ ما يستطاع من النظم والنثر، ومادة الدعوة. وعمليًا بتكليفهم التدريس والمحاضرة في هذا المحيط أولا. ثم في أوسع منه بعد ذلك. وحول هذا المنهاج تربّت المجموعة الأولى من الإخوان المسلمين الذين بلغوا في نهاية العام المدرسي "١٩٢٧-١٩٢٨" سبعين أو أكثر قليلا. ولم يكن هذا المنهاج التعليمي هو كل شيء. فقد كانت معاني التربية العملية التي تتفاعل في أنفسهم بالمخالطة والتصرفات الواقعية والود والمحبة فيما بينهم، والتعاون الكامل في شؤون حياتهم، وتهيؤ نفوسهم لما في ذلك من خير أقوى العوامل في تكوين هذه الجماعة.[١٢٥]".. كل هذه جهود رائعة لا شك في ذلك، لكنّ السؤال الملحّ: ألم يكن كل هذا البرنامج أو المنهاج النظري والعملي يُدرَّس وقتئذٍ في الأزهر الشريف وفي دار العلوم؟ ألم تكن المؤسّسات القائمة تُعدّ الخطباء والدعاة إعدادًا علميًا وثقافيًا وخُلقيًا وعمليًا؟ لماذا يظنّ إذن بعض الناس أنّهم مبعوثو العناية الإلهية لاختراع العجلة من العدم، رغم كون العجلة تسير على الطُرق منذ سنوات؟! عجلة الإصلاح كانت تسير على الطريق، ويدلّل على ذلك الشيخ نفسه

[١٢٤] حسن البنا، المرجع السابق، ص٨١-٨٢.

[١٢٥] حسن البنا، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

عند حديثه المستفيض عن إسلام المصريين العملي قبل نشأة جماعة الإخوان، يحكي الشيخ البنا في الصفحات بين ٨٧-٨٩، نماذج من الأخلاق الإسلامية العملية للمصريين من الأمانة والعفّة والكرامة لحرفيين وفنيين انضموا للجماعة بأخلاقهم الراقية.

٦- هب أنّ الخلافة سقطت توًّا، إن كانت سلطة الدولة العثمانية فعليًا تُعتبر خلافة، فهل معنى ذلك أنّ الأُمّة سقطت، وأنّه لم يعد للمسلمين جماعة ولا إمام بالمعنى الديني لا السياسي؟ يقول الشيخ معلّقًا على بعض حوادث الاختلاف في الفقهيات في الإسماعيلية: "دين الله أوسع وأيسر من أن يتحكّم فيه عقل فرد أو جماعة وإنّما مرد كل شيء إلى الله ورسوله وجماعة المسلمين وإمامهم إن كان لهم جماعة وإمام.[١٢٦]".. ملحوظة الشيخ بالقطع صحيحة، بل هي حاكمة على سلوك جماعته ذاتها في كثير من المواقف فيما بعد، لكن تبدو أنّها إشارة أيضًا إلى أنّ الشيخ بدأ يفتقد لجماعة المسلمين وإمامهم، وهذا خطير لأنّ الأُمّة -جماعة المسلمين- لا تسقط بسقوط السلطان، فالأُمّة هي التي تنتج السُلطة وتعيد تعيين السلطان وليس العكس، السلطان ولو كان مسلمًا لا يمكنه إعادة إنتاج أُمّة المسلمين.. هذه هي القاعدة التي على أساس مخالفتها حدث كل ما حدث في تاريخ الحركة الإسلامية الحديثة، لقد أرادت إنتاج السُلطة على قاعدة غياب الأمّة، بينما الصحيح أنّ تقوية الأُمّة كفيل بإنتاج السُلطة الصالحة.

٧- **فكرة من عدم تثير تساؤلات:** "وقال قائلهم: بمَ نسمي أنفسنا؟ وهل نكون جمعية أو ناديًا، أو طريقة أو نقابة حتى نأخذ الشكل الرسمي؟ فقلت: لا هذا، ولا ذاك، دعونا من الشكليات، ومن الرسميات، وليكن أول اجتماعنا وأساسه: الفكرة والمعنويات والعمليات، نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذن "الإخوان المسلمون" وجاءت بغتة... وذهبت مثلا.. وولدت أول تشكيلة للإخوان المسلمين من هؤلاء الستة: حول هذه الفكرة، على هذه الصورة وبهذه

[١٢٦] حسن البنا، المرجع السابق، ص٧٦.

التسمية.[١٢٧]".. والسؤال البديهي: هل هذا الجمع الصغير بكل مقوّماته يُنتج مؤسّسة أو كيانًا حقيقيًّا خليقًا به أن يُصلح أُمّة؟ وهل بمثل هذه العفوية والسذاجة والبراءة تقوم المؤسّسات الكبرى؟ ألم يكن الأكثر بداهة أن يطلب هؤلاء المجتمعون المتحمّسون الانضمام إلى أيّ كيان إصلاحي إسلامي قائم بالفعل، لا سيّما وأنّ تلك الكيانات غير معدومة؟ لا شكّ لديّ أنّ المجتمعين كانوا يملكون قدرًا هائلا من الحماس والشوق إلى عمل إصلاحي إسلامي، فماذا عن رصيد العلم، ورصيد الخبرة، ورصيد التجربة، ورصيد الحكمة، ورصيد الإمكانات والمقوّمات المادية الواقعية؟!

٨ – الشعور الدائم بفراغ المجتمع من مؤسّسات وكيانات ودعوات إصلاحية، على غير الحقيقة التي يثبتها الشيخ نفسه في عدّة مواضع من الكتاب، مؤكّدًا قيام تلك الهيئات والكيانات والدعوات الإصلاحية ونجاعتها إلى حد مؤازرتها والحرص على الاشتراك فيها، ثمّ يعود فيقع في التناقض والشعور بالفراغ الإصلاحي، "وأخذت في حديثي ألفت نظره ونظر الجالسين إلى نقاط أساسية: إلى سمو مقاصد الإسلام وعلو أحكامه وإلى ما فيه المجتمع من فساد وشر وسوء، وإلى أن ذاك ناتج عن تركنا وإهمالنا لأحكام الإسلام، وإلى وجوب الدعوة إلى تصحيح هذا الوضع وإلا كنا آثمين لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة فريضة واجبة، وإلى أن الطريقة الفردية وحدها لا تكفي بل لا بد من تكوين رأي عام يناصر هذه الفكرة وجماعة من الطيبين في كل قرية يؤمنون بها ويجتمعون عليها ونسميهم الإخوان المسلمين.[١٢٨]"!

[١٢٧] حسن البنا، المرجع السابق، ص٨٥.

[١٢٨] حسن البنا، المرجع السابق، ص١١٤.

٩- دعوة القهاوي قوّة نفسية وهروب من منافسة العلماء! "ولكنه شدد وأشار علي في أن ألقي درسًا في المسجد أو في مصلى على البحر يجتمع فيه الناس فاخترت أن ألقي الدرس في القهوة وقد كان، وتجمع الناس وأصغوا واستغربوا ما رأوا وما سمعوا وعجبوا من أنّ مدرسًا شابًا وجيهًا يلقي دروسًا دينية هكذا على الناس في القهاوي وليس بإمام في مسجد ولا بشيخ طريقة، وأعجبهم القول فشددوا في أن أكرر الزيارة وقد كان[١٢٩]". ولقد كانت دعوة الشيخ كلها في مبدئها مبنية على إلقاء الدروس القصيرة في القهاوي، وهي قوّة نفسية عجيبة قلّما يتمتّع بها داعية أو خطيب، أن يواجه الناس بما لم يعتادوا، وأن يرتاد أماكن اللهو -ولو كان بريئًا- ليتخوّلهم بالموعظة! وهو عمل مبدع ودعوة حسنة يجب التنويه إليها وتقريظها، لكنّها في المقابل تحمل حرصًا مستمرًّا على الهروب من ممارسة الدعوة من خلال المسجد المكان الطبيعي للدعوة، وابتعادًا عن المنافسة مع الدُعاة التقليدين، وتقويم الجمهور التقليدي المعتاد لسماع الموعظة في المسجد، والقادر بحكم الاعتياد والتجربة والدربة على فرز المستوى العلمي للواعظ أو الخطيب! بينما المنشغلون باللهو على المقهى، فإنّ أي حديث يُذكر فيه الله ورسوله سيبدو لهم حديثًا إسلاميًا ودعويًا عظيمًا، فقد تحتاج إلى قوّة نفسية هائلة لمواجهة جمهور مقهى بموعظة دينية، لكنّك تحتاج في ذات الوقت إلى أقلّ القليل من زاد علمي ديني لأداء هذه المهمة!

١٠ – فكرة لامعة ومنهج غامض وبيعة بريئة على خطوات غير محدّدة! "وفي هذه الزاوية المتواضعة أخذت البيعة على الرعيل الأول من شباب بورسعيد على الجهاد في سبيل هذه الدعوة حتى يظهرها الله أو نهلك دونها[١٣٠]".

---

[١٢٩] حسن البنا، المرجع السابق، ص١١٥.

[١٣٠] حسن البنا، المرجع السابق، ص١١٧.

١١- تصرُّف طبيعي قام به عبد الرحمن الساعاتي ولم يقم به الشيخ حسن البنا.. "وفي مدرسة التجارة المتوسطة بشارع الفلكي تأسّست الجمعية الدينية قوامها الطالب عبد الرحمن الساعاتي، والطالب محمود سعدي الحكيم، وبعض زملائهما المحافظين على الصلاة، العارفين بفضل الإسلام وجمال تعاليمه، وكانت مصلى المدرسة مقر اجتماعهم، ومظهر نشاطهم، وكم كانوا يلقون من تهكّم زملائهم، واستغراب رفقائهم، ومعاكسة بعض الذين لا يأبهون بهذه المظاهر من الطلاب، أو الموظفين، فكانوا يصبرون لذلك صبر الكرام، وتخرّج الفتيَان الطيبان من المدرسة، وقُدر لهما أن يكونا زميلين موظفين في هندسة وابرات السكة الحديد، وفي نفسهما للإسلام حب عميق وشعور بتبعية، وميل إلى العمل، والكفاح في سبيل هذا الدين الحنيف، ومظهر العمل للإسلام حينذاك تكوين الجمعيات الإسلامية. وإذن فليكوّنا جمعية تدعو إلى الإسلام، وتعمل له، وهكذا نشأت "جمعية الحضارة الإسلامية" فشقّت طريقها، واتخذت لها من حجرة في الدور الأول ذات فناء فسيح بحارة الروم مكانًا للنشاط وميدانًا للعمل، وانضم إليها أخوة فضلاء..... ورأت جمعية الحضارة نشاط الإخوان المسلمين بالإسماعيلية وانتشار فروعها في هذا المحيط حول هذا البلد المبارك واقتنع رجال الحضرة بأن التوحيد أفضل من الفرقة وأن انضمام الجهود أولى وأفضل، فاتصلوا بالإسماعيلية وكانت مباحثات انتهت أخيرًا بانضمام جمعية الحضارة إلى الإخوان المسلمين.[١٣١]" ولعمري هذا التصرّف الحكيم من عبد الرحمن البنّا الساعاتي شقيق الشيخ حسن البنّا، ورفاقه، هو التصرّف المعقول والمنطقي، إذ رأى ضمّ الجهود، وجمع الجمعيات إلى جمعية واحدة، وهو أمر لم يؤثر أبدًا عن الشيخ حسن فِعله مع أيّ جمعية قائمة مهما بالغ في الثناء عليها كما بالغ في الثناء على جمعية الشبّان المسلمين في غير مناسبة في مذكراته.

[١٣١] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٢٣.

١٢- عُجب عملي بالنفس لا حدود له، "على أن ملخص خطراتي أن فرعي جمعية الإخوان المسلمين بالمحمودية، وشبراخيت سوف لا تنفع كثيرًا لأنها أنشئت بغير أسلوبي، ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسي وبجهود الإخوان الحقيقيين الذين لا يرون لي معهم شركة في التهذيب والتعليم وهم قليل، ونفس فرع الإسماعيلية ستحدث فيه تعديلات كثيرة ولكنه سيسير نافعًا إن شاء الله، إنه لله.. قائد موهوب ولكنه منصرف بهذه القيادة وهذه المواهب إلى السفاسف مسرف في وقته لا يقدّر له قيمة، قلبه مملوء بأوهام لا حقيقة لها ومنصرف إلى ناحية لا تثمر إلا العناء؟ فالاعتماد عليه ضرب من المخاطرة العقيمة. والأخ الشيخ.. له أساليبه الخاصة به. وهو ينظر إليّ كأخ زميل فلا يصغي لآرائي إلا قليلا، ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكرة ضربًا من التعسّر؟ فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك.[١٣٢]"، "في هذا اليوم تحدّث إلي... و... بخصوص نظام مجلس الإدارة: إنّ هؤلاء الناس لم يفهموا بعد دعوة الإخوان المسلمين وقليلون هم أولئك الذين يستطيعون النهوض بأعباء إدارتها وتنفيذ منهجها الواسع. إنني أتمنّى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويديرون فأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلا وأطمئن إلى مقدرتهم ولكن أين هم؟ إنّ الكثيرين لا يفهمون من مجلس الإدارة إلا كلمة العضوية، فهم يتنافسون على حيازتها، وتقع بها بينهم العداوة والبغضاء، سيتبع التغيير المنتظر ضجّات هي كالسراب يلوح ثم يزول بمجرّد الوصول إليه. فاللهم إن كنت تعلم حسن القصد وخلوص النية فوفّق.[١٣٣]"، وهذا الذي يذكره الشيخ عن أخلص رفاقه وعن مجلس إدارة جماعته شيء يدخل في باب العجَب العُجاب! فعلى ما فيه من سوء ظنّ في المواهب والنوايا، فيه أيضًا قدر مبالغ فيه من الغلوّ في الذات! وإذا كان هذا هو حال الرعيل الأول لتلك الجماعة كما

[١٣٢] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٦٣.

[١٣٣] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٦٥.

يصفهم دائمًا الشيخ في مذكراته، وبشهادته هو شخصيًا، فكيف يظنّ التابعون أنّها جماعة ربّانية لا تجتمع على باطل؟ إنّ كل هذه الأفكار عبارة عن أساطير يصنعها الغلوّ!

١٣- بداية التعصّب والغلوّ في الأشخاص وممارسة العنف، "وحدث أن ناظر مدرسة عباس أطلع الوفد الإسماعيلي على خطاب ورد إليه بتوقيع الأخ الخارج على الدعوة وفيه تجريح وشتم، فتألموا لذلك ونقلوا الخبر إلى البلد. وما كدت أفارقها حتى تربص له بعض المتحمسين من الأهلين وهو في طريقه وأشبعوه ضربًا بالعصي والأيدي حتى عجز عن السير والقيام.[١٣٤]"، وليس بعد الغلوّ في الأشخاص والتعصّب للأفكار والجماعات إلا ممارسة العنف.

١٤- الانطلاق إلى المواجهة، "منذ عشر سنين بدأت دعوة الإخوان المسلمين خالصة لوجه الله مقتفية أثر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، سيد الزعماء وأهدى الأئمة وأكرم خلق الله على الله، مع العاملين، منصرفين إلى ميدان مثمر منتج هو ميدان تربية الأمة وتنبيه الشعب وتغيير العرف العام وتزكية النفوس وتطهير الأرواح وإذاعة مبادئ الحق والجهاد والعمل والفضيلة بين الناس. وأعتقد أنهم نجحوا في ذلك إلى مدى يحمدون الله عليه ويسألونه المزيد منه فقد أصبح للإخوان المسلمين دار في كل مكان ودعوة على كل لسان وأكثر من ثلاثمائة شعبة تعمل للفكرة وتقود إلى الخير وتهدي إلى سواء السبيل. وأصبح في مصر شعور إسلامي قوي دفاق.[١٣٥]"، "سننتقل من خير الدعوة العامة إلى خير الدعوة الخاصة ومن دعوة الكلام وحده إلى دعوة الكلام المصحوب بالنضال والأعمال وسنتوجه بدعوتنا إلى المسؤولين من قادة البلد وزعمائه ووزرائه وحكامه وشيوخه ونوابه وأحزابه وسندعوهم إلى مناهجنا ونضع بين أيديهم برنامجنا وسنطالبهم بأن يسيروا بهذا البلد المسلم بل زعيم الأقطار الإسلامية في طريق الإسلام

---

[١٣٤] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٦٩.

[١٣٥] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٧٧.

في جرأة لا تردد معها وفي وضوح لا لبس فيه ومن غير مواربة أو مداورة..... فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تعمل على نصرة الإسلام ولا تسير في الطريق لاستعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام، سنعلنها خصومة لا سلم فيها ولا هوادة معها حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين."، "كان ذلك موقفكم أيها الإخوان سلبيًا هكذا فيما مضى أما اليوم وأما في هذه الخطوة الجديدة فلن يكون كذلك، ستخاصمون هؤلاء جميعًا في الحكم وخارجه خصومة شديدة لديدة إن لم يستجيبوا لكم ويتخذوا تعاليم الإسلام منهاجًا يسيرون عليه ويعملون له وسيكون هؤلاء جميعًا منضمين لكم في وحدة قوية وكتلة متراصة متساندة إن أجابوا داعي الله وعملوا معه. وحينئذ يجتمعون ولا يتفرقون ويتحدثون ولا ينتقدون فهو موقف إيجابي واضح لا يعرف التردد ولا يتوسط بين الحب والبغض، فإما ولاء وإما عداء ولسنا في ذلك نخالف خطتنا أو ننحرف عن طريقتنا أو نغير مسلكنا بالتدخل في السياسة كما يقول الذين لا يعلمون ولكنا بذلك ننتقل خطوة ثانية في طريقتنا الإسلامية وخطتنا المحمدية ومنهاجنا القرآني ولا ذنب لنا أن تكون السياسة جزء من الدين، وأن يشمل الإسلام الحاكمين والمحكومين. فليس في تعاليمه أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولكن في تعاليمه قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار.[١٣٦]"، وإنّي لأتساءل ما المبرّر لإعلان هذه الحرب التي ستكون ضد كل من لم يستجب لمنهج الجماعة؟

١٥– ادّعاء بالكمال لا دليل عليه وغلوّ شديد في تقدير الذات والجماعة، "إنّ دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية.[١٣٧]"، "وإنكم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه على قرآن ربه وأمناؤه على شريعته وعصابته التي وقفت كل شيء على إحياء الإسلام في وقت تصرفت فيه الأهواء والشهوات وضعفت عن هذا العبء الكواهل. وإذا كنتم كذلك فدعوتكم أحق

[١٣٦] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٧٩.

[١٣٧] حسن البنا، المرجع السابق، ص٢٨٩.

أن يأتيها الناس ولا تأتي هي أحدًا وتستغني عن غيرها إذ هي جماع كل خير وما عداها لا يسلم من النقص، إذن فأقبلوا على شأنكم ولا تساوموا على مناهجكم واعرضوه على الناس في عز وقوة، فمن مد لكم يده على أساسه فأهلا ومرحبًا في وضح الصبح وفلق الفجر وضوء النهار أخ لكم يعمل معكم ويؤمن إيمانكم وينفذ تعاليمكم، ومن أبى ذلك فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه[١٣٨]".

١٦ – **الغلوّ في قضيّة الحكم**، "إذا قيل لكم إلام تدعون؟ فقولوا ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم هذه سياسة! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام. وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة، فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا ووقفتم في طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين[١٣٩]"، "بعد هذا التحديد العام لمعنى الإسلام الشامل ولمعنى السياسة المجردة عن الحزبية، أستطيع أن أجهر في صراحة بأن المسلم لن يتم إسلامه إلا إذا كان سياسيًا، يعيد النظر في شؤون أمته، مهتمًا بها غيور عليها. وأستطيع كذلك أن أقول أن هذا التحديد والتجريد أمر لا يقره الإسلام، وأن على كل جمعية إسلامية أن تضع في رأس برنامجها الاهتمام بشؤون أمتها السياسية وإلا كانت تحتاج هي نفسها إلى أن تفهم معنى الإسلام[١٤٠]". "وهذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنًا من أركانه، ويعتمد على التنفيذ كما يعتمد على الإرشاد، وقديمًا قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن). وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الحكم عروة من عري

---

[١٣٨] حسن البنا، المرجع السابق، ص٢٩٠.

[١٣٩] حسن البنا، رسالة بين الأمس واليوم، مجموع الرسائل، ص٧٢.

[١٤٠] حسن البنا، المرجع السابق، ص١٠٥.

الإسلام. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع[١٤١]"، "يفترض الإسلام الحنيف الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به للناس، فهو لا يقر الفوضى، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام[١٤٢]"، هذه الآراء التي يعرضها الشيخ حسن البنا عن مكانة الحكم أو السُلطة في الإسلام، تحمل نوعًا من الغلوّ والمبالغة، وهو يخالف ما اتفق عليه أهل السُنة، {يخالف ما ذهب إليه أهل السنة من أن الإمامة من فروع الدين لا أصوله يقول الآمدي: "واعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أُصول الديانات، ولا من الأُمور اللابدِّيَّات، بحيث لا يسع المكلَّف الإعراض عنها والجهل بها...[١٤٣]"، ويقول الإيجي "وهي عندنا من الفروع، وإنّما ذكرناها في علم الكلام تأسيّاً بمن قبلنا[١٤٤]". ويقول الإمام الغزالي "اعلم أنّ النظر في الإمامة أيضًا ليس من المهمات، وليس أيضًا من فنّ المعقولات، بل من الفقهيات[١٤٥]"، ويقول التفتازاني "لا نزاع في أنّ مباحث الإمامة، بعلم الفروع أَليق[١٤٦]..."[١٤٧]}، أما نص كلام الآمدي: "واعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أُصول الديانات، ولا من الأُمور اللابدِّيَّات، بحيث لا يسع المكلَّف الإعراض عنها والجهل، بل لعمري إن المعرض عنها لأرجى حالا من الواغل فيها، فإنها قلما تنفك عن التعصب والأهواء، وإثارة الفتن والشحناء، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسلف بالإزراء، وهذا مع كون الخائض فيها سالكًا سبيل التحقيق،

---

[١٤١] حسن البنا، رسالة المؤتمر الخامس، مجموع الرسائل، ص٨٩.

[١٤٢] حسن البنا، مجموع الرسائل، ص١٩٩.

[١٤٣] الآمدي، غاية المرام في علم الكلام، ص ٣٦٣.

[١٤٤] الإيجي، المواقف، ص ٣٩٥.

[١٤٥] أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ٢٣٤.

[١٤٦] التفتازاني، شرح المقاصد، ج ٢، ص ٢٧١.

[١٤٧] د. صبري محمد خليل، أستاذ فلسفة القيم الإسلامية بجامعه الخرطوم، جماعة الإخوان المسلمين: أصولها الفكرية والمواقف المتعددة منها، https://drsabrikhalil.wordpress.com/2013/08/02/.

فكيف إذا كان خارجًا عن سواء الطريق؟[١٤٨]".. أمّا ما ذكره المحقّق في هامش الكتاب: "نجد هذا المعنى الجليل في الأبكار٢/٢٦٢ ب، والاقتصاد للغزالي ١٣٤، وفي شرح الطحاوية ٣٩٨-٣٠٤، وكنموذج لما يجره الغلو في مسألة الإمامة انظر ما ذكره البغدادي في أصول الدين ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٩٨، ٣٠٩، والقاضي عبد الجبار في المغني ٢٠/١١ – ١٥ وانظر ضحى الإسلام ٢١٢/٣، والفصل لابن حزم ١٠٨/٤[١٤٩]".

١٧– الغلوّ في طاعة أمير الجماعة والغلوّ في حياة العسكرية: "وأريد بالطاعة: امتثال الأمر وإنفاذه توًا في العسر واليسر والمنشط والمكره[١٥٠]"، "ونظام الدعوة –في هذه المرحلة– صوفي بحت من الناحية الروحية، وعسكري بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، وتمثّل الكتائب الإخوانية هذه المرحلة من حياة الدعوة"، "هل هو مستعد لاعتبار الأوامر التي تصدر إليه من القيادة في غير معصية طبعًا قاطعًا لا مجال فيها للجدل ولا للتردد ولا للانتقاص ولا للتحوير مع إبداء النصيحة والتنبيه إلى الصواب؟ هل هو مستعد لوضع ظروفه الحيوية تحت تصرف الدعوة؟ وهل تملك القيادة في نظره حق الترجيح بين مصلحته الخاصة ومصلحة الدعوة العامة؟[١٥١]".

١٨– الغلوّ والتطرّف في السلوك والممارسة واستخدام العنف وإنشاء فرع سرّي خاصّ، عُرف باسم التنظيم السرّي أو النظام الخاصّ، ولقد تورّط هذا التنظيم الخاصّ المسلّح في ارتكاب العديد من عمليات العنف والاغتيال، وقد أجمعت كُتب ومصادر الجماعة على القيام بهذه العمليات، (يُرجع لكتب الإخوان التاريخية ومذكّراتهم الشخصية: أحداث صنعت التاريخ محمود

---

[١٤٨] أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي، غاية المرام في علم الكلام، ص٣٦٣.

[١٤٩] أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي، هامش المرجع السابق، ص٣٦٣.

[١٥٠] حسن البنا، رسالة التعاليم، مجموع الرسائل، ص٢٢٧.

[١٥١] حسن البنا، مجموع الرسائل، ص٢٢٩.

عبد الحليم، وحقيقة التنظيم السري محمود الصباغ، ونقط فوق الحروف أحمد عادل كمال، وصفحات من التاريخ، وحصاد العمر صلاح شادي)، وكلها اعترفت بتنفيذ عمليات اغتيال الخازندار والنقراشي ومحاولة نسف دولاب محكمة الاستئناف، ومحاولة اغتيال إبراهيم عبد الهادي، وحرب الأوكار!

المبحث الثالث: أبو الأعلى المودودي وكتاب المصطلحات الأربعة في القرآن

سنعرض إلى الأفكار الرئيسية التي يطرحها الشيخ أبو الأعلى المودودي، والتي يؤسّس من خلالها ليس لفكره فقط، ولكن لقواعد الجماعة الإسلامية الهندية، إذ اعتبر الشيخ هذه الرسالة بمثابة دستور لها، حيث تزامن نشرها في كتاب مع إعلان تأسيس تلك الجماعة. ونعقّب عليها بملاحظات مختصرة، ثمّ نعرض لنقدها العلمي من جانب العلماء والأكاديميين.

المطلب الأول: أفكار وأطروحات المودودي

أولا: النزعة المتطرّفة إلى التكفير، وتجهيل أغلبية المسلمين، واتهامهم بجهل معاني كلمات القرآن الكريم، بل وأنّ أهل الجاهلية كانوا أعرف من مسلمي زمانه بالقرآن ومصطلحاته، "ومن هنا يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الإسلامية أنه قد أخلص دينه لله، والحق أن أغلبيتهم لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشتمل عليها كلمة الدين[١٥٢]".

ثانيًا: النزعة المتطرّفة إلى تسييس أغلب معاني الإسلام.. "والحكم والسُلطة لا يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم البتة، فالذي يعتقد أن أمر كائن ما من دون الله مما يجب إطاعته والإذعان له بغير سلطان من عند الله، فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله، وكذلك الذي يدعي أنه مالك الملك، والمسيطر والقاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السياسية، فإن دعوه هذه كدعوى الألوهية ممن ينادي بالناس: إني وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم. ويريد بكل ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية، ألم ترَ أنه بينما جاء في

[١٥٢] أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب محمد كاظم سباق، (ط٥، دار القلم، ١٩٧١)، ص١١.

القرآن أن الله تعالى لا شريك له في الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك، مما يدل دلالة واضحة على أن الألوهية تشتمل على معاني الحكم والملك أيضًا، وأنه مما يستلزمه توحيد الإله ألا يشرك بالله تعالى في هذه المعاني كذلك[١٥٣]"، "بل هو كذلك مالك الأمر والنهي، وذو القوة والسُلطة القاهرة بالمعاني السياسية والمدنية.[١٥٤]"، "ومِن ذلك نرى أنه ما زالت الأُسر الملكية في مصر وغيرها من الأقطار الجاهلية تذهب ألوهيتها بذهاب سلطانها السياسي، وقد بقيت الألوهية تتبع العرش في تنقله من أيد إلى أخرى.[١٥٥]"، وهكذا يحكم على حكّام مصر في عام ١٩٤٠، وغيرها أيضًا بأنّها أقطار جاهلية، واصفًا الأُسر المالكة –الحكومات– والشعب الممثّل للقُطر بالجاهلية!

"وأما المعنى الذي يدل على أن الرب هو مالك الأمر والنهي وصاحب السُلطة العليا، ومصدر الهداية والإرشاد، ومرجع القانون والتشريع، وحاكم الدولة والمملكة وقطب الاجتماع والمدنية، فكانت له عندهم دلالة أخرى متباينة: وبموجب هذا المفهوم كانوا إما يعتقدون أن النفوس الإنسانية وحدها ربًا من دون الله، وإما يستسلمون لربوبية تلك النفوس في الأخلاق والمدنية والسياسة مع كونهم يؤمنون إيمانًا نظريًا بأن الله هو الرب، هذا هو الضلال الذي ما زالت تبعث لحسمه الرسل عليهم السلام من لدن فجر التاريخ، ولأجل ذلك بعث الله أخيرًا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت دعوتهم جميعًا أن الرب بجميع معاني الكلمة واحد ليس غير، وهو الله تقدست أسماؤه، والربوبية ما كانت تقبل التجزئة ولم يكن جزء من أجزائها ليرجع إلى أحد من دون الله، وأن نظام الكون مرتبط بأصله ومركزه وتوثيق الارتباط، قد خلقه الله الواحد الأحد، ويحكمه الفرد الصمد، ويملك كل السلطة والصلاحيات فيه الإله الفذ الموَحد..... وربكم في شؤون المدنية والسياسة والأخلاق، ومعبودكم ووجهة ركوعكم وسجودكم، ومرجع دعاءكم، وعماد

---

[١٥٣] أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص٣١-٣٢.
[١٥٤] أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص٧٠.
[١٥٥] أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص٧١.

توكلكم، والمتكفل بقضاء حوائجكم، وكذلك هو الملك ومالك المُلك، وهو الشارع والمقنن، وهو الآمر الناهي[١٥٦]".

ولا شكّ عند المسلمين أنّ الله –تعالى– له المُلك وله الحكم، بمعنى التقدير، أو ظواهر ما فوق الطبيعة –بعبارة الشيخ– كما له التشريع المطلق، لكنّ المولى –عزّ وجلّ– أجمل في كتابه القواعد العامة للتشريع، أو بيّن سبحانه وتعالى الأمور العُليا الكلّية للتشريع، ثمّ ترك التفصيلات للبشر يباشرون فيها اجتهادهم وإبداعهم البشري، كما أنّ إضفاء صفات مثل صاحب السُلطة العليا، وحاكم الدولة والمملكة وقُطب الاجتماع والمدنية، صفات لم يصف المولى –عزّ وجلّ– بها نفسه، تقدّست أسماؤه في صفاته العلى، ولا هي تناسب مقام الألوهية التي هي أكبر من كل هذه المعاني السياسية الأرضية، ويكفي للتدليل على علوّ مقام الله وتنزيهه في هذا المقام، قوله تعالى: "**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**" آل عمران٢٦.

ثمّ يستطرد الشيخ أبو الأعلى في شرح نظرياته عن الحاكمية ومركزيتها في العقيدة الإسلامية، فيقول: "يتبين للقارئ أن القرآن يجعل الربوبية مترادفة مع الحاكمية والملكية، sovereignty، ويصف لنا الرب بأنه الحاكم المطلق لهذا الكون ومالكه وآمره الوحيد لا شريك له، وبهذا الاعتبار فهو ربنا ورب العالم بأجمعه ومربينا وقاضي حاجاتنا، وكفيلنا وحافظنا ووكيلنا..... والصلة بشخصيته المركزية تسلك شتى الأفراد والجماعات في نظام الأمة[١٥٧]". لا يكتفي الشيخ أبو الأعلى في تلك العبارة بالغلوّ في قضية الحاكمية، لكنّه أيضًا يحمل تصوّرًا عن الله – سبحانه وتعالى– العليّ القدير، لا يختلف كثيرًا عن تصوّر الناس المفتونين بملوكهم وزعمائهم، فهو يصف المولى –عزّ وجلّ– وصفًا يجلّ الله عنه علوًّا كبيرًا، فيقول "والصلة بشخصيته

[١٥٦] أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.
[١٥٧] أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص٩٣.

المركزية تسلك شتى الأفراد والجماعات"، كل ما أرجوه للشيخ أن يكون ما يقصده في تلك العبارة (ذاته العَليّة، بدلا من شخصيته المركزية) وأن يكون الخطأ خطأ الترجمة من اللُغة الأصلية، لكنّه يظل قادحًا في تصوّر الشيخ لمقام المولى –جلّ في علاه–!

ثمّ يقول: "ومعنى الطاغوت في إصطلاح القرآن –كما سبقت الإشارة إليه– كل دولة أو سلطة وكل إمامة أو قيادة تبغي على الله وتتمرد، ثم تنفذ حكمها في أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالإكراه أو بالإغراء أو بالتعليم الفاسد، فاستسلام المرء لتلك السلطة وتلك الإمامة والزعامة وتعبده لها ثم طاعته إياها –كل ذلك منه عبادة– ولا شك– للطاغوت![١٥٨]"، "فأنت ترى أن كلمة الدين في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله، يتركب من أجزاء أربعة هي: ١– الحاكمية والسلطة العليا. ٢ – الإطاعة والإذعان لتلك الحاكمية والسلطة. ٣– النظام الفكري والعملي المتكون تحت سلطان تلك الحاكمية. ٤–المكافئة التي تكافئها السلطة العليا على اتباع ذلك النظام والإخلاص له أو على التمرد عليه والعصيان له.[١٥٩]"، "وقد أمر الله المؤمنين بدين الإسلام أن يقاتلوا من في الأرض ولا يكفوا عن ذلك حتى تمحي الفتنة، وبعبارة أخرى حتى يمحي جميع النظم القائمة على أساس البغي على الله، وحتى يخلص لله تعالى نظام الإطاعة والعبدية كله.[١٦٠]"، جاء قوله هذا في تفسير قوله تعالى: "**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**" الأنفال٣٩.

وما جاء في تفسير الشيخ المودودي لهذه الآية الكريمة، يشكّل فهمًا مخالفًا لكل كتب التفسير التي أجمعت تقريبًا على أنّ المقصود بالفئة المأمور بقتالها هنا هم مشركو قريش، وذلك في أعقاب غزوة بدر، وأنّ القضية تتعلّق بمنطقة الحجاز، بل وتتعلّق بالمحاربين من المشركين،

[١٥٨]أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص١٠١.
[١٥٩]أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص١٢٠.
[١٦٠]أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص١٢٠.

فالقتال واجب لمجابهة اعتداء المقاتلين، لا لعقيدتهم.. ورد هذا المعنى في تفسير الآية الكريمة في (الطبري، والقرطبي، والسعدي، والبغوي، وابن كثير)، لكنّ المودودي يعلن من خلال تفسيره للآية الكريمة حربًا على العالم كلّه بكل أنظمته، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وكأنّ المسلمين سيقاتلون العالم كله حتى يُسلم كل من فيه، وقد غفل عن قوله تعالى: "**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**" هود١١٨. ثمّ يختم الشيخ المودودي رسالته بهذه الجملة السياسية الانقلابية الكاشفة، فيقول في تفسير قوله تعالى "**إذا جاء نصر الله والفتح**" النصر١: "قد خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم حين تم الانقلاب الإسلامي بعد الجهد والكفاح المستمر، مدة ثلاث وعشرين سنة، وقام الإسلام بالفعل بجميع أجزائه وتفاصيله نظامًا للعقيدة والفكر والخُلق والتعليم والمدنية والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وجعلت وفود العرب تتتابع من نواحي القطر وتدخل في حظيرة هذا النظام، فإذ ذاك وقد أدى النبي رسالته التي بعث لأجلها يقول له الله تعالى: إياك أن تظن أن هذا العمل الجليل الذي قد تم على يديك من كسبك ومن سعيك، فيدركك العجب به، وإنما المنزه عن النقص والعيب والمنفرد بصفة الكمال هو ربك وحده، فسبح بحمده واشكره على توفيقه إياك للقيام بتلك المهمة الخطيرة[١٦١]"، هكذا فإنّ دين الشيخ أبو الأعلى المودودي دين لا روحانية فيه، وإنّما هو سياسة وحاكمية وانقلاب، وحرب من أجل سُلطة الرب!

ثالثًا: تشديد متطرّف على نظرية الانقلاب: "من أجل ذلك حاول الأنبياء إحداث الانقلاب السياسي، فاقتصرت جهودهم بعضهم على تهيئة الأرض، كسيدنا إبراهيم عليه السلام، وقام بعضهم فعلا بحركة الانقلاب، ولكن عملهم قد توقف دون أن يتحقق تأسيس الحكومة الإلهية

[١٦١] أبو الأعلى المودودي، المرجع السابق، ص١٣٠.

كسيدنا المسيح عليه السلام، وبعضهم وصلوا بهذه الحركة إلى منزل النجاح، كسيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.[١٦٢]"!

المطلب الثاني: نقد هذا الفكر السياسي الانقلابي الغالي المتطرّف بواسطة أهل العلم

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه التفسير السياسي للإسلام، وهو الكتاب الذي كتبه الشيخ لتفنيد أفكار أبي الأعلى المودودي:

١-"ولم يقدم المؤلف إلى هذا البحث إلا حين عرف وعاشر كثيرًا من الذين تخرجوا في المدرسة الفكرية التي تقوم على كتابات الأستاذ المودودي وحدها، وتعتمد على فهمه للدين وتفسيره له، ورضعوا بلبانها، ونشأوا في أحضانها، لا يدينون في ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية أخرى -بمعنى المدرسة الواسع- أو لمكتبة إسلامية أخرى -بمعنى المكتبة الواسع- وإذا كان لهما نصيب في عقليتهم وثقافتهم الدينية، فهو نصيب ضئيل سطحي، وأفزعته اتجاهات فكرية، وفهوم وتفسيرات للدين بدت طلائعها في الحديث والكتابة، والفكر والتأليف، والعمل والتطبيق، وخاف أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين، والعاملين لمجد الإسلام المخلصين، من أصحاب الهمة العالية، والنظر البعيد، والإيثار وروح التضحية، في خدمة الإسلام والمسلمين، على منهج يختلف عن المنهج الإسلامي الأول في الروح والدوافع، والنفسية والعقلية، والأهداف والغايات، والمثل والقيم، ويضعف ما جاهد له الرسول وأصحابه، من إخلاص الدين لله، والعمل للآخرة، وروح الإيمان والاحتساب، المسيطرة على الحياة كلها السارية في الأعمال والتصرفات بأسرها

[١٦٢] أبو الأعلى المودودي، التجديد وإحياء الدين باللغة الأردية، (توزيع مكتبة الجماعة الإسلامية بالبنجاب)، ص٢١، نقلا عن أبي الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، ص١٠٣.

ويتحول هذا الكفاح إلى مجرد تنظيم جماعي، أو محاولة الحصول على الحكم والسلطان للمسلمين، وقد يكون تحولا لا رجعة بعده إلى الأصل والمصدر، كما جرب ذلك مرارًا في تاريخ الأديان والفرق، والدعوات والحركات، فأقبلنا –مضطرين علم الله– على التنبيه على هذا الخطر ولو كان غامضا أو بعيدا[١٦٣]".

٢- "وهل يسوغ لعاقل أن يعتقد أن ذلك الكتاب، الذي نص القرآن مرارًا وتكرارًا وفي قوة وشدة وإلحاح، على إبانته ووضوحه وكونه سهلا سائغًا للفهم –عجز عن تفهيم مصطلحاته الأربعة– التي يدور حولها نظامه الاعتقادي والعملي والدعوي وتقريب معانيها الحقيقية ومفاهيمها الأصلية إلى العقول والأذهان؟![١٦٤]"، "الاقتصار على حاكمية الإله والرب، ومحور المصطلحات القرآنية الأربعة الأساسية عند الأستاذ المودودي وفكرتها المركزية الأساسية هي حاكمية الإله والرب أما الدين والعبادة فهما فيما يراه طريقان يؤديان إليها[١٦٥]".

٣- ويقول المستشار حسن الهضيبي، في رسالته الشهيرة دُعاة لا قضاة: "وقد توهم البعض أن قائل تلك المقالة يرى استحالة أن يأذن الله تعالى للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التي تنظم جانبًا من شئون حياتهم[١٦٦]"، "والحق أن الله عز وجل قد ترك لنا كثيرًا من أمور دنيانا ننظمها حسبما تهدينا إليه عقولنا في إطار مقاصد عامة وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها. وبشرط ألا نحل حرامًا أو نحرم حلالا..... أما المباحات: فإن للمسلمين أن يسنوا فيها من الأنظمة –التي قد تتخذ شكل قرار أو لائحة أو قانون– ما تقتضيه الحاجة تنفيذًا لنصوص وردت بضرورة تحقيق مقاصد عامة. ومن هذا القبيل قوانين تنظيم الشورى التي أمر الله تعالى بها: "**وأمرهم شورى بينهم**" "**وشاورهم في الأمر**" وأيضًا قوانين تنظيم المرور في الشوارع العامة، وقوانين الوقاية

---

[١٦٣] أبو الحسن علي الحسني الندوي، التفسير السياسي للإسلام، ص١٨-٢٠.
[١٦٤] أبو الحسن علي الحسني الندوي، المرجع السابق، ص٣٨.
[١٦٥] أبو الحسن علي الحسني الندوي، المرجع السابق، ص٦٣.
[١٦٦] المستشار حسن الهضيبي، رسالة دعاة لا قضاة، نسخة www.daawa-info.net، ص٣٥.

الصحية، وقوانين مقاومة الآفات الزراعية، وتنظيم استعمال مياه الري، وقوانين التعليم، وقوانين تنظيم المهن المختلفة كالطب والهندسة والصيدلة، وتحديد الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يزاولها، وقوانين تنظيم الإدارات والمصالح وتحديد اختصاصاتها وسلطات كل منها، وتنظيم الجيش وتحديد الشروط التي يجب توافرها فيمن يلتحق به وفي ضباطه وصف ضباطه. وقوانين شروط بناء المساكن بما يحقق سلامتها وتوافر الشروط الصحية فيها، والقوانين المتعلقة بالشروط اللازم توافرها في المصانع المختلفة كل على حسب طبيعة العمل فيها، وقوانين تنظيم المحال العامة... إلخ إلى ما ماثل ذلك. ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات تنظيم المرور في هذه الحالة من تشريع الله تعالى عز وجل، إنما هي من تشريعنا واجتهادنا تنفيذًا لمقصد عام. أمرنا الله تعالى به. وهي تشريعات وقوانين تتبدل وتتغير حسبما تقتضيه الحاجة بتغير وسائل المواصلات..... وفي هذا كفاية لإبطال قول من زعم أن "التشريع صفة من صفات الله عز وجل وأن من وضع تشريعًا فقد انتزع لنفسه إحدى صفات الله عز وجل وجعل نفسه ندًا لله تعالى خارجًا على سلطانه". وما بناه على ذلك من أحكام إلا أن يكون المقصود بالتشريع التحليل والتحريم. فهذا بلا ريب مما اختص الله تعالى به نفسه[١٦٧]"، "واعتقاد عامة الناس أن لأولي الأمر حق إصدار القوانين ووضع التنظيمات التي تنظم جوانبًا من حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بناء على نصوص من القرآن الكريم والسنة الشريفة. اعتقاد ليس فيه أيضًا شبهة الكفر والشرك. بل هو اعتقاد في أصله حق[١٦٨]".

٤- ويقول أبو الحسن الندوي متسائلا: "هل الصلة بين العبد والرب هي صلة الحاكم والمحكوم فحسب؟[١٦٩]"، وفي محاولة منه للإجابة وبعد شرح مستفيض يقول: "ومهما كان ذلك نتيجة

---

[١٦٧] المستشار حسن الهضيبي، المرجع السابق، ص٣٥-٣٦.
[١٦٨] المستشار حسن الهضيبي، المرجع السابق، ص٣٩.
[١٦٩] أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص٧٧.

لازمة للإيمان بالله والدخول في حظيرة الإسلام، ومهما كانت طبيعة الإسلام تقتضيه اقتضاءً طبيعيًا، فإنه جزء صغير بالنسبة إلى صفات الله وذاته، وصلته بعباده، وصلة عباده بنفسه، وليس هو كل شيء كما يظنه هؤلاء السادة، والواقع أن صلة الخالق والمخلوق والعبد والمعبود هي أشمل وأوسع وأعمق وأدق، بكثير وكثير من صلة الحاكم والمحكوم، والآمر والمأمور والسلطان والرعية، وقد لهج القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته في بسط وتفصيل وأسلوب شيق جميل، لا يدلان أبدًا على أن المطلوب من العبد هو الإيمان بمجرد حاكميته المطلقة والإذعان لسلطته العليا، وأن لا يشرك آخرين معه في سلطته، اقرأ على سبيل المثال الآيات التالية من آخر سورة الحشر: **(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ*هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ*هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** الحشر٢٢–٢٤، مقتضى الأسماء والصفات والأفعال الإلهية: إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الإلهية التي زخر القرآن الكريم بذكرها تتطلب في صراحة أن يحب العبد إلهه وربه بقلبه وقالبه، وأن يتفانى في طلب رضاه، وأن يتغنى بمجده ويسبح بحمده، وأن يلهج بذكره قيامًا وقعودًا، وأن يكون ذلك هو شغله الشاغل وهمه الوحيد، وأن يظل خائفًا منه، فزعًا من بطشه وقهره، وجلا من غضبه وسطوته، ملتجئًا إليه في كل حال، مادًا إليه يد السؤال، متضرعًا إليه بإلحاح وإقبال، متطلعًا إلى جماله الذي هو مصدر الحسن والإحسان ومنتهى الفضل والكمال، تملكه عاطفة البذل في سبيله بكل ما عنده من نفس ونفيس، وغالٍ ورخيص، والذين حصروا صفات الله وحقوقه في حق الحاكمية والسلطة العليا وحده ورأوه أصل الحقوق الإلهية، وأول المطالب الربانية، أخاف أن يكون قد صدق عليهم قول الرب تبارك وتعالى **(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)** الزمر٦٧، إن القرآن الكريم قد استخدم التفصيل والتوسع في ذكر الصفات وإثباتها،

وذلك لأن الحب العميق والانجذاب الكامل، والعشق المتيم، لا يتأتى بدون الاطلاع على الصفات اطلاعًا دقيقًا والإحاطة بها إحاطة شاملة، وتتجلي مظاهر هذه الصفات في حياة الأنبياء وأعمالهم وسيرتهم وسلوكهم، ولا سيما في أعمال سيد الأنبياء وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه وتربيته، وفي كيفية صلاته وقيامه، وفي دعائه والتجائه وابتهاله وتضرعه وإنابته وإخباته، وحبه وحنينه وتشوقه لذات الله، وإمعانه في الذكر والعبادة، والاستراحة إليهما والتذوق والتحلي بهما، كما تتجلى في حياة صحابته الكرام وأتباعهم العظام، والبررة والصالحين والعلماء الربانيين في الأمة، وكان ذلك كله ناشئًا من أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله كالحاكم الأعلى والسلطان العام فحسب، بل كانوا يرونه بجانب كونه معبودًا وربًا محبوبًا حقيقيًا، وموضع الحب الأصيل، ومنتهى الجلال والجمال، والفضل والكمال.[١٧٠]"، "لكن عبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى، بغاية المحبة له.[١٧١]"، "الإله هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك[١٧٢]"، وتدل عبارته الأخرى دلالة صريحة على أن الصلة بين العبد والمعبود ليست هي صلة الحاكم بالمحكوم وحدها بل الأولى أوسع من الثانية بدرجات كثيرة، وأجمع وأشمل، فهي تشمل المعرفة والإنابة والمحبة والإخلاص والذكر، وما إلى ذلك، على حين يكفي للحاكم مجرد الخضوع والتذلل، والطاعة والانقياد.[١٧٣]"، "إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في

---

[١٧٠] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٧٨-٨١.

[١٧١] شيخ الإسلام ابن تيمية، العبودية، (المكتب الإسلامي، ١٩٦٣)، ص٦. نقلا عن أبي الحسن الندوي التفسير السياسي للإسلام، ص٨١.

[١٧٢] شيخ الإسلام ابن تيمية، المرجع السابق، ص١٣.

[١٧٣] أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص٨٢.

الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به[١٧٤]"، ويقول وهو يتحدث عن هذه العبادة: "ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة، بدون ذلك بحال، بل من أعرض عن ذكر ربه، فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى، ما أعظم الفرق وأعمقه بين تعريف الإله هذا، وبين التعريف الذي يجعل الحاكمية والسلطة العليا التي ترجمها الأستاذ المودودي نفسه "sovereign" ملاك الأمر في باب الألوهية، وإذن فمن الواضح أن هذا الإله الرسمي لا يحتاج الإنسان بصدده إلى الحب ولا الإكثار من الذكر، بل يكفيه مجرد الطاعة الكاملة والولاء والإخلاص[١٧٥]".

٥ – ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "ومن يقصر مطالعته على هذه المقالات والكتابات وحدها، ويعيش فيها ويتنفس في جوها، ويتغذى بها عقليًا وفكريًا، تتأكد في نفسه أولوية الإشراك في الحكم وأهميته طبيعيًا وتتضاءل عنده شناعة الإشراك في العبادة –إذا لم يكن له نصيب من تعليم ديني قائم على أساس الكتاب والسنة ولم تفعل فيه العوامل والمؤثرات الثقافية والتربوية الأخرى– والاعتقاد في أحد في دائرة ما بعد الطبيعة، بأنه موضع العبادة والاستعانة، والتضرع والدعاء، والسجود والخضوع، وما إلى ذلك من مظاهر غاية التعظيم والتقديس، أو يرى أن ذلك كله من خصائص الجاهلية القديمة البدائية حيث كان العقل البشري في مرحلة الطفولة، وكان العلم والثقافة والمدنية لا تزال في المراحل الأولى، وأما الآن فقد تقدم الزمان، فإن تركيز العناية عليه والتصدي لمقاومته ومحاربته، معناه إضاعة الوقت والجهد، وجهاد في غير جهاد، وانصراف عن الأهم إلى غير الأهم. وبالعكس من ذلك نرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان ومكان، وفي كل بيئة، هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وأنه

---

[١٧٤] شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٣٨١هـ، ج١)، ص٢٣.
[١٧٥] أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص٨٣.

النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده.[١٧٦]"، "وكل من له صلة بالقرآن –وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة– يعرف اضطرارًا وبداهة أن القضاء على هذه الوثنية، والإنكار عليها ومحاربتها، وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم، حولها يدندنون، ومنها يصدرون، وإليها يرجعون، ومنها يبدأون وإليها ينتهون.[١٧٧]"، "ثم إن هذه النظرية، نظرية أن مظاهر الشرك الجلي المتقدم ذكره، من خصائص الجاهلية الأولى الساذجة، إساءة إلى دعوة الأنبياء وجهودهم، وشك في خلود القرآن، وأنه هو الكتاب الأخير الدائم، ولا شك في أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى، والذي كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأي منهاج من مناهج الإصلاح[١٧٨]".

٦–الاستخفاف بشأن العبادات التي افترضها الله –تعالى– على عباده، وكثرة الذكر، "فيما تدل عليه كتاباته شأن العبادات وأعمالها ومظاهرها وشعائرها، التي شرعتها الشريعة، ودعا إليها الدين، وأحبها النبي حبًا يفوق الوصف، وجاءت عشرات من الآيات القرآنية ومئات من الأحاديث النبوية، ترغب فيها، وتنوه بشأنها، وتشيد بذكر فضائلها، وتحرض على التنافس فيها، وتثني على المكثرين منها والمعنيين بها، وتندد بالراغبين عنها أو المقصرين فيها.[١٧٩]"، بينما يصوّر المودودي، العبد الذي يكثر من النوافل بعد النوافل ويكثر من ذكر الله آلاف المرات، ويتلو كتاب الله المرة تلو المرة، بالخادم الذي يقف أمام سيده خاشعًا متخذًا وضع الركوع والتسليم، يأمره سيده بأن يذهب ليؤدّي حق فلان فلا يبرح مكانه ولكنّه

[١٧٦] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٨٥-٨٦.
[١٧٧] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٨٦.
[١٧٨] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٩٤.
[١٧٩] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٩٥.

يظل يردّد اسم صاحبه عشرات المرات، ويأمره سيده أن اذهب فاقطع يد السارق فيظل جاثيًا أمام سيده يردّد: اقطع يد السارق.. اقطع يد السارق.. دون أن ينتقل من مكانه أو ينفذ أمر سيده![١٨٠]، ويقول أبو الحسن الندوي، مستنكرًا هذه الاستهانة بالعبادات والذكر: "وظل هؤلاء الأعلام منذ الإمام الحسن البصري رحمة الله عليه إلى يومنا هذا ينبهون المسلمين، ويدعونهم دعوة حثيثة إلى هذه الحقيقة، ويقولون لهم: **(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)**، لكنهم لم يتخذوا قط في التركيز على هذا الجانب الأهم أسلوبًا يتسم باستهانة بقيمة الاشتغال بهذه العبادات والأذكار، والإكثار من التسبيح والتحميد والتلاوة، ولا سيما في هذا العصر الذي طغت فيه المادة على الروح، وبدأت تقل تلقائيًا أهمية الإكثار من العبادة والذكر، وأصبح الأسلوب المادي والسياسي يفرض سيطرته على الحياة، فكم كان يتحتم التحفظ، وملاحظة الدقة والحكمة لدى الحديث عن مثل هذا الموضوع الدقيق الحساس[١٨١]"، ويضيف: "وعلى العكس من ذلك نجد القرآن الكريم يرغب مرة بعد أخرى في الإكثار من هذه الأعمال، ويثني على المكثرين منها، وينوه بشأنهم، ويلهج بذكرهم في معرض المدح والثناء[١٨٢]".

٧- وعن الاعتقاد بمجرد حاكمية الإله، وسلطة الرب وتأثيره النفسي، يقول أبو الحسن الندوي: "إن هذا المنهج من التفكير، وهذا الأسلوب الكتابي -الذي قد أسلفنا نماذج منه- يشكل ظاهرة خطيرة وقد بدت آثارها، وهي أن الذين يستقون معلوماتهم الدينية من نبع هذا التفسير للإسلام وحده، وتقتصر دراستهم للإسلام على هذه الكتابات وحدها، ستعود علاقتهم مع الله ضيقة، محدودة جافة، جامدة رسمية، فارغة من الكيفيات الداخلية، التي مطلوب من المؤمن أن يتكيف بها، ولا سيما إذا جاء الضغط تكرارًا ومرارًا على أن الهدف الجذري من بعثة

---

[١٨٠] أبو الأعلى المودودي، خطبات باللغة الأردية، الجزء الثالث، ص٦-٧، (توزيع المكتبة الإسلامية المركزية، دلهي)، نقلا عن أبي الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٩٧، بتصرّف واختصار.

[١٨١] أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص٩٨.

[١٨٢] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص٩٩.

الأنبياء، وأن غاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم، هو إحداث التغيير في هذه الحياة الدنيا المحدودة، والقيام بالانقلاب الصالح وتأسيس الحضارة البشرية على الأسس الصحيحة، وإذا جاء التركيز على هذه الناحية بشدة وحدة، وحماس وقوة، وبأسلوب يجعل تصورات الحب الإلهي، والرضا الرباني، والفلاح الأخروي تتضاءل، فمن الطبيعي ومما يتفق والعقل والمنطق والقياس، أن يحيد ركب السعي والعمل عن جادة الإيمان بالغيب، والحنين إلى الآخرة، وطلب رضا الله، والتفاني في حبه، تلك الجادة التي وضعه عليها الأنبياء عليهم السلام، إلى درب طلب الحكم والعز والغلبة والوصول إلى الحكم، وبالتالي إلى المادية المجردة[١٨٣]".

٨- ويتناول الندوي الغاية التي من أجلها شرع المولى -عزّ وجلّ- العبادات، فيقول تعقيبًا على قول المودودي: {"هذه هي الغاية التي من أجلها فرض الإسلام عبادات الصلاة والصوم والزكاة والحج، والتعبير عنها بالعبادة لا يعني أنها هي العبادة ليس غير، بل معنى ذلك أنها تعد الإنسان لتلك العبادة، فكأنها مقررات تدريبية لازمة لها[١٨٤]"، بيان القرآن الصريح وترتيبه الصحيح: إن العبارة المذكورة أعلاه تدل دلالة واضحة على أن العبادات المعينة المشروعة كالصلوات الخمس في الواقع وسائل إلى غاية أخرى، هي طاعة تأسيس الحكومة الإلهية، وإعادة التنظيم إلى الحياة، على حين ينص القرآن الكريم على أن الجهاد والحكومة وسيلة، وإقامة الصلاة هي الغاية، ولندع القرآن يقرر ما هي الغاية وما هي الوسيلة، اقرأوا معي الآيات التالية من سورة الحج: {**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير*الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّه وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ**

[١٨٣] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص١٠١.
[١٨٤] أبو الأعلى المودودي، نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية، ج١، ص١٣، نقلا عن أبي الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام.

اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *الَّذِينَ إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور} الحج ٣٩-٤١، هذه الآيات تدل صريح الدلالة على أن العبادات وأركان الدين، هي حجر الزاوية في نظام الدين كله، يؤاخذ عليها العبد ويحاسب يوم القيامة، أما الأمور الأخرى كإقامة الحكومة الإلهية وتأسيس المدنية الإسلامية على أسس الخير والفلاح فهي وسائل، وفي درجة ثانوية في الدين.[١٨٥]}.

٩- وأمّا تعقيب الندوي على تعريف المودودي لمصطلح الدين، فقد كتب يقول: {"**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**" الشورى١٣، وسياق الآية تدل دلالة مؤكدة على أن المراد به هو الدين بأجزائه وجميع تعاليمه بما فيها العقائد والعبادات والمعاملات، وليس المراد هو مجرد الخلافة والحكومة، والتمكن من السلطة والحاكمية، يقول العلامة الآلوسي في تفسيره الشهير "روح المعاني" في "**أن أقيموا الدين**": أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله، وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون العبد به مؤمنًا، والمراد بإقامته تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، والمواظبة عليه".[١٨٦]}..

١٠- ويوجّه وحيد الدين خان، سهام نقده الشديد للمصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي قائلا في مقدمة كتابه خطأ في التفسير: "إنه انحراف خفي ودقيق، ولكن علماءنا لم يدركوا هذا الفرق، وراحوا يبحثون فيه عن انحرافات كانت في الفرق الضالة السالفة، ولم يكن الأمر كذلك في الواقع.[١٨٧]"، هكذا يحدّد وحيد الدين خان انحراف فكر المودودي وجماعته، بأنّه انحراف جديد ومن نوع خاصّ، وليس كالانحرافات السابقة الصادرة من الفِرق الضالة قبله،

---

[١٨٥] أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص ١٠٤-١٠٧.
[١٨٦] أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص١٤٠-١٤١.
[١٨٧] وحيد الدين خان، خطأ في التفسير، (الطبعة الأولى بالعربية سنة ١٩٩٢)، ص١٣.

وذلك هو منبع الخطورة، أنّه نوع جديد من الانحرافات المنهجية، فكما يقول في موضع آخر: "إن الذين ابتدعوا في الدين بالإضافة إليه أو الانتقاص منه كُثر قبل المودودي، لكنهم جميعًا لم يأتوا بما جاء به، لأن ما طرحه ليس زيادة ولا نقصان في الدين، ولكنه وضع منهجًا خطيرًا لفهم الدين[١٨٨]".

١١- أمّا الدكتور كمال حبيب، فنلخّص نقده الذي وجّهه لرسالة المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي، بعدما استعرض أطروحات الكتاب، ثمّ استعرض النقد الذي وجّهه له الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه التفسير السياسي للإسلام، كما استعرض رأي وحيد الدين خان في نقده لأفكار المودودي، ويَخلُص كمال حبيب في إيجاز شديد إلى:

أ- يكتب المودودي رسالته في ظل الاحتلال البريطاني للهند وفي سياق أغلبية هندوسية هادرة تتسم علاقتها بالأقلية المسلمة بالتوتر والسعي للهيمنة، كما أن المسلمين في الهند من منظوره يتبنون الإسلام التقليدي المفعم بالروح الصوفية التي تبدو للمودودي عائقًا أمام فهم صحيح للدين، ومن ثم فهو يقدم ما يعتبره فهمًا جديدًا للدين من منظور إحيائي مقاطع مع التقاليد من ناحية ويقترح منهجًا انقلابيًا يدعو المسلمين لاتباعه من أجل إقامة ما اعتبره الجوهر الصحيح للدين، وهو إقامة الحكومة الإسلامية وتحقيق حاكمية الله في الأرض عبر جهد دنيوي لا يتوقف من أجل إرساء نظام إسلامي يحقق معني إقامة الدين ونصرته وتطبيقه نموذجًا منظورًا في الواقع والحياة.

ب- اعتبر منتقدو المودودي الذين أزعجهم طريقة فهمه الجديدة للدين بتركيزه علي فكرة الحاكمية واعتبار أن العلاقة بين العبد وربه هي علاقة قائمة علي مفهوم السلطة والسيادة بشكل أساسي، ومن ثم نزع كل سلطة عما عدا الله، واعتبارها شركًا، وهو ما أعاد العلاقات

[١٨٨] وحيد الدين خان، المرجع السابق، من مقدمة الكتاب بتصرّف.

والارتباطات في تركيب النسق الديني الإسلامي بحيث أصبحت فكرة السلطة السياسية والحاكمية هي المفهوم الأصلي الذي تبدو معه بقية أمور الدين من الصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء والصدقة مجرد وسائل لتحقيق هذا الهدف الأسمى وهو تحقيق حاكمية الله في الأرض وإقامة الحكومة الإلهية وفق تعبيره.

ج – أُنتقد المودودي كذلك من قبل وحيد الدين خان في كتاب أسماه "خطأ في التفسير" وطبع في الهند عام ١٩٦٢ وله طبعة ثانية عام ١٩٨٧ ثم طبعته العربية عام ١٩٩٢، وقال: القصد هو البيان الصحيح لتفسير الدين، وهو نوع من التحدي وهذا الكتاب رد على هذا التحدي فما أُلف في مقدمة المصطلحات الأربعة يعلن صراحة أن السلف لم يفهموا الدين فهمًا صحيحًا وأنه لم تقم في التاريخ الإسلامي كله أية حركة حقيقية لتجديد الدين وإن خلاصة تفسير المودودي للدين هو بيان عدم الثقة في تصور السلف عن الدين، وخطأ المودودي كبير ذلك أنه لم يوفق في وضع مختلف أجزاء الدين في مكانها الصحيح، وجداني يقول إن الدين قد جُرح بتفسير المودودي وهذا يكفيني للقيام بالإيضاح والرد[١٨٩].

د – ويضيف د كمال حبيب: محاولة المودودي تغيير فهم الدين إلى مفهوم انقلابي عبر مفهوم الحاكمية السياسية جعله يبدو مؤسسًا لبناء جديد لقضايا الدين تتناقض جذريًا عن تلك التي عرفها المسلمون منذ بعثة النبي، بل إنها تتناقض –وهذا هو الأخطر– عن تلك التي طرحها النبي نفسه وأرادها الله سبحانه من الدين.. فالدين علاقة روحية بالأساس بين العبد وربه تجمع بين المحبة والخشية والتفاعل الحر المستقل المفتوح عبر الدعاء رجاء تحقيق عبودية الله باستلهام رضاه لدخول الجنة، ومن ثم فإن الصلاة والخشوع فيها والدعاء وتحقيق الاقتراب فيها

[١٨٩] وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص١٣.

حين السجود هي أسس الدين، وتتجلى أنوار هذه العلاقة بين العبد وربه في المحيط الذي يعيشه المسلم.

هـ- تحويل المودودي فكرة الحاكمية السياسية على أنها المركز الجديد لفهم الدين يجعل من العبادات أدوات لتحقيق تلك الحاكمية فتصير الصلاة جزءً من مسار لمشروع سياسي ذات طابع دنيوي تعبر عن الانضباط والانخراط في صفوف الجماعة والتنظيم الذي سيحقق في النهاية ذلك المشروع السياسي، مستخدمًا من أجل ذلك كل الأدوات الممكنة بما فيها العنف والتضحيات، وفي الاستغراق للعمل من أجل هذا المشروع بشكل لا يتوانى فيه، فإن روحانية الدين ووظيفة الصلاة والزكاة والتوحيد تتراجع لأجل هدف يبدو واحدًا هو تحقيق مشروع الجماعة السياسي وهو الدولة الإسلامية[١٩٠].

[١٩٠] د. كمال حبيب، الكتب العشرة المؤسسة للعنف، موقع أصوات أونلاين، رؤى، سبتمبر ٢٠٢٠، https://aswatonline.com/2020/09/09.

المبحث الرابع: سيد قطب

أن يُسجن أديب وشاعر وناقد بسبب خلافه مع السلطة في رأيٍ سياسي، ثمّ يُعدم، فإنّ ذلك الأمر يصنع منه أسطورة، لا سيّما إن لم يكن يملك سلاحًا سوى الكلمة، ولم تكن جريمته غير أنّه نشر ما يؤمن به من أفكار! فما بالك إذا كان هذا الأديب الشاعر المفكّر قد نُشرت له عشرات الكتب، وقرأها الملايين من البشر على مرّ أجيال؟ هكذا تتجسّم الأسطورة، فإذا بذلك الناقد الأديب قد رفع راية الإسلام ولواء الدعوة، ثمّ أُعدم مظلومًا –ووجه الظلم أنّ جريمته لم تكن سوى الفكرة والكلمة–، ألا يجعل هذا الملايين تلتفّ حول إنتاجه، وتهتف باسمه؟ ثمّ إذا بهذا الأديب الفذّ والمفكّر العملاق، والداعية الصلب الذي يأبى أن يتنازل عن كلمته ولو مقابل رقبته، عضو في جماعة ينتمي إليها مئات الألوف حول العالم –خاصّة العالم المسلم– ألن يتعصّبوا له ويجعلوه أيقونة خالدة وصاحب فكرة لا تموت؟ ثمّ وإذا بهذا الأديب والمفكّر والداعية يؤسّس لنفسه تنظيمًا يضم المئات من التلاميذ والأتباع الذين أخذوا منه وتتلمذوا على دروسه، ألا يدافع عنه هؤلاء بدمائهم وأرواحهم؟ هذا ما حدث مع سيد قطب، فلم يُحدث اسم دويًّا في عالم الثقافة والفكر والدعوة والتنظيمات الدينية، مثلما أحدث اسم سيد قطب..

هكذا صنعت الظروف والملابسات أسطورة سيد قطب، حتى ليكاد المنتقدون له من كبار العلماء ترتعد فرائسهم ويتحسّسون رؤسهم قبل أن يتجرّؤوا عى نقد أطروحاته وأفكاره، ولا تكاد تلحظ في المواجهة إلا الموتورين والمأجورين، وهؤلاء يثيرون في الغالب الأعمّ شبهات شكلية، ويلفّقون أكاذيب يروّجون لها غير قادرين على النفاد إلى لُبّ الحقائق الدامغة التي تدمغ أطروحات الرجل بالغلوّ والتطرّف، بل والتأصيل لاستخدام العنف.. على أنّ البحث في الأصول الفكرية لتنظيمات الحركة الإسلامية الحديثة والمعاصرة يتجاوز الأسماء وإن كانت فخمة، حولها هالات من نور وقداسة مصنوعة أو طبيعية، والهيئات والكيانات ولو كانت ضخمة ذات صوت

وصيت ودعاية وإعلام.. لأنّ الهدف من البحث هو الوصول إلى الحقائق المجرّدة بعيدًا عن الإدانة أو البراءة لهؤلاء الأشخاص أو تلك الهيئات، فما يهمّ البحث هنا هو مناقشة الأفكار والأطروحات بتجرّد ونزاهة وموضوعية، ما استطاع الباحث إلى ذلك سبيلا.

المطلب الأول: نصوص من كتب الشهيد سيد قطب تحمل تكفيرَ مسلمي اليوم

في هذا الصدد يقول الشيخ يوسف القرضاوي، عن أطروحات سيد قطب حول تكفير الملايين من المسلمين، ومدلول الشهادتين، اللتين لا تعنيان له إلا مفهوم الحاكمية: "هذه الفكرة الخطيرة التي فتحت أبواب التكفير والعنف واستباحة الدماء والأموال من المسلمين، وقامت عليها في أوطاننا الإسلامية جماعات تقاتل قومها، وتحارب أهل وطنها، هي الجديرة بأن يقف العلماء والدعاة في وجهها، ويتصدوا لبيان ما فيها من انحراف عن الأحكام الشرعية المقررة. ويبينوا بطلانها بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مسترشدين بأقوال الأئمة والراسخين من علماء السلف والخلف.[١٩١]"، يفتتح الشيخ القرضاوي شهادته عن كتابات سيد قطب التكفيرية، ثمّ يمضي موضّحًا أنّه سيستشهد من كتبات سيد قطب نفسه، مكتفيًا بمصادر ثلاثة هي: في ظلال القرآن في طبعته الثانية، ومعالم في الطريق، الذي اعتمده منهاجًا لإنشاء العصبة المسلمة الجديدة، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، في الفصل الذي

[١٩١] الشيخ يوسف القرضاوي، القرضاوي وسيد قطب، صفحة الشيخ يوسف القرضاوي على الفيس بوك، ٢٠١٥/٤/٨، https://www.facebook.com/alqaradawy/photos/pb.100050264989034.2207520000./948882738485124/?type=3.

أضافه إليه ليحمل أفكاره الجديدة.. وهناك نصوص أخرى في كتب أخرى، ولكن في النقول من هذه الثلاثة ما يكفي.[١٩٢]

أولا: نصوص من "ظلال القرآن"

وسنكتفي هنا بالاقتباس من سورة الأنعام من الجزء السابع، ومن سورة الأنفال والتوبة من الجزء العاشر، باعتبار أن سورة الأنعام من القرآن المكي، وسورتي الأنفال والتوبة من القرآن المدني.

١- في تقديم سورة الأنعام:

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام، وأن يصوغ تشريعات حياة.. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها، ورفض كل شريعة سواها، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه.. الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة كما يريد له الله.. إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية، ومناهج بشرية. ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.. إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض، تواجه مستقبلا غير موجود.. والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده.. عقيدة تملأ القلب، وتفرض سلطانها على الضمير. عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله. وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك.. كذلك يجب أن يكون مفهومًا لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، "يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة –حتى ولو كانوا

[١٩٢] الشيخ يوسف القرضاوي، المرجع السابق، بتصرّف واختصار.

يدعون أنفسهم مسلمين! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون–" يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادّعاء هذا الحق لأنفسهم.. إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم.. ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة.. هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة.

فإذا دخل في هذا الدين –بمفهومه هذا الأصيل– عصبة من الناس، فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياتها الاجتماعية لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس وألا تحكّم في حياتها كلها إلا الله[١٩٣].

٢– في تفسير "وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ"

"**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**" الأنعام٥٥: إن سفور الكفر والشرك والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح. واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات. ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشًا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم. فهما صفحتان، متقابلتان وطريقان مفترقتان، ولا بد من وضوح الألوان والخطوط.

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين،

---

[١٩٣] سيد قطب، في ظلال القرآن، (ج ٧، ط٢، عيسى الحلبي)، ص٨٧، وكذلك ورد تفسير الظلال في موقع إسلام ويب https://www.islamweb.net/ar/library/index.php?page=bookcontents&ID=346&bk_no=210&flag=1

والعنوان المميز للمجرمين، في عالم الواقع لا في عالم النظريات. فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين.

وهذا التحديد كان قائمًا، وهذا الوضوح كان كاملاً، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية. فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول –صلى الله عليه وسلم– ومن معه. وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين.. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان الله –سبحانه– يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة –ومنها ذلك النموذج الأخير– لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية.. حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك.. لا يجدي معها التلبيس!

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا.. إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام، يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته.. ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسمًا. وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادًا وواقعًا. وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادًا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله.. وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله –وحده– هو خالق هذا الكون المتصرف فيه. وأن الله –وحده– هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله. وأن الله –وحده– هو الذي يتلقى منه العباد

الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله.. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله –بهذا المدلول– "فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد"، كائنًا ما كان اسمه ولقبه ونسبه، "وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله –بهذا المدلول– فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد".. وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين؛ وهم من سلالات المسلمين. وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله –بذلك المدلول– ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول. وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر. أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين؛ واختلاط الشارات والعناوين؛ والتباس الأسماء والصفات؛ والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق! ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعًا وتمييعًا وتلبيسًا وتخليطًا. حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير المسلمين! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله! هذه هي المشقة الكبرى.. وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.. ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة. وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف؛ وألا تقعدهم عنها لومة لائم، ولا صيحة صائح: انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بين.. الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله –بذلك المدلول– فمن لم يشهدها على هذا النحو؛ ومن لم يقمها في

الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين.. المجرمين.. "**وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**" الأنعام٥٥.

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة، ولا يعوّقها غبش، ولا يميعها لبس. فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم «المجرمون».. كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان. وأنهم وقومهم على مفرق الطريق، وأنهم على ملة وقومهم على ملة. وأنهم في دين وقومهم في دين: **(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)** الأنعام٥٥[١٩٤].

٣- في تفسير "**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**" الأنعام٦٥.

وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض. وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها -والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية- وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها؛ "باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذي يؤثرون البقاء في الجاهلية"، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: {**أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض**}.. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديًا وشعوريًا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها -حتى يأذن الله لها بقيام «دار إسلام» تعتصم بها- "وإلا أن تشعر

[١٩٤] سيد قطب، المرجع السابق، ص٢٣٨ – ٢٤٠.

شعورًا كاملاً بأنها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه، جاهلية وأهل جاهلية". وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج؛ وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز، حق عليها وعيد الله هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها. وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد؛ دون أن يدركها فتح الله الموعود!

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم.. لم يقع في مرة واحدة، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة –أي الدين– وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها –أي نظام حياتها– وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعاً[١٩٥].

٤– نص من سورة الأنفال: تعقيبا على آية تقسيم الغنيمة:

"**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ..**" الأنفال٤١، ونحن –على طريقتنا في هذه الظلال– لا ندخل في هذه التفريعات الفقهية التي يحسن أن تطلب في مباحثها الخاصة.. هذا بصفة عامة.. وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعًا إسلاميًا يواجهنا اليوم

[١٩٥] سيد قطب، المرجع السابق، ص٢٦٩.

أصلا. فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها! لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة، ورجع الناس إلى الجاهلية التي كانوا عليها، فأشركوا مع الله أربابًا أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه.. إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.. إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان. والتلقي في هذا الشأن عن رسول الله وحده! وإلى التجمع تحت قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هذا الدين في حياة البشر، والتوجه بالولاء كله لهذا التجمع ولقيادته المسلمة، ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقياداتها جميعًا.

هذه هي القضية الحية الواقعية التي تواجه اليوم هذا الدين، وليس هناك –في البدء– قضية أخرى سواها.. ليس هناك قضية غنائم، لأنه ليس هناك قضية جهاد! بل ليس هناك قضية تنظيمية واحدة، لا في العلاقات الداخلية ولا في العلاقات الخارجية، وذلك لسبب بسيط: هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامي ذو كيان قائم مستقل، يحتاج إلى الأحكام التي تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى!

والمنهج الإسلامي منهج واقعي، لا يشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل، ومن ثم لا يشتغل أصلاً بأحكام تتعلق بهذه القضايا التي لا وجود لها من ناحية الواقع! إنه منهج أكثر جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام! هذا ليس منهج هذا الدين. هذا منهج الفارغين الذين ينفقون أوقات الفراغ في البحوث النظرية وفي الأحكام الفقهية، حيث لا مقابل لها من الواقع أصلا! بدلا من أن ينفقوا هذه الجهود في إعادة إنشاء المجتمع المسلم وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين نفسه: دعوة إلى لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ينشأ عنها دخول فئة في هذا الدين من جديد –كما دخل فيه الناس أول مرة– كما ينشأ عن هذا الدخول في الدين تجمع حركي ذو

قيادة مسلمة وذو ولاء خاص به وذو كينونة مستقلة عن المجتمعات الجاهلية.. ثم يفتح الله بينه وبين قومه بالحق.. ثم يحتاج حينئذ –وحينئذ فقط– إلى الأحكام التي تنظم علاقاته فيما بينه، كما يحتاج إلى الأحكام التي تنظم علاقاته مع غيره.. وحينئذ –وحينئذ فقط– يجتهد المجتهدون فيه لاستنباط الأحكام التي تواجه قضاياه الواقعية –في الداخل وفي الخارج– وحينئذ –وحينئذ فقط– تكون لهذا الاجتهاد قيمته، لأنه تكون لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته!

من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحي الواقعي الحركي لهذا الدين، لا ندخل هنا في تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم؛ حتى يحين وقتها عندما يشاء الله؛ وينشأ المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام[١٩٦]!

٥– ومن تعقيباته على آية الجزية من سورة التوبة:

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم ولا عن مقادير هذه الجزية ولا عن طريق ربطها ومواضع هذا الربط.. ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم، كما كانت معروضة علي عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها. إنها قضية تعتبر اليوم "تاريخية" وليست "واقعية".. إن المسلمين اليوم لا يجاهدون! "ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون! إن قضية "وجود" الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج"!

والمنهج الإسلامي –كما قلنا مرارًا– منهج واقعي جاد، يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء، ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تنطبق في عالم الواقع –لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلمًا تحكمه شريعة الله، ويصرف حياته الفقه الإسلامي– ويحتقر الذين يشغلون

[١٩٦] سيد قطب، المرجع السابق، ج ١٠، ص١٠، ١١.

أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث في أقضية لا وجود لها بالفعل، ويسميهم "الأرأيتيين" الذين يقولون: "أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم؟"

إن نقطة البدء الآن في أول عهد الناس برسالة الإسلام.. أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون الحق، فيشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع، ويطبقون هذا في واقع الحياة.. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان.. –ويومئذ فقط– سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات.. ويومئذ –ويومئذ فقط– يجوز الدخول في تلك المباحث الفقهية، والاشتغال بصياغة الأحكام، والتقنين للحالات الواقعة التي يواجهها الإسلام بالفعل، لا في علم النظريات!

وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية –من ناحية الأصل والمبدأ– فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية، وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامي. وعند هذا الحد نقف، فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احترامًا لجدية المنهج الإسلامي وواقعيته وترفعه علي هذا الهزال.[١٩٧]

---

٦ – في التعقيب على آية "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" التوبة٣١

ومن النص القرآني الواضح الدلالة؛ ومن تفسير رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو فصل الخطاب، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار:

---

[١٩٧] سيد قطب، المرجع السابق، ج ١٠، ص ١٩٠، ١٩١.

أن العبادة هي الاتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم.. ومع هذا فقد حكم الله –سبحانه– عليهم بالشرك في هذه الآية –وبالكفر في آية تالية في السياق– لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها.. فهذا وحده –دون الاعتقاد والشعائر– يكفي لاعتبار من يفعله مشركًا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

أن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادًا وقدموا إليه الشعائر في العبادة. فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركًا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين.

أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده؛ ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته؛ ولا تقديم الشعائر التعبدية له.. كما هو واضح من الفقرة السابقة.. ولكنا إنما نزيدها هنا بيانًا!

وهذه الحقائق –وإن كان المقصود الأول بها في السياق هو مواجهة الملابسات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب– هي كذلك حقائق مطلقة تفيدنا في تقرير «حقيقة الدين» عامة.

إن دين الحق الذي لا يقبل الله من الناس كلهم دينا غيره هو «الإسلام».. والإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده في الشريعة –بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده– "فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله" صح فيهم ما صح في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله –مهما كانت دعواهم في الإيمان– "لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد

اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم، لا طاقة لهم بدفعه"، وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على الله..

إن مصطلح «الدين» قد انحسر في نفوس الناس اليوم، حتى باتوا يحسبونه عقيدة في الضمير، وشعائر تعبدية تقام! وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم –ويقرر تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم– أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله، وأنهم أشركوا به، وأنهم خالفوا عن أمره بألا يعبدوا إلا إلهًا واحدًا، وأنهم اتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله.

إن المعنى الأول للدين هو الدينونة –أي الخضوع والاستسلام والاتباع– وهذا يتجلى في اتباع الشرائع كما يتجلى في تقديم الشعائر. والأمر جد "لا يقبل هذا التميع في اعتبار من يتبعون شرائع غير الله –دون إنكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتئات على سلطان الله– مؤمنين بالله، مسلمين، لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية الله سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر". وهذا التميع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين في هذه الحقبة من التاريخ؛ وهو أفتك الأسلحة التي يحاربه بها أعداؤه؛ الذين يحرصون على تثبيت لافتة «الإسلام» على أوضاع، وعلى أشخاص، يقرر الله سبحانه في أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق، وأنهم يتخذون أربابًا من دون الله.. وإذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص؛ فواجب حماة هذا الدين أن ينزعوا هذه اللافتات الخادعة؛ وأن يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون الله.. **{وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون}**[١٩٨]. ثم يضيف: "والسذج ممن يدعون أنفسهم «مسلمين» يخدعون في هذه اللافتة.. ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض! فيتحرجون من إنزالها عن «الجاهلية» القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها

[١٩٨] سيد قطب، المرجع السابق، ج ١٠، ص٢٠٣–٢٠٥.

هذه اللافتة الخادعة.. صفة الشرك والكفر الصريحة.. ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة لا تحرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة!

بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطرة لحركات البعث الإسلامي كما تقوم حاجزًا دون الوعي الحقيقي، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين[١٩٩]".

هؤلاء السذج –من الدعاة إلى الإسلام– أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين، الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين! إن هذا الدين يغلب دائمًا عند ما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة –في أي زمان وفي أي مكان– والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنًا في أن يكون له أعداء أقوياء وأعوان مدربون بقدر ما يكمن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون، يتحرجون في غير تحرج ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة! إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعًا! وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف وإظهارها على حقيقتها.. شركًا وكفرًا.. ووصف الناس بالوصف الذي يمثل

[١٩٩] راجع محمد قطب، "جاهلية القرن العشرين".

واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة. بل كيما ينتبه هؤلاء أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم – وهي الحقيقة التي انتهى إليها أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير[٢٠٠].

ثانيًا: نص من المعالم:

فقرات من فصل "لا إله إلا الله منهج حياة". يقول: ولكن ما هو "المجتمع الجاهلي"؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته؟

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار "المجتمع الجاهلي" جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلا!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية.. أولا: بإلحادها في الله سبحانه وبإنكار وجوده أصلا، ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى "المادة" أو "الطبيعة"، ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى "الاقتصاد" أو "أدوات الإنتاج". ثانيًا: بإقامة نظام العبودية فيه للحزب –على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة!– لا لله سبحانه!

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية –وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية– تدخل فيه أولا: بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله –معه أو من دونه– وتدخل فيه ثانيا: بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها.. كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع، المرجع فيها لغير الله وشريعته، سواء استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد

[٢٠٠] سيد قطب، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٢١٤، ٢١٥.

والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ، أو استمدتها من هيئات مدنية "علمانية" تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله.

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعًا.. تدخل فيه هذه المجتمعات. أولا: بتصورها الاعتقادي المحرف، الذي لا يفرد الله سبحانه بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك، سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها..

وأخيرًا: يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها "مسلمة!"

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فهي –وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله– تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها.. وكل مقومات حياتها تقريبا!

كما إنه سبحانه قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دونه، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم "مسلمون" لناس منهم! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركًا كاتخاذهم عيسى ابن مريم ربًا يؤلهونه ويعبدونه سواء، فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده، فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة "علمانيته" وعدم علاقته بالدين أصلا، وبعضها يعلن إنه "يحترم الدين" ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلا، ويقول: إنه ينكر "الغيبية" ويقيم

نظامه على "العلمية" باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله! وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

وإذا تعين هذا، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة:

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره.

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها.. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة.. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده، وهي من ثم تلتقي –مع سائر المجتمعات الأخرى– في صفة واحدة.. صفة "الجاهلية"[٢٠١].

ثالثًا: نص من "العدالة الاجتماعية في الإسلام"

قال: نحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع إسلامي تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي.

ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية، على هذا النحو، قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض؛ وأن "وجود" الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك!

ونحن نجهر بهذه الحقيقة الأخيرة، على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا "مسلمين"! . ونجهر بها على هذا النحو في الوقت الذي ندعو فيه إلى استئناف حياة إسلامية، في مجتمع إسلامي، تحكمه العقيدة الإسلامية

[٢٠١] سيد قطب، معالم في الطريق، (طبعة دار الشروق، ١٩٦٨م)، ص٨٨–٩٣.

والتصور الإسلامي كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي. ولا نرى أن في رؤية تلك الحقيقة والجهر بها كذلك ما يدعو إلى خيبة الأمل؛ أو اليأس من هذه الدعوة ومن هذه المحاولة. على عكس نرى أن الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة، حقيقة أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن "وجود" الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك نرى أن الجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام، ومحاولة استئناف حياة إسلامية.. ضرورة لا مفر منها.

إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير "عقيدة". ولا في واقع الحياة "دينًا" إلا أن يشهد الناس: أن لا إله إلا الله. أي لا "حاكمية" إلا لله.. حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعه وأمره، وهذه كلها سواء في كونها أساسًا للعقيدة لا تقوم ابتداء في الضمير إلا به، كذلك هو لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة "دينًا" إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة هو"الدين"، فتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلاً؛ ويبرأ فيه الحاكم والمحكوم من ادعاء حق "الألوهية" عن طريق ادعاء حق "الحاكمية" ومزاولة التشريع فعلاً بما لم يأذن به الله؛ مما يتخذه البشر لأنفسهم من أنظمة وأوضاع وتشريعات وقوانين؛ غير مستمدة من شريعة الله، نصًا حين النص، واجتهادًا –في حدود المبادئ العامة– حين لا يوجد النص. طاعة لأمر الله سبحانه: **(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ..)** النساء٥٩.

ونحن لا نحدد مدلول "الدين" ولا مفهوم "الإسلام" على هذا النحو من عند أنفسنا.. ففي مثل هذا الأمر الخطير، الذي يترتب عليه تقرير مفهوم لدين الله؛ كما يترتب عليه الحكم بتوقف "وجود" الإسلام في الأرض اليوم؛ وإعادة النظر في دعوى مئات الملايين من الناس أنهم "مسلمون".. في مثل هذا الأمر لا يجوز أن يفتي الإنسان فيما يقصم الظهر في الدنيا والآخرة جميعًا!

إنما الذي يحدد مدلول "الدين" على هذا النحو، ومفهوم "الإسلام" هو الله –سبحانه– إله هذا الدين ورب هذا الإسلام.. وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها ولا الاحتيال عليها:

"**وَإِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**" يوسف٤٠.

"**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**" المائدة٤٩.

"**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**" المائدة٤٥.

كلها تقرر حقيقة واحدة، أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده: والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع –مما لم يرد به نص– إذ لا رأي مع النص ولا نزاع، والحكم بما أنزل –دون سواه– في كل شؤون الحياة؛ والرضى بهذا الحكم رضى قلبيًا بعد الاستسلام له عمليًا.. وإن هذا هو "الدين القيم".. وهذا هو "الإسلام" الذي أراده الله من الناس.

وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم –على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام– لا نرى لهذا الدين "وجودًا".. إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة البشر؛ وذلك يوم تخلت عن الحكم بشريعته وحدها في كل شؤون الحياة.

ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة، وأن نجهر بها، وألا نخشى خيبة الأمل التي تحدثها في قلوب الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا "مسلمين".. فهؤلاء من حقهم أن يستيقنوا: كيف يكونون مسلمين!

إن أعداء هذا الدين بذلوا طوال قرون وما يزالون يبذلون، جهودًا ضخمة ماكرة خبيثة، ليستغلوا إشفاق الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا مسلمين، من وقع هذه الحقيقة المريرة، ومن مواجهتها

في النور! وتَحَرُّجُهم كذلك من إعلان أن "وجود" هذا الدين قد توقف، منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة في الأرض عن تحكيم شريعة الله في أمرها كله؛ فتخلت بذلك عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية –[أو بالألوهية]– فهذه مرادفة لتلك، أو لازمة لها لا تتخلف.

هؤلاء الأعداء الماكرون الخبثاء يستغلون ذلك الإشفاق وهذا التحرج لتخدير مشاعر الكثيرين في الأرض، الذين يحبون أن يكونوا "مسلمين" وإيهامهم أنهم ما يزالون "مسلمين" فعلاً! وأن "الإسلام بخير"! وأن الناس يمكن أن يكونوا "مسلمين" دون أن تحكمهم شريعة هذا الدين؛ بل دون أن يعتقدوا أن الحاكمية لله وحده، من ادعاها لنفسه فقد ادعى الألوهية، وكفر، وخرج من هذا الدين وكذلك ينبغي أن نجهر نحن بالحقيقة المقابلة، التي قد يشفق منها الكثيرون ممن يحبون أن يكونوا مسلمين؛ وممن يتحرجون أن يعلنوا أن وجود هذا الدين قد توقف.. لنبطل مفعول "المخدر" الخبيث، الذي يخدر به أعداء هذا الدين محبي هذا الدين![٢٠٢]

إنّنا أمام هذه الأطروحات التي طرحها سيد قطب أمام مجموعة من الأفكار الصادمة التي لا تعد غلوًّا وتطرّفًا في الدين فحسب، بل إنّها تعد انحرافًا صارخًا لفهم الدين، وهو ما عبّر عنه وحيد الدين خان بأنّه انحراف جديد ومن نوع خاص، وليس كالانحرافات السابقة الصادرة من الفرق الضالة قبله، وعبّر عنه كذلك أبو الحسن الندوي بأنّه انحراف عن الذوق الإسلامي الصحيح، يطرح سيد قطب:

١– جاهلية المجتمعات المعاصرة كلها، لأنّها افتقدت بمجموعها أهم خاصية من خصائص الإيمان والمعنى الوحيد الممكن لشهادة (لا إله إلا الله)، وهو معنى الحاكمية الكونية والتشريعية –السياسية– لله –سبحانه وتعالى–.. فلا يوجد اليوم مجتمع مسلم لأنّه لا يوجد مسلمون من الأساس..

[٢٠٢] سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، (الطبعة السابعة ١٩٦٧م)، ص ٢٤٤–٢٤٧.

٢- إنّ المليار مسلم اليوم حول العالم، هم في الحقيقة يسمّون مسلمين أو يسمّيهم العالم مسلمين، وربما كانوا يحبون فعلا أن يكونوا مسلمين، لكنّهم لا يعرفون الطريق الوحيد الممكن الذي يجعلهم في الدنيا والآخرة من المسلمين..

٣- هؤلاء لم يخرجوا من ملّة الإسلام بالمعاصي ولو كانت تلك المعصية هي الإشراك بالله -تعالى- في مقام الحاكمية، وإنما هم ليسوا مسلمين لأنّهم لم يدخلوا الإسلام ابتداءً، لأنّهم لم ينطقوا بالشهادة بمدلولها الوحيد الصحيح..

٤- إنّ سيد قطب كان يؤسّس لقيام الجماعة المؤمنة الأولى بعد تلاشيها من أجل الواقع، فجماعة الإسلام ستبدأ بالعُصبة المؤمنة التي تجتمع بدار سيد قطب، أو تؤمن بأفكاره، أو تأتمر بأوامره..

٥- إنّ حالة غياب المجتمع المسلم تلك حالة مرّت عليها أزمنة طويلة، وليست وليدة اليوم..

٦- إنّه لا مجال اليوم لدراسة دقائق الفقه، فقضايا الفقه باتت في نظر سيد قطب قضايا تاريخية -محنّطة- لا يمكن استدعاؤها، لأنّ المطلوب الأوحد في تلك المرحلة هو تعميق العقيدة، عقيدة وحدانية الله التي لا تعني إلا الحاكمية.

٧- التأسيس لمنهج العزلة الشعورية، والاستعلاء الإيماني على عامة أفراد المجتمع، وهو منهج شديد الخطورة؛ لأنّه يتعامل مع النفوس أكثر من التعامل مع العقول والأفكار، وينتج عنه إنسان انطوائي وجماعات معزولة تشبه (الجيتو)، "هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صِلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية".

٨- حدّية الصدام الفكري ورؤية العالم بكل مشتملاته ودرجاته إمّا مسلم وإمّا مشرك.. لا طبقات داخل مجتمع سيد قطب الإسلامي، فإمّا أن تكون مسلمًا كآحاد صحابة

رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، أو حتى أكثر صلاحًا وفق مقاييس الجيل القرآني الفريد، أو أن تكون مشركًا، كافرًا بالله ورسوله، ليس هناك مسلم فاسق، ولا مسلم عاصٍ، ولا مسلم مقصّر في بعض الواجبات، ولا مسلم غافل ولا مسلم جاهل، ولا منافق يُعلن إسلامه، فحتى طبقة المنافقين التي هي في الدرك الأسفل من النار عند الله في الآخرة، بينما تُعامل في الدنيا معاملة المسلمين وفق منهجية الرسول – صلى الله عليه وسلم– "هلا شققت عن قلبه".. حتى هؤلاء المنافقون لا وجود لهم في منظومة سيد قطب الفكرية.. ألم يقرأ قول الله –تعالى–: "**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**" الحجرات١٤، وقوله تعالى: "**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**" فاطر٣٢، وقوله عزّ من قائل: "**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**" التوبة١٠٢؟!

٩– نجد أنفسنا أمام هذه الأطروحات، أمام حالة فكرية واعتقادية أشدّ غلوًّا وتطرّفًا من حالة الخوارج، فالخوارج رفعوا راية الحاكمية تحت شعار: "**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**".. لكنّ الخوارج كفّروا المسلمين بمسألتين، بتحكيم الرجال في حكم الله، وبالكبائر. أمّا سيد قطب، فلم يُدخل المسلمين ابتداءً في الإسلام، فهم لم يكونوا مسلمين حتى يخرجوا من الإسلام!

المطلب الثاني: موقف علماء الأمّة من أطروحات سيد قطب

ولقد قوبلت هذه الأطروحات برفض واسع من علماء الأمّة، يقول الشيخ يوسف القرضاوي: "وهو هنا لا يتحدث عن الحكّام وحواشيهم، كما يزعم بعض الناس، بل يتحدّث عن (مئات الملايين) من المسلمين، أو ممن يظنون أنفسهم مسلمين، ولذلك وقف جمهور علماء الأمة، بل كل الأمة –إلا عالمًا أو عالمين– ضد هذا التوجه، أذكر من هؤلاء: الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني للإخوان، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق، ود. عبد العزيز كامل، ود. محمد فتحي عثمان، وأ. فريد عبد الخالق، ود. محمد عمارة، ود. محمد سليم العوا، ود. أحمد العسال، ود. حسن الشافعي، ود. حسن الترابي، ود. عصام البشير، ود. أحمد علي الإمام، والشيخ أبا الحسن الندوي، ود. مصطفى السباعي، والشيخ مصطفى الزرقا، ود. وهبة الزحيلي، ود. البوطي، وعامة علماء الأزهر، وديوبند[٢٠٣]، والزيتونة والقرويين، وسائر الجامعات والكليات والمدارس الإسلامية[٢٠٤]".

ولا شكّ لديّ أنّ السادة علماء الأمة رفضوا أطروحات سيد قطب كما رفضوا أفكار المودودي من قبل كذلك، ومع هذا الإجماع الرافض لفكرة التكفير عند قطب والمودودي، إلا أنّنا نلمس في مواقفهم عمومًا تعاطفًا مع المظلومية السياسية التي تعرّض لها سيد قطب، والتي منعتهم جميعًا تقريبًا من الهجوم الحادّ على تلك الأفكار التي تنحرف بفهم الإسلام انحرافًا خطيرًا مؤرّقًا، ذلك لأنّهم خلطوا –ربّما– بين محاكمة الشخص ومحاكمة الفكر، فلانوا في محاكمة الفكر تعاطفًا مع مظلومية الشخص، وتلك نقطة يناقشها البحث باستقلالية في فقرة

---

[٢٠٣] الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، هي أكبر وأقدم جامعة إسلامية أهلية في شبه القارة الهندية، تقع في بلدة ديوبند.

[٢٠٤] يوسف القرضاوي، ملف خاص | مع الأستاذ سيد قطب "محطات تاريخية ووقفات نقدية، الحلقة٦، في التكفير (١ من ٢)، https://www.facebook.com/alqaradawy/photos/pb.100050264989034.-2207520000./948882738485124/?type=3.

لاحقة بعنوان: التطبيع مع الغلوّ والتطرّف.. ولكنّ الذي يعنيننا في هذا المقام إثبات ردود بعض العلماء على تلك الأطروحات المنحرفة في غلوّها وتطرّفها.

١ – يقول كمال حبيب: "وقد بلغ تأثر قطب بأفكار المودودي حدًا كبيرًا لدرجة أنّه أقدم على تنقيح تفسيره "في ظلال القرآن" بناءً علي هذه التحولات الفكرية الجديدة والتي لعب "أبو الأعلي المودودي" المفكر الهندي ثم الباكستاني دورًا كبيرًا في فتح النوافذ مشرعة لها إلي أقصي الحدود.

كان قطب قد وصل إلي قناعة نفسيه وفكرية عميقة ملكت عليه نفسه وروحه بأن هذه المجتمعات قد تفشت فيها الجاهلية حتي أغرقتها، وأن حالها عاد كما كان المجتمع الجاهلي المكي الذي أُرسل إليه النبي (صلي الله عليه وسلم)، ومن ثم تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ فيها الإسلام.

وهو ما قاد في عام ١٩٦٩ إلي صدور كتاب "دعاة لا قضاة" للرد علي أفكار سيد قطب، بيد إن المثير في الأمر أن مؤلف دعاة لا قضاة لم يذكر اسم المؤلف (سيد قطب) بالاسم أبدًا ولكنه كان يرد علي أفكار المودوي في كتابه الأكثر تأثيرًا علي "سيد قطب" وهو "المصطلحات الأربعة"، وهو ما فسره البعض بمنع الإشارة إلي "سيد قطب" أو شئ من كتبه خاصة بعد إعدامه[٢٠٥]".

٢ – ويقول الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه ظاهرة الغلو في التكفير، وأظنّه أول ما أفرد من كتب للردّ على هذا الفكر الخطير، وقبل أكثر من ربع قرن، عندما أعاد تناول مسألة خطورة التكفير في كتابات سيد قطب بتركيز ووضوح واستفاضة: "أن بعض الكتب الإسلامية الحديثة

[٢٠٥] د. كمال حبيب، الكتب العشرة المؤسسة للعنف، الحلقة٢، معالم في الطريق، موقع أصوات أونلاين.

التي كتبت في هذه الظروف نفسها كانت تحمل بذور هذا التفكير وتدفع إليه دفعًا بما تتسم به من قوة التعبير وحرارة التأثير.. وهكذا احتضنت هذه الفئة هذا الفكر المطبوع بطابع الغلو والعنف والذي ينظر إلى الناس أفرادًا ومجتمعات من وراء منظار أسود قاتم.[٢٠٦]".. وهنا نلاحظ أن الشيخ القرضاوي قد تنبّه لخطورة ظاهرة التكفير مبكّرًا وكتب فيه في منتصف السبعينات من القرن الماضي، وأنّه كان يقصد كتابات سيد قطب تحديدًا، وإن لم يصرح وقتها باسم صاحب تلك الكتابات، لمراعاة ظروف المظلومية السياسية، كما عاد وقرّر هو في كتاباته عن سيد قطب والتكفير في عام ٢٠١٥، وقرّر أنّه حذّر من كتابات سيد قطب دون أن يذكره بالاسم في ذلك الزمان بسبب تعاطف ملايين المسلمين معه.

كما نلاحظ أنّ الشيخ ربط بين أفكار هذه الكتب الحديثة –في زمنها– واحتضان فئة من الشباب للفكر المطبوع بالغلوّ والعنف.. وهذه هي الخطورة الأكبر، فنحن لا نناقش أفكارًا وأطروحات مجرّدة باردة لا ينبني عليها عمل، بل نناقش فكرًا يتحوّل إلى سلوك وممارسة لينطلق من سطور كلمات بين صفحات مطوية في الكتب إلى فوّهات البنادق في سواعد الشباب! ويقول القرضاوي: "فإذا كان كل هذا الاحتياط واجبًا في شأن المصرّحين بالكفر، فكيف يجترئ مسلم على تكفير الجماهير التي تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله وإن خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا؟ إنّ الإقرار بالشهادتين، قد عصم دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى، فإنما أمرنا أن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر[٢٠٧]".

---

[٢٠٦] د. يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التكفير، (مكتبة وهبة، ط٣، ١٩٩٠م)، ص٥–٦. نُشر الكتاب لأول مرة كبحث في يناير ١٩٧٧م، في مجلة المسلم المعاصر.

[٢٠٧] د. يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص٢٨.

المطلب الثالث: بين سيد قطب والمودودي

يقول أبو الحسن الندوي في كتابه التفسير السياسي للإسلام، تحت عنوان: التصريحات المماثلة لدى سيد قطب: "وقد أعجب الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ سيد قطب الشهيد –وهو صديق المؤلف العزيز (يقصد المودودي)– إعجابًا شديدًا بكتاب الأستاذ المودودي المصطلحات الأربعة في القرآن، ووافقه كل الموافقة في الآراء والأفكار التي يتضمنها، وقد جعل الحاكمية أخص خصائص الألوهية، وكتاباته تقلل من شناعة عبادة الأصنام، والأوثان وعبادة غير الله في الجاهلية، لأنه يعتبرها صورة بدائية ساذجة للجاهلية الأولى، يقول في كتابه الشهير: معالم في الطريق: "هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية.. وهي الحاكمية، إنها تسند الحاكمية إلى البشر فتجعل بعضهم لبعض أربابًا، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله، وفيما لم يأذن به الله[٢٠٨]".[٢٠٩]".

ويقول في نفس الكتاب فيما بعد هذه السطور المذكورة أعلاه: "فالناس في كل نظام غير النظام الإسلامي يعبد بعضهم بعضًا في صورة من الصور، وفي المنهج الإسلامي وحده يتحرر الناس جميعًا من عبادة بعضهم لبعض، بعبادة الله وحده، والتلقي من الله وحده، والخضوع لله وحده[٢١٠]"، ويقول وهو يتحدّث عن العرب الذين خاطبهم القرآن مباشرة: "كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا، وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام، ورده كله إلى

---

[٢٠٨] سيد قطب، معالم في الطريق، طبع وتوزيع دار دمشق، ص٩.

[٢٠٩] الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، مرجع سابق، ص٦٨.

[٢١٠] سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص٩–١٠.

الله.."[٢١١]"، ويقول في صراحة أكثر وعبارة أوضح: "كانوا يعلمون أن لا إله إلا الله ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله.."[٢١٢]" ويتناول كلمة لا إله إلا الله بالشرح والإيضاح، فيقول: "لا إله إلا الله – كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد، لأن السلطان كله لله[٢١٣]".[٢١٤]، "يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم[٢١٥]".[٢١٦].

ويقول في موضع آخر: "إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين، معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر في صورة من الصور.. أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور[٢١٧]"، ويقول سيد قطب الشهيد رحمه الله في كتابه في ظلال القرآن بمناسبة الكلام على الآية "**ذلك الدين القيم**" من سورة يوسف: "وهذا وحده هو الدين القيم، فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده، وما يكن الحكم لله وحده، ولا عبادة لله إذا دان الناس لغير الله في شأن من شؤون الحياة، فتوحيد الألوهية يقتضي توحيد الربوبية، والربوبية تتمثل في أن يكون الحكم لله، أو أن تكون العبادة لله، فهما مترادفان أو

---

[٢١١] سيد قطب، المرجع السابق، ص٢٨.

[٢١٢] سيد قطب، المرجع السابق، ص٢٨.

[٢١٣] سيد قطب، المرجع السابق، ص٣١.

[٢١٤] أبو الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، مرجع سابق، ص٦٩.

[٢١٥] سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص٤٦.

[٢١٦] أبو الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، مرجع سابق، ص٧٠.

[٢١٧] سيد قطب، معالم في الطريق، ص٨١.

متلازمان، والعبادة التي يعتبر الناس بها مسلمين أو غير مسلمين، هي الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه"، ويستنتج من ذلك في السطور الآتية قائلا: "فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة، من دان لغير الله، وحكم في أي أمر من أمور حياته غير الله فليس من المسلمين، وليس في هذا الدين، ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه، فهو من المسلمين وفي هذا الدين[٢١٨]"، ويقول في عبارة صريحة لا تقبل تأويلا ولا تدع مجالا للنقاش وهو يتحدث عن الهدف الأساسي الجذري الذي استهدفته الدعوة النبوية على مدار التاريخ: "ولم يكن الناس فيما عدا أفراد معدودة في فترات قصيرة ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة، إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى.. إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والاتباع، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله[٢١٩]".[٢٢٠]

ويعقّب د. كمال حبيب على حالة التطابق بين فكري المودودي وسيد قطب قائلا: "وصلت أفكار المودودي إلى مصر عام ١٩٥٥ مع ترجمة كتابه إلي العربية وهذه السنة أعتقد أنها حاسمة في ترك تأثير هذه الأفكار بقوة على مؤلفات سيد قطب حيث كان صديقًا للمودودي وتأثر بأفكاره بقوة إلى درجة أنه يكرر نفس عباراته في تفسيره للظلال، ويبسط أفكاره ويتبناها في كتابه الأشهر "معالم في الطريق"، وفي كتابه "دعاة لا قضاة" رد المرشد الثاني لجماعة الإخوان على أفكار المودودي في كتابه المصطلحات الأربعة وأظهر حقيقة تبني أفكاره في المصطلحات الأربعة علي تيار في الإخوان وصلوا إلى حد تكفير الناس وعدم التسليم بإسلامهم بسبب موقفهم من النظام السياسي، وبسبب عدم علمهم بمقتضي المصطلحات الأربعة كما

---

[٢١٨] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١٢، ص٢٠٠.

[٢١٩] سيد قطب، معالم في الطريق، مرجع سابق، ص٢١.

[٢٢٠] أبو الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، مرجع سابق، ص٧٠-٧٢.

ذهب المودودي.. سيد قطب هو الجسر الذي نقل أفكار المودودي إلى الإخوان الذين آمنوا بأفكاره وذهبوا يكفرون المسلمين، وهو من طور مفهوم المودودي عن الحاكمية السياسية ليصبح تعبيرًا عن الجاهلية المعاصرة سواء في النظم السياسية العربية والإسلامية أو النظم السياسية في العالم كله، وهو ما سيضع الإسلام في مواجهة العالم عبر الأممية الجهادية ذات الطابع السلفي التي ستظهر بعد ذلك بعدة عقود.[٢٢١]".

[٢٢١] د. كمال حبيب، الكتب العشرة المؤسسة للعنف، الحلقة ١، المصطلحات لأربعة في القرآن للمودودي، موقع أصوات أونلاين، مرجع سابق.

الفصل الرابع: مراجعة التراث على القرآن الكريم والسُنة المتواترة ودور مؤسّسات التعليم

الفصل الرابع: مراجعة التراث على القرآن الكريم والسُنة المتواترة ودور مؤسّسات التعليم

لا شكّ أنّ أفكار الغلوّ والتطرّف، بل هذا الانحراف الفكري الذي تميل إليه الكتب الحديثة المؤصّلة لقيام تنظيمات الحركة الإسلامية الحديثة، التي طالعنا طائفة منها منذ مطلع الدعوة والحركة الوهّابية حتى اليوم، لم تكن وليدة تلك اللحظة التاريخية التي انبثقت فيها تلك الأطروحات، ولا الظروف البيئية المحيطة التي مثّلت الدوافع التي دفعت إلى اعتناق تلك الأفكار والأطروحات، فحسب.. وإنّما قد وُجد في بعض افتراضات وإشارات واردة في تراث المسلمين أو التراث الشرعي والفقهي الإسلامي، وورود حوادث واجتهادات ونصوص أمكن لهؤلاء الغلاة الجدد الاتكاء عليها واعتبارها أدلّة وبراهين ساطعة على صحّة مذاهبهم التي ذهبوا إليها.. صحيح أنّ كثيرًا من القراءات التراثية حُرّفت عن مواضعها، وأنّ العيب يكمن في أحيان كثيرة في فهم القارئ لا في نصّ الكاتب، وأحيانًا تُؤوّل النصوص تأويلا ينحرف بها عن أهدافها ومظّانها، كما يلعب عامل اختلاف الزمن والبيئة، ولغة الخطاب الديني نفسها بسبب اختلاف الظروف السياسية والإقليمية والدولية بين كل قرن والذي يليه من الزمان، دورًا محوريًّا لعدم ملائمة كل نصّ يُنقل من الماضي إلا بعد غربلته وتمحيصه واختبار هل هو نصّ أصلي قطعي الثبوت والدلالة، أم أنّه اجتهاد بيئة مرحلي، يناسب زمنه التاريخي وبيئته الجغرافية وأسبابه الظرفية، مثل تلك النصوص المرحلية وإن كانت تنتمي للتراث فيجب أن يتم التعامل معها في إطار تاريخية طرحها، باعتبارها مرحلة من مراحل تطوّر الفكر الإسلامي والخطاب الإسلامي، لا باعتبارها أصولا ثابتة واجبة الاتباع في كل عصر، وإلا جَمُد العقل المسلم والإبداع المسلم، وتوقّفت حركة الفكر، وانعقد اللسان المسلم عن التعريف بمنهج الإسلام تعريفًا يواكب عقول العالم في العصر الحديث. القراءة الخاطئة والفهم المتعسّف لمرويات التراث قائمة

إذن كواحدة من أهمّ احتمالات تكوين عقل الغلوّ والتطرّف، لكنّ هذا لا ينفي وجود بعض المرويات التراثية التي تحتاج بذاتها إلى إعادة مراجعة لأنّها لا تتفق مع منهج القرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة، ولعلّ تلك الأخبار التي تسرّبت بين كتب وشروحات ومتون التراث، قد حدثت لأسباب كثيرة متعدّدة، فمنها مثلا أنّ بعض كتب التراث جمعت بين الروايات دون تمحيص في السند وعلوم الرجال والاتصال والتخريج كما فعلته الطبقات التالية من جامعي الحديث النبوي الشريف، ولعلّ بعضها بسبب عدم معرفة الناسخ والمنسوخ خاصّة في كتب السُنة، وأيّ الحديثين المتعارضين –إن تعارض حديثان– يكون هو المتقدّم زمنيًّا على الآخر، وبعضها بسبب دخول الإسرائيليات على التراث، ولا سيّما في باب التفسير.. وبعضها بسبب عدم إخضاع مرويات السيرة النبوية أو مغازي الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وروايات التاريخ لنفس معايير جمع السُنة النبوية وعلم الحديث، ومنها تقديم الاهتمام بالسند اتصالا وجرحًا وتعديلا على نقد المتون ذاتها بعرضها على القرآن الكريم والسُنة النبوية الثابتة، كل ذلك لا يبرّئ التراث من أن تتخلّله بعض الهفوات هنا أوهناك، فالتراث ليس كتابًا أو كتبًا مقدّسة نازلة من السماء.. يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن كتبنا القديمة تجمع في القضية الواحدة ركامًا من الآراء فيه الصحيح، وفيه الذي يحتمل الصحة، وفيه باطل وفيه السقيم، ويجيء ذوو النظرات السطحية فيقرءون هذا وذاك، وربما لم يعلق بأذهانهم إلا ما لا خير فيه.. وهذا الخلط المتباين أساء إلى ثقافتنا الإسلامية، وربما منح الحياة مرويات كان يجب أن توءد يوم ولدت! وقد سمعت البعض يرحب بهذه الحرية! ولكنني عند التدبر والموازنة شعرت أن العملة المزيفة طردت العملة الصحيحة..[٢٢٢]".

[٢٢٢] محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، دار نهضة مصر، ٢٠٠٥، ص١٦.

المبحث الأول: مراجعة التراث على القرآن والسُنة الثابتة

وهذا يدفعنا إلى طرح السؤال: وما هو التراث المقصود؟ والإجابة أنّ التراث المقصود المطلوب مراجعته وتنقيحه على القرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة، هو مجموع الجهود والاجتهادات البشرية التي بذلتها طبقات العلماء، والأئمّة، والفقهاء، وأولو الرأي والنظر والفكر عبر الأجيال السابقة من الأُمّة المسلمة لفهم وشرح وتفسير القرآن الكريم والسُنّة النبوية، واستنباط الأحكام الفقهية، ومحاولة فهم منهج إسلامي متكامل للتعامل مع الحياة وفق مقاصد الإسلام.

التراث إذن هو جهد واجتهاد بشري، وكل ما هو بشري فهو غير مقدّس، والقرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة وفق هذا المفهوم البشري للتراث، خارج نطاق التراث –الذي يجب مراجعته– بل هما فوق التراث، وهما المعيار الذي يعاير به التراث.

أمر مراجعة أو إعادة معايرة التراث على القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة إذن ليس عسير على التصوّر كما يظنّ المتلقّي لأول وهلة، فهو لا يعدو أن يكون عملية إعادة ترتيب المرجعيات وأولويات التلقّي للعقل المسلم، بحيث يكون القرآن الكريم وحده هو مصدر التلقّي الأول والأعلى، فهو يعلو ولا يُعلى عليه، ثمّ السُنّة النبوية الثابتة المفسّرة للقرآن الكريم والمتمّمة لأوامره ونواهيه، ثمّ ما استتبع ذلك من فعل الصحابة –رضوان الله عليهم–، ثمّ اجتهاد الصحابة والتابعين، وهكذا دواليك.. إعادة معايرة التراث إذن الذي ندعو إليه هو بمثابة إعادة الاعتبار للنصّ المقدّس (القرآن الكريم)، حتى لا يتقدّم كتاب كائنًا من كان مؤلّفه أو جامعه قبل القرآن الكريم. وبعبارة وجيزة مختصرة نحن ندعو إلى مراجعة التراث بمعايرته أو وزنه أو قياسه بالأصل الثابت القرآن الكريم والسُنّة الثابتة، بينما دعاة هدم وتخريب التراث الإسلامي يطالبون بإعادة معايرة التراث الإسلامي كلّه على مقياس العقل المعاصر، والحضارة الغربية والشرقية

المعاصرة، بما في ذلك نفسه ثوابت القرآن والسنة[٢٢٣]! فالمعايرة إلى القرآن الكريم والسُنة الثابتة هو التحاكم إلى معيار ثابت راسخ، بينما التحاكم إلى العقل المعاصر والحضارة الحديثة فهو احتكام إلى متغيّر، فالعقل البشري يكتشف جديدًا كل يوم، والحضارة تتطوّر وتتغيّر كل فترة من الزمان.. فشتّان بين التجديد والتبديد كما قال الدكتور الطيب[٢٢٤].

كيف نحقّق مراجعة التراث خاصّة فيما يتعلّق بالمقولات التي يتكئ عليها أو يحيل إليها دعاة الغلوّ والتطرّف في التاريخ الحديث والمعاصر؟

أولا: الردّ إلى القرآن الكريم والسُنّة الثابتة.. والقرآن الكريم هو الكتاب المقدّس، أنزله الله – تبارك وتعالى– من فوق سبع سماوات بالحقّ "**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**" يوسف٢، "**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**" الفرقان١، وتعهّد سبحانه وتعالى ببيانه: "**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**" القيامة١٩، كما تعهّد بحفظه: "**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**" الحجر٩، ومن عظمة هذا الكتاب العظيم أنّ كل حرف من حروفه قطعي الثبوت، فكلّه من لدن خبير حكيم، وكلّه غير قابل للتحريف أو التغيير عبر الزمن، وهو المرجع الأول لمنهج الإسلام..

والسُنّة النبوية الثابتة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، هي متمّمة للقرآن الكريم ومفسّرة له، ومقطوع الأخذ بها بنصّ القرآن الكريم على ذلك: "**وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**" الحشر٧، "**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**" المائدة٩٢، "**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ**

---

[٢٢٣] علاء سعد حميده، إعادة الاعتبار للنص المقدس، منصة الإبداع العربي، (٣-١-٢٠٢٠)، https://al-manassa.com/category/%d9%81%d9%83%d8%b1/%d9%85%d8%b9%d8%aa%d9%82%d8%af%d8%a7%d8%aa/

[٢٢٤] الشيخ أحمد الطيب شيخ الأزهر.

تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً" النساء٨٠، وليس هناك أيّ شكّ في كون السُنّة النبوية المصدر الثاني المتمّم والمفسّر للقرآن الكريم في المنهج الإسلامي، لكنّ قطعية ثبوت السُنّة يختلف عن قطعية ثبوت القرآن الكريم، ولذا نقول أنّ السُنّة الثابتة، أي قطعية الثبوت عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، أصل لا ينفصل عن القرآن الكريم في التشريع، وهي تشمل السُنّة الفعلية التي ثبتت بالتواتر، وكذلك الأحاديث المتواترة، فكل ما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة هو من أصول الإسلام الثابتة التي لا يسع المسلم إلا التسليم التامّ لها. وإلى هذين الأصلين القرآن الكريم والسُنّة الثابتة، يُرَدُّ كل ما يلي ذلك من نصوص في التراث الإسلامي للحكم بموافقتهما لهذين الأصلين العظيمين الثابتين أم لا. فكل ما وافقهما قبلناه وكل ما خالفهما رددناه.

ثانيًا: ردّ المتشابهة ثبوتًا ومعنى إلى المحكم ثبوتًا ومعنى قطعي الثبوت قطعي الدلالة: أصول الإسلام ثابتة قرآنًا وسُنّة، والقرآن الكريم كلّه قطعي الثبوت، لكنّ بعضه قطعي الدلالة، وهذا مُحكم لا يصلح معه التأويل، وبعضه ظنّي الدلالة، وهو ما يقبل التأويل من آيات القرآن الكريم: "**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**" آل عمران٧. والسُنّة النبوية أقسام، منها قسم قطعي الثبوت قطعي الدلالة، ومنها قسم قطعي الثبوت ظنّي الدلالة، ومنه قسم ظنّي الثبوت قطعي الدلالة، ومنها قسم ظنّي الثبوت ظنّي الدلالة، وكل ما يلي القرآن الكريم بقسميه، والسنّة النبوية بأقسامها الأربعة، مما يُنسب إلى البشر –عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم– فهو ظنّي الدلالة ولو كان قطعي الثبوت، ولذلك قال الإمام مالك: كل يُؤخذ منه ويُردّ إلا صاحب هذا القبر –رسول الله صلى الله عليه وسلم–، فلا عصمة لبشر إلا لرسول الله فيما بلّغ عن ربه، وعلى هذا يتمّ ترتيب أولويات الثوابت والمرجعيات في المنهج الإسلامي والعقل المسلم، فيُرَدُّ قول تابعي التابعين إلى التابعين لقربهم لزمن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونزول القرآن، ويُرَدُّ قول التابعين إلى الصحابة لمعاصرتهم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– ونزول القرآن، ويُرَدُّ قول الصحابة –رضوان الله عليهم– إلى قول وفعل رسول

الله –صلى الله عليه وسلم–، ويُرَدُّ ظنّي الثبوت إلى قطعي الثبوت، ويُرَدُّ ظنّي الدلالة إلى قطعي الدلالة.

ثالثًا: ردّ النصّ المُفرد إلى مجموع النصوص، فالأصل في الإسلام حزمة القيم والمفاهيم والمنهج، فالإسلام كدين يعتمد على النصوص الثابتة في القرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة، لكنّ مجموعة هذه النصوص نفسها تكوّن منهجًا إسلاميًّا منسجمًا مع بعضه. ولذلك تعرّض العلماء منذ القدم إلى إشكالية التعارض والتضاد بين نصوص الإسلام الثابتة، لعدم معقولها، فعُرف علم الناسخ والمنسوخ، والتوفيق بين النصوص، وساهم علم أسباب نزول آيات القرآن الكريم في فهم المنهج المتكامل للإسلام الذي يعرضه القرآن الكريم وتفصّله السُنّة النبوية، واعتمد جمهور العلماء –إلا قليل– قاعدة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[٢٢٥]، "يجب أن يتنبه للفرق بين دلالة السياق والقرائن على تخصيص العام وعلى مراد المتكلم وبين ورود العام على سبب، ولا تجري مجرى واحد فإن مجرد ورود العام على سبب لا يخصّصه، وأمّا السياق والقرائن فإنها الدالة على المراد، وهي المرشدة إلى بيان المجملات وتعين المحتملات فاضبط هذه القاعدة فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى وانظر قوله صلى الله عليه وسلم: "ليس من البر الصيام في السفر" من أي من القبيلين هو منزله عليه[٢٢٦]"، "فائدة: إذا عرفت أن الأرجح عندنا اعتبار عموم اللفظ دون خصوص السبب فلا نعتقد أن ينسحب العموم في كل ما ورد وصدر؛ بل إنما نعمّم حيث لا معارض، وفي المعارض أمثلة منها: حديث النهي عن قتل النساء والصبيان أخذ أبو حنيفة بعمومه وقال: المرأة المرتدة لا تُقتل، وخصصناه نحن بسببه؛ فإنه ورد في امرأة مقتولة مر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته، فنهى إذ ذاك عن قتل النساء والصبيان لحديث: "من بدل دينه فاقتلوه" وغيره من الأدلة.. ومنها: حديث

---

[٢٢٥] موقع الإسلام سؤال وجواب، https://islamqa.info/ar/answers/224767/%D8%AD%D9%88%D9%84-

[٢٢٦] تاج الدين بن السبكي، الأشباه والنظائر، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م)، ج٢، ص١٣٥.

أنس "ليس من البر الصيام في السفر" ورد في رجل قد ظلل عليه من جهد ما وجد، وقد تقدم الكلام فيه.

تنبيه: قدمنا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والخلاف في ذلك إذا لم تكن هناك قرينة تعميم، فإن كانت فالقول بالتعميم ظاهر كل الظهور بل لا ينبغي أن يكون في التعميم خلاف.[٢٢٧]"، والخلاصة التي نستخلصها أنّ لقاعدة عموم اللفظ شروطًا، منها مراعاة سياق النصّ، وألا يكون للنصّ المراد تعميمه معارض من نصّ أو نصوص أخرى.

وهناك نصوص في القرآن الكريم يمكن وضعها كقواعد عامة حاكمة لغيرها من النصوص، وهي النصوص التي أطلقت الأحكام العامة الكبرى في الدين، أو أقرّت الحقائق الأساسية التي لا يوجد إمكانية للخلاف عليها في فهم الدين، مثل قوله تعالى: "**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ**" الأنبياء١٠٧، فأسلوب القصر في "إنّما" يؤكّد قيمة الرحمة كحقيقة مطلقة في رسالة محمد –صلى الله عليه وسلم–، فتصبح كل رسالته ودعوته وأفعاله إنّما هي تحت الحقيقة المطلقة أو القيمة المطلقة "**رحمة للعالمين**"، "**لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ**" سورة البقرة٢٥٦، قاعدة عامة مطلقة لا مرحلية فيها ولا منطق أساسًا في مخالفتها، لأنّ الاعتقاد يستقرّ في القلب والضمير، ولا سلطان لأحد على ما في القلب إلا الله –سبحانه– وحده، "يقول الإمام ابن تيمية تحت عنوان: الدليل الثالث على تحريم قتال من لم يقاتل من الكافرين: في آية لا إكراه في الدين: هذا نص عام، أنّا لا نكره أحدًا على الدين، فلو كان الكافر يُقتل حتى يسلم، لكان هذا أعظم إكراه على الدين.[٢٢٨]". "**وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ**" سورة البقرة١٩٠.. قيمة عامة مطلقة، فإذا قرّر المولى –عزّ وجلّ– أنّه يحب أمرًا ولا

[٢٢٧] تاج الدين بن السبكي، المرجع السابق، ج٢، ص١٣٦.

[٢٢٨] أحمد عبد الحليم بن تيمية، قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، ص١٢١.

يحب آخر، فهل هذا الحكم يتبدّل بتبدّل الظروف والأحوال؟ حاشا لله وكلا، علا عن ذلك علوًّا كبيرًا..

هذه القواعد المُحكمة التي تقرّرها نصوص القرآن الكريم، تختلف عن نصوص قرآنية مثل قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**" النساء٤٣، وقوله تعالى: "**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**" سورة البقرة٢١٩، فإنّ التدرّج في أحكام القرآن الكريم التشريعية ينسخ الآية الكريمة حُكمًا، ولا ينسخها تلاوةً وتدبّرًا، ومن هنا تفهم الأجيال التالية على نزول القرآن الكريم، عملية التطوّر الفكري والتشريعي في المجتمع المسلم الأول، وصولا إلى الأحكام الإسلامية النهائية.. ولكنّنا لا يمكننا القول إنّ آية قرآنية نسخت حكمًا في آية قرآنية أخرى إلا بدليل ثابت منصوص عليه في القرآن الكريم أو السُنّة النبوية الثابتة قطعية الثبوت والدلالة، وأيّ اجتهاد دون ذلك فإنّما يعطّل نصًّا قرآنيًّا ثابتًا بلا دليل نقلي. يقول الشيخ القرضاوي تعقيبًا على هذه المسألة: "(جهاد هجومي)، يعلن الحرب على العالم كله: مَن قاتل المسلمين ومَن سالمهم وكفَّ أيديه عنهم، وألقى إليهم السلم. وما يعارض هذا التوجه من آيات كثيرة ومن أحاديث صحيحة: لا يلتفت إليه، ولا يعيره انتباهًا، فإن هذه النصوص كلها موجودة حسًّا، معدومة معنى. إنها (نصوص مرحلية)، عُمِل بها في وقت ما، ثم انقضى زمنها، وبطل مفعولها، إنها بالعبارة التراثية (نصوص منسوخة أو مُنسأة). ما الذي نسخها ونحن نتلوها في كتاب ربنا، ونتعبَّد بتلاوتها ليل نهار؟! إن الذي نسخها ونسخ غيرها –وهي كما قيل: نحو مائة وأربع عشرة آية، أو مائة وأربعين آية، أو مائتي آية– كلها نسختها آية واحدة، أو جزء من آية، إنها (آية السيف)! وهكذا بضربة واحدة قاضية، عطَّل هؤلاء هذه النصوص من كتاب الله الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. عيب هؤلاء الإخوة من العلماء والدعاة يتمثَّل عندي في خصلتين رئيستين: الأولى: أنهم يتحدَّثون عن هذا الأمر المختلَف فيه، وكأنه قضية إجماعية،

أو كأنه معلوم من الدين بالضرورة، والأمر على خلاف ذلك، كما بيَّناه في موضعه، حتى وجد من الصحابة ومَن تبعهم بإحسان، مَن قال: إن الجهاد –جهاد الطلب– تطوُّع لا فرض. ومَن قال: إن فرض الكفاية المطلوب من الأمة هو إعداد القوة التي ترهب الأعداء، وتحصِّن الثغور.

الثانية: اتهامهم لكل مَن يخالفهم بالسذاجة والغفلة والبَلَه، من الناحية العقلية، وبالاستخذاء والروح الانهزامية، وأشد الناس في ذلك: المدرسة (الحرْفية) في فهم النصوص، أو من سمَّيتُهم في بعض دراساتي (الظاهرية الجدد)، وإن كان بعضهم يدَّعي (السلفية) أو (السلفية الجهادية)! ومن هؤلاء: الجماعات التي تبنَّت بدعة (الغلو في التكفير)، وكفَّروا الناس بالجملة، أفرادًا وحكومات وأنظمة. من الناحية النفسية كيف هان على (سيد قطب[٢٢٩]) –وهو رجل القرآن– الإعراض عن هذه الآيات كلِّها وغيرها بدعوى أنها جاءت لمرحلة ثم انتهى أمرها، وبطل مفعولها؟ أو حكم عليها بالإعدام باسم (النسخ)؟ أو أي اسم آخر؟ والأصل فيما أنزل الله تعالى من النصوص، هو: البقاء والخلود واستمرار العمل بها، ما لم يوجد يقين قاطع لا شكَّ فيه بنسخ هذا النص. وإني لأتهيَّب كل التهيُّب أن أقول عن آية من كتاب الله، مكتوبة في المصاحف، متلوَّة بالألسنة: هذه آية مُلغاة!! أو كانت مطلوبة في مرحلة، ثم تجاوزها الزمن!!"[٢٣٠].

آية السيف: وهي كما قال العلماء والمفسرون الآية الخامسة من سورة التوبة، وأنا في الحقيقة لا أستطيع أن أفهم الآية الكريمة في معزل عن سياقها القرآني الذي وردت فيه، ولا السياق التاريخي التي نزلت لأجله، يقول تعالى: "**بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**

[٢٢٩] ورغم أن الشيخ القرضاوي كان يرد على طائفة من المفكرين والدعاة، لكنه خص سيد قطب بالذكر معتبرا إياه المرجعية الأهم في تبني نظرية الجهاد الهجومي.. أو الإسلام المقاتل للعالم.

[٢٣٠] يوسف القرضاوي، مرجع سابق، حلقة١١، من صفحة الشيخ العامة على الفيس بوك.

وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ*إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ*فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ" التوبة١-٦، ماذا يفهم أي قارئ متدبّر للقرآن الكريم عندما يتلو تلك الآيات البينات؟ هل يمكن أن يعزل الآية الخامسة عن سياقها الذي سبقها؟ فضلا عن سياقها التاريخي والظرفي الذي أُنزلت فيه؟ الآيات البينات تتناول مشركي قريش وحلفاءهم الذين عاهدوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وكل ما يتلوها من أحكام فهو يتعلّق بمشركي العرب وإقامتهم بجزيرة العرب، ولن تجد مفسّرًا واحدًا من مفسّري القرآن الكريم خطر بباله أنّ هذه الأحكام في سورة التوبة تتعلّق بما وراء المشركين العرب، هل جال في خاطرهم في زمن من أزمنة التفسير، أنّ المسلمين مطالبون بقتال الناس في اليونان وروما؟ وهل ذكروا ذلك في كتبهم؟ ثمّ كيف نتجاهل الآية السادسة من نفس السورة الكريمة، والتي تؤمّن نفس المشرك من أن يتمّ الاعتداء عليه، ولكن يجب إجارته حتى يسمع كلام الله، فهب أنّه لم يؤمن بعدما سمع كلام الله، نقتله؟ هذا هو أمر الله –سبحانه– الصريح الواضح الذي لا لبس فيه ولا غموض: "**ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**"، نحن لا يمكننا أن نتجاوز قول كثير من المفسّرين أنّ هذه الآية الكريمة ناسخة لكل ما سبقها من آيات الصبر على المشركين، ولذلك أطلقوا عليها آية السيف، لكنّهم مع ذلك لم يكونوا يقصدون أبعد من مشركي جزيرة العرب، المعاهدين منهم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وغير المعاهدين، وهذه طائفة من آراء المفسّرين الذي قالوا بنسخ تلك الآية الكريمة لما قبلها من الآيات: "وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي –صلى الله عليه

وسلم- وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة.. وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبقَ لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمى لهم من العقد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.[٢٣١]"، فهؤلاء الذين قالوا بالنسخ، وهم كما ترى لا يقصدون سوى مشركي العرب الذين عاهدوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"وقال بعض أهل العلم: ليست آية السيف ناسخة لتلك الآيات، ولكن الأحوال تختلف؛ فإذا قوي المسلمون وصارت لهم قوة استعملوا آية السيف، وما جاء في معناها، وقاتلوا جميع الكفار، وإذا ضعف المسلمون ولم يقووا على قتال الجميع: فلا بأس أن يقاتلوا بحسب قدرتهم، ويكفوا عمن كف عنهم، فيكون الأمر بحسب المصلحة والنظر في العواقب.[٢٣٢]"، ويرجّح الشيخ ابن باز هذا الرأي ويقول: "لأن القاعدة الأصولية أنه لا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الأدلة، والجمع هنا غير متعذر، كما تقدم بيانه.[٢٣٣]". في مقابل تلك المدرسة التي جعلت قتال الكفّار حسب القدرة على قتالهم، نهضت مدرسة أخرى تفسّر الآية الخامسة من سورة التوبة ضمن سياقها القرآني التي وردت فيه في مقدمة سورة التوبة، وضمن سياقها التاريخي، وظرفها البيئي. وهاك بعض ردود العلماء على من اعتبر الآية الكريمة هي آية السيف الناسخة لآيات السلم والكفّ عن العدوان في القرآن الكريم، وهي نحو مائة وعشرين آية كاملة:

---

[٢٣١] .http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura9-aya5.html

[٢٣٢] https://islamqa.info/ar/answers/210002/%D8%B3%D8%A8%D8%A8-%D9%86%D8%B2%D9%88%D9%84-%D8%A7%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D9%81.

[٢٣٣] الشيخ عبد العزيز بن باز، مجموع فتاوى ابن باز، ج٣، ص١٨٩-١٩٤.

١- إنّ الإمام ابن تيمية يضع رسالة في عنوانها: "قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم".

٢- يقول الشيخ محمد الغزالي: "قرأت لنفر منهم كلامًا طويلا في أنّ الإسلام دين هجومي يضع خططه للحرب لا للسلم، وشعرت بالغيظ لتحريف الكلم عن موضعه من ناحية، ولتناول الوقائع دون أدنى وعي بملابستها من ناحية أخرى.[٢٣٤]"، "إن التوسع الإسلامي لا يعتمد على القهر، وحروب العدوان، إن العملة المتداولة في ميدان الدعوة الإسلامية هي الفكر الحر! ومقاتلة الإسلام للرومان، كانت أشرف قتال عرفته الدنيا، لأن الامبراطورية العجوز استهلكت شعوبًا كثيفة داخل سجونها قرونًا طويلة، وعندما نكتب سيرة نبينا بهذا الأسلوب فماذا يبقى للمبشرين والمستشرقين؟[٢٣٥]".

"وبهذا الفكر المعتل يكتب دعاة عن قيام الإسلام على السيف، واجتياحه للخصوم ورغبته في الهجوم! ويرجعون إلى الكتاب الكريم والسنة المطهرة كي يحرفوا الكلم عن مواضعه، أو يقلبوا النصوص رأسًا على عقب.[٢٣٦]"، "ونحن لا نكره أحدًا على دين، ولا نقبل إيمان مكره[٢٣٧]"، وهذا هو نفس المعنى الذي قرّره الشيخ ابن تيمية في تفسير "**لا إكراه في الدين**"، ثمّ يضيف الغزالي: "وانتقل هذا الاضطراب الفكري إلى نصوص الكتاب والسنة، فإذا تيار من الفوضى يلغي باسم النسخ نحو ١٢٠ آية قرآنية، ويعوج بمفهوم آيات أخرى، ويخرج الإسلام للناس في صورة دميمة.[٢٣٨]"، "القول بالنسخ مرض أصاب بعض المتكلمين في القرآن الكريم وكان سبب بلاء شديد للأمة الإسلامية بل إنه عكر رونق الدعوة ووضع في مجراها الجنادل! أليس من

---

[٢٣٤] محمد الغزالي، جهاد الدعوة، مرجع سابق، ص١٢.

[٢٣٥] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص ١٣.

[٢٣٦] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص١٣.

[٢٣٧] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص١٥.

[٢٣٨] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص١٦.

المصائب أن تثبت أقوال بأن هذه الآيات منسوخة؟ وماذا بعد إلغائها إلا إبطال رسالة الأمة كلها، وهي الدعوة الواضحة الموصولة حتى قيام الساعة؟[٢٣٩]"، "لكن ناسًا من المفسرين عفا الله عنهم لم يعيشوا في جو السورة، ولم يدركوا مواقع النزول، ولم يربطوا الحكم بحكمته، وزعموا أن هذه السورة ألغت كل ما سبقها من آيات الدعوة والمسالمة، وأنها أحلت العنف مكان اللطف، والإكراه مكان الحرية! وبهذا القول الجزاف نسخت مائة آية نزلت من قبل في أسلوب الدعوة! وسمعت من يحتج بالآية **(وقاتلوا المشركين كافة)**، فقلت له: ألا تكملها؟ أليس بعدها **(كما يقاتلونكم كافة)**؟ فأين في الآية الدعوة إلى الهجوم، وإعمال السيف في الناس؟ ويشيع بين المفسرين أن آية السيف نسخت ما جاء قبلها، وعند التحقيق لا يوجد ما يسمى آية السيف! هناك جملة من الآيات في معاملة خصوم الإسلام، وفي مقاتلتهم أحيانًا لأسباب لا يختلف المشرعون قديمًا وحديثًا على وجاهتها، وعلى أنها لا تنافي الحرية الدينية في أرقى المجتمعات![٢٤٠]"، "بأي عقل يأتي مفسر فيقول: المقصود بهذه الآية كل كافر على وجه الأرض! أساء أم أحسن! وفّى أم غدر! ظلم أو أنصف! ثم يطلق على الآية المحددة: آية السيف! ويلغي بها مائة آية في العرض الهادئ والجدال الحسن والوعظ البليغ! ثم تظهر في عصرنا الأسود طوائف من الشباب الأغرار تحمل العصي، وتزعم أن الإسلام دين هجوم وتريد أن تقاتل رواد الفضاء! أكذلك يخدم دين قوامه العقل، وأساسه النظر الذكي، والمنطق الرزين الرتيب؟[٢٤١]".

---

[٢٣٩] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص٣٥.

[٢٤٠] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص٦٩-٧٠.

[٢٤١] محمد الغزالي، المرجع السابق، ص٧٢.

٣- أمّا الدكتور يوسف القرضاوي فيقول: "**(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)** التوبة٣٦، أي تجمعوا على قتالهم، كما يتجمعون على قتالكم، فهو معاملة بالمثل، وهذه مما قيل إنها آية السيف!"[٢٤٢].

٤- الجصاص في أحكام القرآن: "... ولكن موضع الخلاف بينهم: أنه متى كان بإزاء العدو مقاومون له، ولا يخافون غلبة العدو عليهم، هل يجوز للمسلمين ترك جهادهم حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية؟ فكان من قول ابن عمر وعطاء وعمرو بن دينار وابن شبرمة: أنه جائز للإمام والمسلمين ألا يغزوهم وأن يقعدوا عنهم."[٢٤٣].

٥- ابن رشد الجد، في المقدّمات والممهّدات: "إذا حُميت أطراف البلاد، وسُدت الثغور، سقط فرض الجهاد عن جماعة المسلمين، وبقى نافلة، إلا أن ينزل العدو ببعض بلاد المسلمين، فيجب على الجميع إعانته بطاعة الإمام في النفير إليهم."[٢٤٤].

٦- ابن الصلاح: "إن الأصل هو إبقاء الكفار وتقريرهم، لأن الله تعالى ما أراد إفناء الخلق، ولا خلقهم ليُقتلوا، وإنما أُبيح قتالهم لعارض ضرر وجد منهم، إلا أن ذلك ليس جزاء لهم على كفرهم، فإن دار الدنيا ليست دار جزاء، بل الجزاء في الآخرة."[٢٤٥].

٧- ابن تيمية في السياسة الشرعية: "إن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى **(وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ)** سورة البقرة٢١٧، أي إن القتل وإن كان فيه شر وفساد، ففي فتنة الكفار "اضطهادهم للمؤمنين" من الشر والفساد ما هو

---

[٢٤٢] د. يوسف القرضاوي، فقه الجهاد دراسة مقارنة، (مكتبة وهبة)، ج١، ص٤.

[٢٤٣] الجصاص، أحكام القرآن، ج٣، ص١١٣-١١٤.

[٢٤٤] ابن رشد الجد، المقدمات والممهدات، ج١، ص٢٦٣.

[٢٤٥] ابن الصلاح في فتاويه، ص١٢١.

أكبر منه، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه..."[٢٤٦].

٨- الخطيب الشربيني: "وجوب الجهاد: وجوب الوسائل لا المقاصد، إذ المقصود بالقتال إنما هو الهداية، وما سواها من الشهادة. وأما قتل الكفار فليس بمقصود، حتى لو أمكن الهداية بإقامة الدليل "أي بالحجة والإقناع" بغير جهاد: كان أولى من الجهاد."[٢٤٧]..

لنجد أنفسنا في نهاية الجولة في تفسيرات العلماء والأئمة، أنّ آية السيف لا يمكن إلا أن تُفهم في سياقها القرآني، وفي سياقها التاريخي، وفي سياقها الظرفي البيئي، وهو الحثّ على قتال المشركين من عرب الجزيرة العربية، وذلك لسبق قتالهم الطويل المستمرّ للمسلمين طوال زمن الرسالة المحمدية، ثمّ تقضي الآيات في النهاية بسيحانهم في الأرض، على أن يغادروا الجزيرة العربية فلا يجتمع فيها دينان، فإذا غادروها لم يقل أحد من المتقدّمين أو المتأخّرين بوجوب ملاحقتهم خارج جزيرة العرب.

رابعًا: ردّ ظاهر النصّ إلى فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين: فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو المفسّر الأول للقرآن الكريم، وهو أعرف الثقلَيْن بمُراد الله من آيات كتابه العزيز، وفِعل النبي -صلى الله عليه وسلم- حُجّة على النصّ، لأنّه هو المكلّف بالتبليغ والبيان والتطبيق، ولذلك ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- عن جابر بن عبد الله الأنصاري، أنّه قال: "خذوا عني مناسككم" رَوَاهُ أَحْمَدُ ومُسْلِمٌ والنسائي. وورد عنه أنّه قال: "صلوا كما رأيتموني أصلي" رواه البخاري، فقدّم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- العمل على القول في كثير من الأحيان، وعن عمل رسول الله أخذت الأُمّة تشريعاتها وفهمت أوامر الله -تبارك وتعالى-،

---

[٢٤٦] أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية، مجموع الفتاوى، ج٢٨، ص٣٥٥.

[٢٤٧] الخطيب الشربيني، مغني المحتاج في شرح المنهاج، ج٦، ص٤٤، والنقولات الخمسة السابقة كلها عن يوسف القرضاوي، فقه الجهاد، ص١٠.

فإذا أُغلق علينا فهم نصّ قرآني أو شرحه أو تفسيره، فإنّنا نلجأ إلى عمل رسول الله في تلك المسألة، ليشرح عمل النبي ما غَمُض علينا من تفسير النصّ، ومن ذلك قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**" التوبة٧٣، وقد ورد في تفسير الآية الكريمة قول المفسّرين: حدثنا أبو صالح قال، حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس فأمره الله بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهبَ الرفق عنهم.. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، وأغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وروي عن محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن قال: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين بالحدود، أقم عليهم حدودَ الله.. ومثل ذلك قال قتادة. فما الذي دفع المفسّرين إلى التفرقة بين قتال الكفّار على أن يكون بالسيف، وبين جهاد المنافقين أن يكون باللسان أو بإقامة الحدود؟ مع أنّ اللفظ المستخدم واحد وهو فعل الأمر: "جاهد" وجاءت "المنافقين" معطوفًا على الكفّار، فالأصل لو أخذنا بظاهر النصّ أن يتساوى جهاد الكفّار بالسيف مع جهاد المنافقين كذلك بالسيف، ولكنّ الذي جعل المفسرين يميّزون بينهما هو عمل النبي –صلى الله عليه وسلم–، وامتناعه رغم نزول هذا الأمر الواضح عن قتل المنافقين، وحفِظَ دماءهم وأموالهم وأعراضهم، بل حفِظَ سمعتهم من أن تلوكها ألسنة المؤمنين، فلم يفشِ سرّهم ولم يعرّف أحدًا بأسمائهم إلا الصحابي حُذيفة بن اليمان، فكان كاتم سرّ الرسول، وذلك ليضمن أنّ في أُمّة محمد بعد موته من يمتثل لأمر الله –تبارك وتعالى–: "**وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ**" التوبة٨٤، وهكذا دلّ فعل النبي –صلى الله عليه وسلم– على ظاهر النصّ..

حديث: "أُمِرت أن أُقاتل الناس": ومن الأحاديث التي ينبغي أن نتوقّف عند ظاهر النصّ فيها لنفهم مُراد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من قوله، الحديث المتواتر: "أُمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله

تعالى" رواه البخاري ومسلم. وقد صحّ هذا الحديث عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، ولهذا قال الحافظ السيوطي في الجامع الصغير: هو حديث متواتر. قال شارحه: لأنه رواه خمسة عشر صحابيا[٢٤٨]. لقد استشكل عليّ هذا الحديث الشريف سنوات طويلة، وأرّقني، فالحديث حُكمه حكم المتواتر، وهو على هذا قطعي الثبوت، وألفاظه واضحة بسيطة غير مبهمة، وقد لا تحتمل التأويل، فهو يكاد لوضوحه أن يكون قطعي الدلالة، ولكنّ سبب الاستشكال عندي أنّه يتعارض مع بعض آيات القرآن الكريم، التي تأكّدنا من تحليل النقطة السابقة، أنّها آيات بيّنات تؤصّل قيمًا مطلقة ثابتة، كقوله تعالى: "**لا إكراه في الدين**"، وقوله عزّ من قائل: "**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**"، كما أنّ نص الحديث الشريف المتواتر قطعي الثبوت الذي يكاد يكون قطعي الدلالة، يتنافى مع عمل النبي –صلى الله عليه وسلم– طوال رسالته منذ البعثة وحتى الوفاة، هل قاتل النبي –صلى الله عليه وسلم– الناس؟ والباحث عن الحقّ الموضوعي في رأيي كالقاضي العادل الذي يفتّش في الوقائع والأحداث ويسعى بكل ما أوتي من جهد أن يحصل على كل ما يتصل بالحدث محلّ التحقيق، ويغربل كل ما يصله من معلومات، ويفحصها ويدقّقها ويوازن بينها بنسب مقاديرها الحقيقية، دون تدخّل لميوله الشخصية ولا لاقتناعاته المسبقة، ولا لأُمنياته لترجيح رأي على آخر. وبالاختصار الحقّ أحقّ أن يُتّبع، ولقد رأيت هذا الحديث الشريف يقوّي صفّ الذين قالوا إنّ الآية الخامسة من سورة التوبة والمعروفة لديهم بآية السيف قد نسخت نحو مائة وعشرين آية من القرآن الكريم! بل هم بالفعل استخدموا هذا الحديث في معرض تفسيرهم لقوله تعالى: "**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" التوبة٥.. وما أدين لله –تعالى– به، أنّ الإسلام نظام متكامل للحياة، ومنهج متّسق، يتكوّن من مجموعة من النصوص التي يكمّل بعضها البعض، وتنسجم لتشكّل

[٢٤٨] د. يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التفكير، مرجع سابق، ص٣٣.

هذا المنهج، ولا يمكن لنصّ منفرد أن يشذّ عن هذا المنهج، "**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**" الكهف١، وفي التفسير: لم يجعل له عوجًا: اختلالا ولا اختلافًا ولا انحرافًا عن الحقّ ولا خروجًا عن الحكمة. "**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**" النساء٨٢، وفي التفسير المبسّط: حيث جاء على نسق محكم يقطع بأنه من عند الله وحده، وفي تفسير السعدي: ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدّة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضًا، فبذلك يُعلَم كمال القرآن، وأنّه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور..

المنهج الإسلامي يصنع منظومة قيمية يعتنقها المسلم، عقيدة وفكرًا وتصوّرًا، كيف تنفي عن الإسلام انتشاره بحدّ السيف وهو الاتهام العنيف الأشهر المُشهر في وجه الإسلام من خصومه حول العالم؟ وفي ذات الوقت تؤمن بأنّ الإسلام دين السيف والتحريض على القتال على العقيدة لا في مواجهة العدوان؟! لا يمكنك كمسلم متّسق مع ذاتك إلا أن تختار تصوّرًا قيميًّا واحدًا تنتمي إليه وتدافع عنه، تصوّرًا منهجيًّا تنسجم نصوصه المكوّنة له بعضها مع بعض، فلا تشذّ ولا تخرق المنهج، ولا تعوّج به، ولا تتناقض مع قيمه العليا.. أمام هذه الحقيقة الساطعة، وهي حقيقة قرآنية ثابتة، كان لا بدّ من مراجعة فهمنا للحديث، وللظروف المحيطة به. مع الأخذ في الاعتبار قاعدة أنّه لا اجتهاد مع نصّ، ولكن لدينا في الجهة المقابلة نصوص عديدة قطعية الثبوت والدلالة، كما أنّ فعل النبي –صلى الله عليه وسلم– يعضّد ما نذهب إليه، ومن قائل بالنسخ عليه أن يأتي بنصّ قطعي الثبوت والدلالة على النسخ، وهو متعذّر، فالمسألة مسألة اجتهاد لا شكّ في ذلك. ثمّ انبثق الحقّ، فالحديث الشريف إنّما هو حديث كفّ عن القتال، وليس حديث تحريض على القتال، وهو حديث حقن للدماء، وليس حديث إراقة للدماء، فالحديث يعصم دماء من نطق بالشهادتين، وينهى عن قتل كل من شهد بهما، ويدخل كل ناطق بهما

في نطاق الحماية وعصمة الدماء والمال والأعراض إلا بحقّ من حقوق القصاص أو الحدود، وعلى هذا نفهم الحديث، فإذا كان فهمنا للحديث كذلك، فلا بدّ أن يكون المقطع، الذي رواه نحو خمسة عشر صحابيًّا، من الحديث وكلهم سمعه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، إمّا جوابًا على سؤال، لم يرد في الرواية، وإمّا استئنافًا لمحذوف لم يرد في الرواية، فقد ذكر الطحاوي في شرح معاني الآثار سبب ورود هذا الحديث، "فقد روي بإسناده عن النعمان بن عمرو بن أوس، أخبره أن أباه أوسا رضي الله عنه قال: إنا لقعود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفة، وهو يقص علينا، ويذكرنا إذ أتاه رجل فساره، فقال: اذهبوا فاقتلوه. فلما ولى الرجل دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما تشهد أن لا إله إلا الله؟ فقال الرجل: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهبوا فخلوا سبيله فإنما أُمِرتَ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا لا إلهَ إلا اللهُ فإذا فعلوا ذلك حَرُمَ عليَّ دماؤُهم وأموالُهم"[٢٤٩].. ففي هذه الرواية للحديث، وجدنا المقطع المتواتر من الحديث استئنافًا للتعقيب على قصّة، مؤدّاها حقن دماء الرجل، لأنّه يشهد أنّ لا إله إلا الله! وفي شرح معاني الآثار، باب ما يكون الرجل به مسلمًا: "حدثنا ابن مرزوق قال ثنا وهب بن جرير عن أبيه قال سمعت النعمان يحدث عن الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار عن المقداد بن عمرو قال قلت يا رسول الله أرأيت إن اختلفت أنا ورجل من المشركين ضربتين فضربني فأبان يدي ثم قال لا إله إلا الله أقتله أم أتركه؟ قال: بل اتركه. قلت: وقد أبان يدي؟ قال: نعم فإن قتلته فأنت مثله قبل أن يقولها وهو بمنزلتك قبل أن تقتله. حدثنا أبو بكرة قال ثنا عبد الله بن بكر قال ثنا حاتم بن أبي

---

[٢٤٩] الراوي: أوس بن أبي أوس وقيل أوس بن أوس والد عمرو، المحدث: الألباني| المصدر: صحيح ابن ماجه| الصفحة أو الرقم: ٣١٨٨| خلاصة حكم المحدث: صحيح – إسناده صحيح، النعمان بن سالم –وهو الطائفي– من رجال مسلم، وبقية رجاله ثقات، رجال الشيخين غير صحابيه فلم يخرج له سوى أصحاب السنن خلا الترمذي.

وأخرجه ابن أبي شيبة ٧٤٣/٨، و١٢٣/١٠ مختصرا، و٣٧٦/١٢ مطولا، ومن طريقه ابن ماجه (٣٩٢٩)، والنسائي في "المجتبى" ٨١/٧ من طريق عبد الله بن بكر السهمي، بهذا الإسناد.

صغيرة عن النعمان بن عمرو بن أوس أخبره أن أباه أوسًا قال إنا لقعود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصُفّة وهو يقص علينا ويذكرنا إذ أتاه رجل فساره فقال: إذهبوا فاقتلوه. فلما ولى الرجل دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أما تشهد أن لا إله إلا الله؟ فقال الرجل: نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذهبوا فخلوا سبيله فإني أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ثم يحرم دماؤهم وأموالهم إلا بحقها[٢٥٠]". وهكذا ورد الحديث إمّا جوابًا على سؤال، أو استئنافًا لمحذوف، وفي الحالتين كان حديث تحريم دماء من شهد بأنّ لا إله إلا الله، وليس تحريضًا على قتال الناس، وكأنّ المقصود أنّ الله –تعالى– لم يبحْ لي إلا أن أقاتل المشركين من الناس، ويبقى السؤال قتالهم على شركهم أم على عدوانهم؟ وقد تقدّم حسم الإمام ابن تيمية تلك المسألة، بقوله: "الدليل الثالث على تحريم قتال من لم يقاتل من الكافرين: (في آية لا إكراه في الدين: هذا نص عام، أنّا لا نكره أحدًا على الدين، فلو كان الكافر يُقتل حتى يسلم، لكان هذا أعظم إكراه على الدين.[٢٥١]"، وقد أشار إلى ذلك القاضي العلامة عبد الكريم الجرافي في "ذخائر علماء اليمن" [اختلف العلماء في سبب قتال الكفار، هل سببه مقتالتهم للمسلمين، وصدهم لهم عن الدين، ودفع شرهم وضرهم عن الموحدين؟ أو سببه مجرد كفرهم، سواء خيف ضرهم وشرهم أو لا؟ على قولين للعلماء: منهم من ذهب إلى الثاني، وهو الشافعي، وهم الأقل، ومنهم من ذهب إلى الأول، وهو مالك وأحمد وأبو حنيفة، وقد حكى القولين في المسألة الموزعي في كتابه "أحكام القرآن"؛ وليس المراد المقاتلة بالفعل، بل متى كان الكافر من أهل القتال الذين يخيفون أهل الإيمان، ومن شأنه أن يُقَاتِل فإنه يحلّ قتله؛ ولذا فإنها لا تقتل المرأة ولا الشيخ الفاني غير ذي الرأي ولا المكفوف؛ لأن القتال للمسلمين ليس من شأنهم، وفي

---

[٢٥٠] أحمد بن محمد بن سلمة، شرح معاني الآثار، ج ٣، (عالم الكتب، ط١، ١٩٩٤، تحقيق محمد زهري النجار ومحمد سيد طنطاوي)، ص٢١٣.

[٢٥١] أحمد بن تيمية، مرجع سابق.

الصحيح أنه صلى الله عليه وآله وسلم مر في بعض مغازيه على امرأة مقتولة فقال: «مَا كَانَت هَذِهِ لتُقَاتِل»؛ فنبَّه على أن علة من يُقتَل كونه ممن يُقاتِل] وليس أدلّ على ذلك من عفوه الشامل عن مشركي مكة حين مكنه الله عز وجل وأظهره عليهم، وقد لاقى وآله وأصحابه منهم ما لاقوا من تعذيب وتقتيل ونكث للعهود؛ فلو كان الأمر الوارد في الحديث الشريف مقصودًا به قتلهم أو إجبارهم على الدخول في الإسلام؛ لسارع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتنفيذ ما أُمِر به! لكن التاريخ سجل لنا بحروف من نور مقالته المشهورة الخالدة: «اذهَبُوا فَأَنتُم الطُّلَقَاء».

فمن هم الناس الذي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم؟ الرواية الصحيحة التي أخرجها الإمام النسائي في "سُننه"، كتاب (تحريم الدم)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»؛ فكلمة المشركين هنا مفسرة لكلمة «النَّاس» في رواية الحديث الذي نحن بصدده[٢٥٢]. وذهب الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري" إلى أن كلمة الناس هي: [من العام الذي أريد به الخاص؛ فيكون المراد بالناس في قوله: «أُقَاتِلُ النَّاسَ»، أي: المشركين.. ويدل عليه رواية النسائي بلفظ: «أُمِرْتُ أن أقاتلَ المُشْرِكِينَ»[٢٥٣]]. يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ الممتحنة٨[٢٥٤].

ويقول د. يوسف القرضاوي: "المراد بالناس في الحديث مشركو العرب. كما قال العلماء، وكما فسره أنس في حديثه، لأن أهل الكتاب يقبل منهم الجزية بنص القرآن.[٢٥٥]".. بقي التنبيه على

---

[٢٥٢] الراوي: أنس بن مالك| المحدث: الألباني| المصدر: صحيح النسائي، الرقم: ٣٩٧٦| خلاصة حكم المحدث: صحيح.

[٢٥٣] الحافظ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، (تحقيق ابن باز، طبعة المعرفة)، ص٧٧.

[٢٥٤] الدكتور شوقي علام، مفتي جمهورية مصر، https://www.elbalad.news/4588415.

[٢٥٥] د. يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التكفير، مرجع سابق، ص٣٣.

التفرقة بين الأمر بالقتل، والأمر بالقتال، وقد نبَّه على هذا المعنى اللُغوي الدقيق بين اللفظين العلامّة بدر الدين العيني في (عمدة القاري)، فقال: "ولا يلزم من إباحة القتال إباحة القتل، لأن باب المفاعلة يستلزم وقوع الفعل من الجانبين، ولا كذلك القتل فافهم.[٢٥٦]"، وقد أورد العلامّة كمال الدين بن حَمْزَة الحُسَيْني في "البيان والتعريف" سبب ورود الحديث الشريف، فقال: "قال القرطبي: هذا قاله في حالة قِتَاله لأهل الأوثان، الذين لا يقرون بالتوحيد".. وقد بيَّن ذلك الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) فقال: "وعلى هذا، ففي الاستدلال بهذا الحديث على قتل تارك الصلاة نظر؛ للفرق بين صيغة "أقاتل" و"أقتل" والله أعلم.[٢٥٧]"، وقد أطنب ابن دقيق العيد في (شرح العمدة) وقال: "لا يلزم من إباحة المقاتلة إباحة القتل؛ لأن المقاتلة مفاعلة تستلزم وقع القتال من الجانبين، ولا كذلك القتل"؛ وحكى البيهقي عن الشافعي أنه قال: "ليس القتال من القتل بسبيل؛ فقد يحلّ قتال الرجل ولا يحل قتله.[٢٥٨]". كما يؤخذ من الحديث كما قال الحافظ ابن حجر: "ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد، الملتزمين للشرائع، وقبوله توبة الكافر من كفره، من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن فإن قيل: مقتضى الحديث قتال كل من امتنع عن التوحيد، فكيف ترك قتال مؤدي الجزية والمعاهد؟[٢٥٩]"..

وأخيرًا ما فائدة إجبار المشرك على الإسلام وحدّ السيف على رقبته؟! الإسلام لا يَخرج منه المُكره، ولو نطق بكلمة الكفر، ولو كانت هذه الكلمة هي سبّ الله تعالى في عُلاه، ورسوله –صلى الله عليه وسلم–، وقد نزل قول الله –تعالى–: "**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ**

[٢٥٦]أبو محمد محمود الغيتابى الحنفي بدر الدين العيني، عمدة القاري، (دار إحياء التراث العربي، بيروت)، ج١، ص١٨١.

[٢٥٧]الحافظ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ص٧٧.

[٢٥٨]الحافظ ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ص٧٦.

[٢٥٩]الحافظ ابن حجر العسقلاني، المرجع السابق، ص٧٧.

عَظِيمٌ" النحل١٠٦، لا معنى ولا جدوى لأن يضمّ الإسلام طائفة من المنافقين، أو المذبذبين، أو الخائفين والمرتعدين من القتل، هؤلاء ماذا يمكنهم أن يقدّموا للإسلام إن انضمّوا إليه؟ أيضيفون غُثاءً إلى غثاء؟! الإسلام مشروع للتحجيز بين الناس والنار.. "**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**" آل عمران١٨٥، ولحديث النبي –صلى الله عليه وسلم–: "وأنا آخُذُ بحُجْزِكُمْ عنِ النارِ".. ما الفائدة التي يقدّمها الإسلام لإنسان مشرك، إن كان سيخرجه من الشرك الذي يُدخله النار، إلى النفاق الذي يجعل مقرّه في الدرك الأسفل من النار؟ هل يجد أحد من الداعين إلى مبدأ الجهاد الهجومي، وآية السيف الناسخة، في إخراج الناس من النار إلى الدرك الأسفل من النار أيّ منطق أو معنى؟!

خامسًا: مراعاة السياق الظرفي والبيئي المحيط بالنصّ: المنهج الإسلامي منظومة متكاملة، تحكمها قيم ومبادئ عُليا، وكل نصّ من النصوص المرجعية في الإسلام قرآن كريم، وسُنّة نبوية ثابتة، يمثّل لَبِنة في بناء ذلك المنهج وتلك المنظومة. وكل نصّ يبدو من ظاهره أنّه يتعارض مع هذا المنهج، لا بدّ من النظر إليه في ضوء سياقه السردي أولا، ثمّ النظر في سياقه الظرفي البيئي المحيط، وهذا منهج أسّس له رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فيما رواه ابن هشام، وابن كثير: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع"، ونحوه في حديث ورد في صحيح أبي داود، حسّنه الألباني، فمقام المعركة غير مقام السلم، ومن ذلك ما ورد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح؛ فأخذت القوم كلمته حتى ما فيهم رجل إلا كأن على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول؛ حتى إنه

ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً. فانصرف صلى الله عليه وسلم.[٢٦٠]". هل يستطيع منصف أن يبني على مثل هذا الحديث أو الحادث العارض، منهجًا متكاملا، أو فهمًا لموقف الإسلام من خصومه، ولو كانوا مشركين؟ إنّنا أمام سياق ظرفي أو بيئي واضح كل الوضوح، مجموعة من المشركين، من رؤوس الفتنة ومجرمي الحرب –بكل معنى من معاني القيم الإنسانية التاريخية والمعاصرة– منهم من قتل سُميّة أول شهيدة بالإسلام، وهي المرأة العزلاء بعد التعذيب، لا لجريمة سوى أنّها قالت ربي الله، وكذلك قتل زوجها ياسر، وعذّبوا ابنهما عمّار عذابًا شديدًا، هم الذين كووا ظهور المسلمين الضعفاء بالنار والأحجار المتّقدة من لهيب شمس بطحاء مكة، وألهبوا ظهورهم بسياط جلاديهم، وتآمروا على قتل النبي –صلى الله عليه وسلم– في غير جريمة، إلا حرية عقيدته، فهم مجرمو حرب بالمعنى الصريح الواضح للمصطلح بتعريفه في عصره وفي كل العصور، وهو مع ذلك وعيد إن لم ينتهوا عن غيّهم، كما توعّدهم القرآن الكريم بعقابهم في الدنيا والآخرة، في مثل قوله تعالى: "**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**" القلم١٦. النصّ إذن خاص بمجموعة من رؤوس الكفر، لا تتخطّاهم إلى قريش، دلّ على ذلك نصوص القرآن المُحكمة، وأفعال النبي –صلى الله عليه وسلم– قطعية الثبوت والدلالة، ولذلك قيل: "بل الواجب التعامل مع هذه الحادثة، وكذلك كل حادثة بمقياسين مهمين رئيسيين ١– السياق الذي جاءت به، ونوع المخاطبين بها، والحادثة التي تفسرها وتبين المقصود منها.

[٢٦٠]رواه أحمد في "المسند" (٦٠٩/١١)، طبعة مؤسسة الرسالة، من رواية الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وحسنه المحققون، والشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند أيضًا، وحسنه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٩/٦)، وكذا الشيخ الألباني في "صحيح الموارد" (١٤٠٣).

٢- النظر في جميع النصوص المتعلقة بالموضوع، والتي من خلالها يمكن الوصول إلى فهم نظرة الإسلام إلى المسألة، وليس من خلال نص واحد فقط.. ومن لم يفعل ذلك ضلَّ وتاه، وباع عقله وفكره لكل ناعق بشبهة، ولكل من يحسن الوسوسة بالشر والفساد[٢٦١]".

أمّا منهج الإسلام الواضح الصريح، فيحدّده القرآن الكريم في قوله تعالى: "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**" الأنبياء١٠٧، "**فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**" الأنعام١٤٧. وأمّا أفعال النبي -صلى الله عليه وسلم- مع قريش وأهلها، فهي متناهية الرأفة والرحمة، وشديدة الخلود والعظمة، ومن ذلك:

١- عفا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قريش، رغم إيذائهم الشديد له، حتى ألجأوه بالخروج إلى الطائف، فجاءه مَلَك الجبال ليُطبق عليهم الأخشبين (جبلان بمكة)، فقال صلى الله عليه وسلم: "أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" رواه البخاري ومسلم.

٢- وعفا أيضًا صلى الله عليه وسلم عن كفّار قريش الذين ظلموا المؤمنين وأكلوا أموالهم بعد فتح مكة، بل وأكرم بعض كبرائهم رجاء حُسن إسلامهم، وذلك حين قال يوم فتح مكة: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ" رواه مسلم.

٣- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ! قَالَ: "إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً" رواه مسلم.

سادسًا: تنقيح التراث من الروايات الموضوعة والضعيفة: إنّ بعض كتب التراث تطفر بالروايات الموضوعة، والضعيفة، والكاذبة، تُنسب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإنّ المتتبّع المدقّق لهذه الروايات يجدها تكاد تؤلّف لإسلام بشري موازٍ لدين الإسلام الذي أنزله

[٢٦١] https://islamqa.info/ar/answers/135590.

المولى –عزّ وجلّ– من فوق سبع سماوات، وحمل أمانة تبليغه وتبيينه والحياة به على وجه الأرض رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وترك الأُمّة على المحجّة البيضاء، فكثُرت الإسرائيليات في شرح قصص القرآن الكريم في كتب التفسير وشروح المفسّرين، وانتشرت الروايات الواهية في كتب المغازي والتاريخ، حتى قال الشيخ محمد الغزالي: "إن العملة المزيفة طردت العملة الصحيحة"، وأقبل كُتّاب السيرة النبوية في العصر الحديث لا سيّما من الذين تربّوا في مدرسة سيد قطب الفكرية، مثل الدكتور منير الغضبان[٢٦٢]، صاحب المنهج الحركي في السيرة النبوية، ينقّبون عن تلك الروايات الواهية، فيتّخذون منها منطلقًا وتأصيلا لفكر يشرعن لعمليات الاغتيال السياسي، وينسبون ذلك لفعل النبي –صلى الله عليه وسلم–، أو أمره، أو إقراره. ومن خلال دراسة ميدانية، لا تكتفي بالدراسة الفكرية النظرية، فقد لاحظ الباحث أنّ أكثر المواقف تأثيرًا في شباب جماعات وتنظيمات الحركة الإسلامية، هي تلك التي ترويها كتب السيرة حول عمليات الاغتيال السياسي، ولا تكاد تجد مجموعة من الشباب الحركي أيًّا كان التنظيم الذي ينتمون إليه، لا يؤصّلون لمنهجهم على كتب سيد قطب، والمنهج الحركي للسيرة لمنير الغضبان، سواء كانوا من الإخوان المسلمين أو الجماعة الإسلامية أو الجهاد، وهؤلاء كانوا محلّ بحثه الميداني لسنوات.. ولذلك أفرد دراسة في السيرة بعنوان: العمليات الخاصة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[٢٦٣]، ولعلّ من تمام مبحث

---

[٢٦٢] الدكتور منير الغضبان، الداعية الإسلامي البارز، المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا سابقًا.

[٢٦٣] علاء سعد حميده، العمليات الخاصة على عهد النبي، جريدة الأمة، https://al-omah.com/%D8%B9%D9%84%D8%A7%D8%A1-%D8%AD%D9%85%D9%8A%D8%AF%D8%A9-%D9%8A%D9%83%D8%AA%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D9%84%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D8%B5%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%AD%D9%8A%D8%A7

تنقيح التراث من المرويات الموضوعة والضعيفة، أن أضع جزءًا ولو يسيرًا من هذا البحث، في هذا المقام:

العمليات الخاصة على عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–، يُسميها بعض الكُتَّاب عمليات الاغتيال، ويتطرَّف آخرون فيُطلقون عليها الاغتيالات السياسية.. وبعض رُواة المغازي يلقِّبونها بالسرايا، كسريّة عبد الله بن أُنيس، وهي إرسال سريّة محدودة العدد للقيام بعملية محدودة للغاية؛ تستهدف قائدًا من قادة الأعداء يُجهِّز جيشًا، أو يجمع أتباعًا أو يؤلّف حلفًا لمداهمة المدينة. وبقتل هذا الزعيم يتفرَّق الجمع، فهي سرايا أو عمليات تستهدف في المقام الأول حقن الدماء، وحفظ الأرواح، وإطفاء نار حرب موشكة النشوب.. لقد أبقى رسول الله ﷺ، على حياة نحو سبعين من صناديد قريش ومنهم مجرمي حرب، أُسروا في بدر، لمّا اختار الفدية على القتل.. أمّا هذه العمليات، فهي:

أولا: عصماء بنت مروان: كانت تحت يزيد بن زيد الخطمي وقاتلها عُمير بن عدي الخطمي.. ذكر هذه القصة أهل السير والمغازي، واستشهد بها شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول، وابن قيّم الجوزية في زاد المعاد، وغيرهما على قتل من سبّ النبي ﷺ، يقول ابن تيمية: ما روي عن ابن عباس قال: هجت امرأة من خطمة النبي ﷺ، فقال: من لي بها، فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله، فنهض فقتلها، فأخبر النبي ﷺ فقال: لا ينتطح فيها عنزان. وقد ذكر بعض أصحاب المغازي وغيرهم قصتها مبسوطة. وهذا خبر موضوع، رواه القضاعي في "مسند الشهاب" (٨٥٦)، والخطيب في "التاريخ" (٩٩/١٣)، وابن عساكر في "تاريخه" (٢٢٤/٥١)، وابن عمر الحربي في "فوائده" (٥٠)، كلهم من طريق محمد بن الحجاج اللَّخمي أبو إبراهيم الواسطي عن مجالد بن سعيد عن الشعبي عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ، وهذا إسناد باطل، وخبر موضوع؛ فراوية محمد بن الحجاج قال عنها البخاري: مُنكَر الحديث. وقال

ابن معين: كذّاب خبيث، وقال الدارقطني: كذَّاب، وقال– مُرَّة: ليس بثقة[٢٦٤]". وقال ابن عدي: "محمد بن الحجاج وضع حديث المرأة التي كانت تهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا قتلت قال: لا تنتطح فيها عنزان[٢٦٥]". والحديث ذكره الشيخ الألباني رحمه الله في "الضعيفة" (٦٠١٣) وقال: "موضوع". ورواه الواقدي في "المغازي" (ص١٧٣)، ومن طريقه القضاعي (٨٥٨) وفيه زيادة تدلّ على أنّ عصماء كانت تحرِّض على النبي، وأنَّ عميرَ بن عدي الخطمي نذر لله قتلها إن عاد النبي من بدر، فقتلها وأقرّه النبي ودعا له بخير. وهذا إسناد تالف، الواقدي – وهو محمد بن عمر بن واقد–: قال الإمام أحمد: هو كذَّاب، يقلب الأحاديث، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال مُرة: لا يُكتب حديثه، وقال البخاري وأبو حاتم: متروك، وقال أبو حاتم أيضًا والنسائي: يضع الحديث، وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه، وقال ابن المديني: الواقدي يضع الحديث[٢٦٦]. وقال النسائي: "الكذَّابون المعروفون بوضع الحديث أربعة: إبراهيم بن أبي يحيى بالمدينة والواقدي ببغداد ومقاتل بخراسان ومحمد بن سعيد بالشام[٢٦٧]". وقال الحافظ الذهبي: "واستقر الإجماع على وهن الواقدي"، حتّى ابن تيمية نفسه عقَّب على إيراد روايته بقوله: "ويُكثر من ذلك إكثارًا يُنسب لأجله إلى المجازفة في الرواية وعدم الضبط، فلم يمكن الاحتجاج بما ينفرد به[٢٦٨]"! فهل تصلح رواية ظنيّة الثبوت مثل هذه الرواية لاستخراج حكم شرعيّ سواء بقتل شاتم النبي أو غيره من الأحكام؟! على أنَّ الواقدي الكذَّاب نفسه جعل من علّة أسباب القتل، التحريض ضدّ النبي، وليس مجرّد الشتم والهجاء.

---

[٢٦٤] شمس الدين الذهبي، ميزان الاعتدال، (٣ /٥٠٩).

[٢٦٥] ابن الجوزي، الموضوعات، (٣ /١٨).

[٢٦٦] شمس الدين الذهبي، مرجع سابق، (٣ /٦٦٣).

[٢٦٧] الحافظ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، (٩ /١٦٣).

[٢٦٨] شيخ الإسلام بن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص٩٨.

ثانيًا: مقتل أبي عفك اليهودي: قال الواقدي: "أنَّ أبا عفك اليهودي كان يقول الشعر في هجو الرسول. وفي ليلة حارّة نام أبو عفك بفناء منزله، وعلم سالم به، فأقبل إليه ووضع سيفه على كبده فقتله[٢٦٩]". ويكفي شكًّا في هذه الرواية أن ينفرد بروايتها الواقدي الكذَّاب الوضَّاع مرسلة!

ثالثًا: كعب بن الأشرف: ورواية مقتل كعب بن الأشرف ثابتة أخرجها البخاري في صحيحه[٢٧٠]. قال ابن جرير: وزعم الواقدي أنهم جاؤوا برأس كعب بن الأشرف إلى رسول الله ﷺ. وإنّي لأعجب والله من بعض كُتَّاب سيرة النبي المعاصرين، يريدون الانتصار لسيرته فيعتمدون على روايات الواقدي الكذَّاب، يتجاهلون رأي أهل العلم والحديث فيه، طالما وافقت رواياته أهواءهم يؤسِّسون لفكر الدم، فرسول الله الذي نهى عن المُثلة بحزم ووضوح، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا. ثُمَّ قَالَ: اُغْزُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ، اُغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا... الحديث" رواهُ مسلم (١٧٣١).. هل يسمح بأن يُلقوا رأس كعب أو غيره أمامه أو في يده؟! أم أنَّها الصورة الذهنية التي يُراد لناشئتنا أن يتشرَّبوها، فيتربّوا وجدانيًّا على العنف ويطربوا للدماء، وتُغذّي مخيّلتهم خيالات قطع الرؤوس، فتلهب عواطفهم وحماستهم، ثمّ يتمّ توظيفهم بعد ذلك للإضرار بالمسلمين، وإلصاق تهمة العنف والتدمير بدينهم؟!

---

[٢٦٩] ابن تيمية، الصارم المسلول على من شتم الرسول، ص١٠٥، باختصار منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة، ج٢.١، ص٣٤٧.

[٢٧٠] ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الرابع، مقتل كعب بن الأشرف. وابن القيم، زاد المعاد، ص٣٩١، من حديث البخاري رقم٤٠٣٧، ومسلم رقم٤٦٦٤.

رابعًا: قتل ابن سنينة: قال ابن إسحاق: حدّثني بهذا الحديث مولى لبني حارثة عن ابنة محيصة عن أبيها[٢٧١]. ولم أجد في سند هذه الرواية ما يقطع بثبوتها!

خامسًا: "قال ابن إسحاق: وغزوة ابن أبي حدرد الأسلمي الغابة. وكان من حديثها فيما بلغني عمن لا أتّهم، عن ابن أبي حدرد، قال: ..."، فهل هذا سند في الرواية يُعوَّل عليه[٢٧٢]؟

ملحوظات عامّة على العمليات الخاصّة

١- عدد العمليّات الخاصّة التي أمكن حصرها من كتب السيرة النبوية والمغازي قديمها وحديثها هو سبع عمليّات؛ لم تثبت منها بالرواية متّصلة السند -على شرط أهل الحديث- إلا ثلاثٌ فقط، وإنَّ أربعًا من هذه الوقائع غير قطعيّة الثبوت.

٢- هذه العمليات الثلاث الثابتة باتصال السند، هي مقتل كعب بن الأشرف في حصنه بالمدينة، وقام بقتله محمد بن مسلمة. وأبو رافع سلام بن الحقيق من زعماء اليهود، وكان قد فرّ من المدينة إلى خيبر يؤلّب على حرب النبي -صلى الله عليه وسلم-. وخالد بن سُفيان الهذلي، وكان من زعماء المشركين بالقرب من عُرنة، وعرفات، وكان يجمع القبائل لحرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وغزو المدينة، وقام بقتله عبد الله بن أنيس. وهؤلاء الثلاثة كما يرى القارئ كانوا زعماء في قومهم، وكانوا يؤلّبون على الحرب.

---

[٢٧١] أوردها ابن هشام في سيرته، ج٣، ص١٩، نقلا عن تاريخ الطبري ٢/٤٩١، وتاريخ الإسلام المغازي.

[٢٧٢] قال يعقوب بن شيبة: سمعت ابن نمير -وذكر ابن إسحاق- فقال: إذا حدَّث عمن سمع منه من المعروفين فهو حسن الحديث صدوق، وإنما أُتي من أنه يحدِّث عن المجهولين أحاديث باطلة، موقع الإسلام سؤال وجواب، المشرف العام الشيخ محمد بن صالح المنجد، https://islamqa.info/ar/148009.

٣- هذه العمليّات اقتصر القيام بها في الفترة من بعد غزوة بدر إلى صلح الحديبية، فلم تتمّ واحدة منها والمسلمون جماعة في مكَّة لا دولة لهم ولا جيش.. فهي عمليات تقوم بها الدولة حال الاحتياج إليها، وليست خاصة بالأفراد أو الجماعات.

٤-هذه العمليّات قطعيّ الرواية منها والظنيّ، لم تستهدف مسلمًا أقرّ بالشهادتين، ولو كان منافقًا معلوم النفاق بالوحي المنزَّل على رسول الله ﷺ.. كان عبد الله بن أُبي بن سلول، منافقًا معلوم النفاق نزلت فيه وفي أتباعه سورة المنافقون، ووصفهم الله -تعالى- بالنفاق والفسق وعدم العلم، ووعدهم بعدم المغفرة، لقد حاول ابن سلول شقّ صفّ جيش المسلمين وهم في غزوة بني المصطَلَق، ثمّ أشاع حديث الإفك؛ أو نوَّه به في عِرض رسول الله، ولقد انسحب قبل ذلك بثُلث جيش المسلمين في أحلك اللحظات، قُبيل غزوة أُحد، وبعدما تحرَّك الجيش خارجًا من المدينة.. إنَّ كلّ جريمة من هذه الجرائم كانت كفيلة بالقضاء على المجتمع الناشئ والدولة الناشئة للمسلمين، ماذا لو تعرَّض المسلمون لهزيمة ساحقة ماحقة في أُحد بسبب انسحاب ثُلث الجيش؟ هل كانت ستقوم للإسلام بعد ذلك قائمة؟! فهل أضرّ المسلمين رجلٌ مثل هذا الضرر في تاريخ الإسلام كلّه، يتخفَّى خلف نُطْق الشهادتين؟ إنّ أيّ قائد عسكريّ اليوم ينسحب بوحدته من أرض المعركة، لا بدّ أن يُحاكم بالقوانين العسكريّة، ويُعدم رميًا بالرصاص في الميدان، ورغم ذلك لم يأمر النبي ﷺ بقتله، وقال: "بل نترفَّق به ونحسن صحبته ما صحبنا[٢٧٣]"، وقال لعمر: "لا تُحدِّث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه" (رواه البخاري). ولم يكتفِ النبي بحقن دماء المنافقين، بل حفظ أعراضهم إذ لم يُخبر بأسمائهم وأسرَّ بها إلى حذيفة بن اليمان وحده[٢٧٤]!

---

[٢٧٣] البيهقي، حديث مرفوع، دلائل النبوة، رقم ١٤٣٩.

[٢٧٤] شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٢ / ٣٦٢-٣٦٤).

هذا فعل النبي الذي عليه أُنزل القرآن؛ وفي آياته البيّنات أنَّهم في الدرك الأسفل من النار، ووصفهم تعالى: "**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**" المنافقون٣، وحذَّر منهم: "**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**" المنافقون٤، إنَّ فعل النبي ﷺ مع المنافقين، أبلغ ردّ على كلّ من تسوّل له نفسه استباحة حُرمة الدماء تحت أيّ دعوى من الدعاوى، وليبقَى السؤال أمام عينيه دائمًا قائمًا: هل يوجد في مسلمي اليوم من أهم أشدّ شقاقًا لرسول الله ولدين الله من ابن سلول وجماعته؟!

٥- لم تستهدف هذه العمليّات مُعاهدًا مقيمًا في حدود مجتمع ودولة النبي، بحيث إذا نقض عهدًا أمكن محاكمته إلى وثيقة المدينة المبرمة بين النبي الكريم والمعاهدين من يهود ووثنيّين.. وقد كان كعب بن الأشرف -على خلاف بين الرواة هل كان معاهدًا أم لا- يقيم في حصن كعب بن الأشرف خلف سور، ممّا يُعتبر خارج حدود سُلطة المسلمين على المدينة.. لم تحدث عمليّة واحدة داخل حدود مجتمع المسلمين في وجود حلفائهم من غير المسلمين، فكانت كلها عمليّات أقرب إلى ضربات استباقيّة في معسكرات جيوش الأعداء.. وذلك يأتي مستقيمًا مع منهج منع القيام بتلك العمليّات الخاصّة، قبل بسط السُلطة على المجتمع، فالخارج عن النظام تحت ولاية سُلطة الإسلام ومجتمعه، تتمّ محاكمته بدلا من تصفيته خارج القانون. على أن تكون المحاكمة عادلة يتمتَّع فيها المتّهم بقدرته على الدفاع عن نفسه، لقد أفشى الصحابي حاطب بن أبي بلتعة سرّ تحرُّك جيش رسول الله إلى مكَّة. وهو بمثابة إفشاء أسرار عسكريّة، يستحقّ المتّهم بها في عالم اليوم محاكمة عسكريّة، وحكمًا نافذًا بالإعدام إن ثبتت إدانته، ولقد ثبتت إدانة حاطب، لكنَّه اعتذر بحرج موقفه وموقف آل بيته داخل مكة، فأقال النبي عثرته، وعفا عنه.

٦- لم تستهدف هذه العمليّات مشركًا ولا يهوديًّا بسبب عقيدته، فلقد عايش اليهود المعاهدون النبي والمسلمين في المدينة، فلم يحاربهم المسلمون، إلا بعدما بدأوا هم بنقض العهد، بل لم يأخذ بني النضير بجريرة بني قينقاع؛ وهكذا.. ووفَد أبو سفيان على المدينة محاولا تمديد مدَّة صلح الحُديبية، بعد غدر حُلفائهم بني بكر بخزاعة حلفاء المسلمين، فلم يُجَب إلى طلبه، ولم يُستهدف من قِبل المسلمين.. فهذه العمليّات لم تستهدف سوى الزعماء الذين جمعوا لحرب المسلمين، وبقتلهم تَفرَّق جمعهم.

٧- لم يثبت في رواية واحدة متّصلة السند -بشروط أهل علم الحديث- أنَّ سرايا رسول الله ﷺ في تلك العمليّات الخاصّة، قطعت رأس أحد المقتولين، ولا جاءت بها إلى النبي.

سابعًا: الإرهاب في الإسلام.. هل يُقرّ الإسلام الإرهاب؟ كيف لا وقد نزل النصّ القرآني الصريح بقوله تعالى: "**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**" الأنفال٦٠؟ قال الطبري في تفسير الآية الكريمة: تخيفون بإعدادكم ذلك عدوَّ الله وعدوكم من المشركين. وقال فيها ابن كثير: ترهبون أي: تخوّفون **(به عدو الله وعدوكم)** أي من الكفّار، **(وآخرين من دونهم)** قال مجاهد: يعني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور... وقال مقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون.. وقال القرطبي: قوله تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم)، يعني تخيفون به عدو الله وعدوكم من اليهود وقريش وكفّار العرب. وآخرين من دونهم يعني فارس والروم.

بمراجعة التفاسير السابقة للآية الكريمة، يجب أن أقرّر مطمئنًّا أنَّه لا إرهاب في الإسلام. والآية الكريمة تأمر المسلمين -مجتمعًا وأُمّة- أن تُحقِّق نظريّة الردْع الاستراتيجي وفق المفهوم السياسي والعسكري، بتحقيق توازن القوى الذي يمنع العدو من الإقدام على العدوان خوفًا من

العواقب. فالمخاطَب بالإعداد في الآية، هم الأُمّة في ظلال غزوة بدر، والخطاب عسكريّ بامتياز، لا يختصّ بأفراد المسلمين، والأمر بالردع موجَّه فيها إلى أعداء الأُمّة، مثل قوله تعالى: "**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**" البقرة١٩٤، فليس المخاطَب بالأمر المسلم الفرد دون توجيهٍ من ولي أمر تُجمع عليه الأمّة، ولا هو موجّه لردع مسلم آخر –ينطق بالشهادتين– يختلف معه في الرؤية، أو الفكر، أو ينازعه السلطان، ولو كان عاصيًا.

ونفهم من هذه الآية الكريمة والتوجيهات الربانية فيها:

١– أنّ المُخاطَب بها الأُمّة لا الأفراد، وهذا متفّق عليه بين المفسّرين والعلماء، وهذا تطبيق سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. لقد كان خطر استئصال رسالة الإسلام أكبر وأشد والرسول –صلى الله عليه وسلم– يعيش في مكّة المكرّمة، فهو يعيش بين أركان المجتمع الجاهلي المشرك المعاند، وحوله طائفة قليلة العدد ضعيفة القوة، متواضعة المكانة من المسلمين، وكلّهم كانوا يتعرّضون لتعذيب سادات مشركي قريش.. ولقد تآمروا على قتل النبي، ولو أنهم نجحوا في ذلك لاستأصلوا شأفة الإسلام من الوجود.. الخطر الكامن في مكة إذن أعظم وأكبر، وقد كان القرآن الكريم يتنزّل طيلة ثلاثة عشر عامًا عُمر البعثة النبوية في مكة، فلم يأمر بإعداد قوة، ولا قتال، ولا قتل رؤوس الكفر –الذين سيُقتلون لاحقًا في غزوة بدر– ولا إرهاب المشركين. وتأجّل نزول الأمر بإعداد القوة إلى ما بعد الهجرة، وحماية النبي –صلى الله عليه وسلم– متوفرة بتعاضد الأنصار والمهاجرين.. ليس لذلك معنى سوى أنّ إعداد القوة تقوم به الأمّة التي تقودها سُلطة.. وليس آحاد الناس.

٢- إنّ الآية الكريمة تأمر بتحقيق نظرية الردع الاستراتيجي، أو السلام القائم على التوازن العسكري. فإعداد القوة، ينهي الأعداء عن الطمع في سهولة الاعتداء على عدوّهم خوفًا من تكافؤ القوى، الذي يكلّفهم الكثير من التضحيات.

٣- استخدام الأمر "تُرهبون"، وليس (تعتدون) أو(تقاتلون)، يؤكّد أنّ الهدف هو تحقيق السلام الاستراتيجي القائم على توازن القوى.

المبحث الثاني: التطبيع مع الغلوّ والتطرّف

تعاني المجتمعات المسلمة في العصر الحديث من آفة خطيرة، وهي آفة التطبيع مع أفكار ومناهج ودعاة وجماعات الغلوّ والتطرّف. إنّ كثرة كثيرة من علماء الإسلام ودعاته وأئمته الكبار الذين يفهمون الإسلام ويبشّرون به كما أنزله الله –تعالى–، وكما بلّغ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، خلوًّا من كل لون من ألوان الغلوّ والتطرّف والميل إلى العنف، ويفنّدون أفكار العنف، وأُطروحات جماعات الغلوّ والعنف، تجدهم في معظم كتاباتهم يقعون في حرج شخصي بالغ، متأرجحين بين أحكام الإسلام الصحيحة في مسائل الغلوّ والتطرّف، وتعاطفهم مع دُعاة الغلوّ، يدفعهم إلى ذلك عوامل شتّى منها:

١ – شعورهم بالمظلومية السياسية والحقوقية التي يتعرّض لها كثير –إن لم يكن كل– من دُعاة الغلوّ والمنتمين إلى تياره وتنظيماته الحركية، بحيث يتمّ عقاب هؤلاء عادة خارج نطاق القانون. وتعجز العديد من الدول عن وضع قوانين واضحة تفرّق بين حرية الفكر والاعتقاد، ونشر الفكر بطريقة علنية على أن يواجَه دائمًا بفكر مقابل، وأن تكون القوانين واضحة وصارمة في مواجهة أشكال العمل غير القانوني، وارتكاب الجرائم الواقعية أو التحريض الصريح عليها، أو الإئتمار على تنفيذها، أو تأسيس كيانات سياسية أو اجتماعية خارج نطاق القانون.. حتّى يميز الله – تعالى– الخبيث من الطيب. وتتباين حرية الفكر، مع فوضى مخالفة القانون تحت كل دعوى.. فصاحب الفكر ولو كان منحرفًا يواجَه بالفكر والمناظرة والنقد، دون إلجائه إلى أن يتخفّى بفكره المعوّج في سراديب سريّة، يجتذب إليها الشباب المتحمّس الراغب في خدمة دينه والطامح لإعادة مجد إسلامه، فيتمّ تغذيته بأفكار لا تصمد في الحقيقة أمام النقد الجريء الأمين، والتوجيه المستقيم الصادق.. أمّا أن يُسجن المرء أو يعذّب، وينتشر بين الناس أنّه سُجِن لفكره ومعتقداته، لا لمخالفته الواضحة البيّنة للقانون، فهنا تحدث البلبلة، ويتم التعاطف مع

المنحرفين. بل إنّ إحدى جماعات الإسلام الحركي تجيد التعامل النفسي مع الشعوب والمجتمعات باستخدام ورقة المظلومية السياسية، واضطهاد قواعدها وملاحقتهم أمنيًّا، كل هذا يحوّل طبيعة التنافس بينها والكيانات الأخرى في المجتمع، من التنافس على الأفكار والأطروحات والبرامج، إلى الجانب العاطفي وحده، فتكسب أصوات الناخبين، بصرف النظر عن الاقتناعات العقلية لهؤلاء الناخبين لمدى صلاحية أطروحات تلك الجماعة، التي تربح بالمظلومية ما لم يمكن لها أن تربح معشاره بالفكر والعمل.

٢ – تثمين العلماء والدعاة والأئمة المنصفين من دُعاة الإسلام الصافي، لجهود وتضحيات أعضاء تنظيمات الإسلام الحركي الحديثة والمعاصرة، فلقد تحرّك هذا الإسلام الحديث في مساحات كانت متروكة، ووصل إلى آفاق عديدة بعيدة، كما أحيا قضايا تعبدية وسُننية كادت أن تنطمس في المجتمعات، كما أنّه بعث الحياة في الإسلام في أوساط علمية وأكاديمية وسياسية واقتصادية كادت تسلّم قياد نفسها وأزمّة أمورها بالكامل لنهضة الغرب والشرق بعيدًا عن جذورها وهويّتها، فأبقى الجدل الدائر حول الإسلام الحركي على حيوية إسلام الشعوب، ولا شكّ أنّه رغم المآخذ الفكرية على جماعات وتنظيمات الإسلام الحركي، فإنّ للمنتمين لها أيادٍ بيضاء كثيرة في مختلف نواحي الحياة، مشاركة في العمل العام، والتكافل الاجتماعي، والعمل التطوّعي، والسلوك الشخصي النظيف في أغلبه.. كل ذلك جعل من المُحرج، بل ومن العسير على كثير من العلماء والدُعاة، مواجهة أفكار وأطروحات الغلوّ والتطرّف عند تنظيمات الإسلام الحركي مواجهة علنية واضحة وصريحة بلا تودّد أو تعاطف، أو مجاملة، فجاء أغلب النقد لتلك الأفكار ليّنًا، هيّنًا، يمشي على استحياء، ويقدّم بين يديه عشرات المقدّمات من ذكر المحاسن والمناقب، فيظنّ المتلقّي أنّ نفع تلك التنظيمات والجماعات أكثر من ضررها، وهذا في حدّ ذاته يشكّل روافد متدفّقة لإمدادها بالشباب والطاقات.

٣ – التطرّف الغربي والتعصّب ضد الإسلام والرموز الإسلامية، والانحياز التامّ لأعداء الأُمّة من الصهاينة والمعتدين، أتباع سياسة الكيل بمكاييل متعدّدة من قِبل المجتمع الدولي تجاه قضايا المسلمين في العالم، مع التطرّف والغلوّ العلماني، ودُعاة الأطروحات اللادينية في المجتمعات المسلمة، وهجوم نخبتهم وإعلامهم على الثوابت والمقدّسات الإسلامية، والهزء منها والدعوة الصريحة إلى التخلّي عن الأصول والثوابت الإسلامية، تضع العلماء والدُعاة في حرج، فيميل بعضهم –ولو نفسيًا وشعوريًا– مع تطرّف ضد تطرّف هؤلاء، وغلوّ ضد غلوّهم، ويتعاطفون مع دُعاة الغلوّ الإسلامي ولو من باب إغاظة الخصوم والأعداء.

٤– انتشار الفكر الحركي انتشارًا واسعًا، وهيمنته على نقاط الحراك الفكري والسياسي والاجتماعي في المجتمعات المختلفة، بسبب دأب ونشاط ودقّة تنظيم، وسرعة حركة المتبنّين له، وكثرة بذلهم في سبيل انتشاره وترسيخه، مع امتلاك القدرات المالية الضخمة، متمثّلة في الدعم البترولي في نشر الأفكار، خاصّة أطروحات الحركة الوهّابية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وتصدير تلك الأطروحات إلى آفاق بعيدة عن طريق نشر آلاف الكتب والمواد المسجّلة، وبناء المساجد والمراكز الدعوية في مختلف أنحاء العالم، في عصر ما قبل الفضائيات المفتوحة والإنترنت، هذا الانتشار الكثيف سيطر على الحالة الفكرية والدعوية العامة وخبا صوت المؤسّسات الدعوية التقليدية أمام سيل هذا التيّار المتدفّق.

٥– سيطرة أبناء هذه الأطروحات الغالية المتطرّفة على كثير من مراكز صناعة وصياغة العقل المسلم في مراكز البحث والنشر والإعلام في العالم (دور نشر، وصحف، وفضائيات، ومراكز بحثية، ومراكز دعوية، ومدارس خاصة تعليمية، ومواقع إنترنت)، مما يصعّب مهمّة العلماء والدعاة المستقلّين عن هذه المراكز والأطروحات في نشر أبحاثهم وطرح رؤاهم، وتبليغ علمهم. والنظرة المدقّقة المتأنّية المنصفة لمراكز صياغة العقل المسلم اليوم، تجدها تحت سيطرة

الفكر الوهّابي أو الإخواني أو الجهادي، كل ذلك داخل معسكر صياغة الفكر الإسلامي، في مواجهة معسكر نشر العلمانية والتغريب واللادينية، فيجد العلماء المنصفون أنفسهم بين سندان الغلاة ومطرقة العلمانيين.

تطول الأسباب المؤدّية إلى سيادة حالة فكرية واجتماعية تستسلم للتطبيع مع أفكار وأطروحات الغلوّ والتطرّف، صانعة بيئة خصبة داعمة لزيادة نموّ الظاهرة، بدلا من حصارها ومحاولة تقليص دورها إلى حدّه الأدنى، ويظلّ العلماء والدُعاة يتأرجحون في نقدهم الهيّن الليّن الضعيف وغير الحاسم في مواجهة الظاهرة، لتُنتج لنا كتابات نقدية على هذا النحو:

يقول الشيخ القرضاوي: "إن هذا الغلو الذي انتهى بهؤلاء الشباب المخلصين الغيورين على دينهم إلى تكفير من خالفهم من المسلمين واستباحة دمهم وأموالهم، هو نفسه الذي انتهى بالخوارج إلى مثل ذلك وأكثر منه.... ولكن لم ينفعهم العمل وطول التعبد وحسن النية، لأنهم ساروا في غير الاتجاه المستقيم، ومن سار في غير الاتجاه المنشود لم يزده طول السير إلا بعدًا عن الهدف، ولا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى[٢٧٥]".. لاحظ لين القول وتقديم حُسن الظن.. ويقول: "أن هؤلاء المكفرين –في مجموعهم– أناس متدينون مخلصون، صوامون قوامون، غيورون، قد هزهم ما يرونه في المجتمع من ردة فكرية، وتحلل خلقي، وفساد اجتماعي، واستبداد سياسي.. فهم طلاب إصلاح حريصون على هداية أمتهم، وإن أخطأوا الطريق وضلوا السبيل. فينبغي أن نقدر دوافعهم الطيبة، ولا نصورهم في صورة سباع ذات مخالب وأنياب، تريد أن تنقض على المجتمع، فتهدمه وتجعله يبابًا![٢٧٦]"..

[٢٧٥] يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التكفير، مرجع سابق، ص١١–١٢.

[٢٧٦] يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص٢١–٢٢.

ويقول الشيخ محمد الغزالي، وهو أشدّ العلماء تحاملا على أصحاب الأفكار المنحرفة: "إن أحزاب الكفر تفتري الكثير على الله، وتوغل في ضلالها، ولكنك لست حاكمًا عسكريًا تعالج بعصاك نواصي الخاطئين! إنك معلم تحارب الجهل، ومذكر تطارد الغفلات، ومعك كتاب دارس لعلل القلوب، خبير بمهاربها عندما تفاجأ بما لم تألف: **(فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)** ق٤٥، المشكلة في نظري أن بعض الدعاة لا يدري نفاسة ما عنده بل ربما كانت قدرته على الإماتة أظهر من قدرته على الإحياء.[٢٧٧]"، ورغم كون الشيخ محمد الغزالي من أشدّ الكتّاب حملة على أصحاب الانحراف في الفكر، وشدّة وتغليظًا عليهم، وتسفيهًا لأطروحاتهم ورؤاهم، وذمًّا لغلوّهم وقدحًا في تطرّفهم، لكنّه لا يعدم المبرّر الذي وجدناه حائلا بين العلماء عمومًا وبين شدّة النكير على الغلاة والمتطرفين، وذلك في مقابل تطرّف وغلوّ أحزاب الكفر – حسب وصفه–..

أمّا وحيد الدين خان، وكان ممن شدّد في نقده على أطروحات المودودي في كتابه خطأ في التفسير، يقول فيما يشبه إهداء الكتاب: "إنه لأمر شاق علي أن يطبع هذا الكتاب.. كم وددت أن أخلو بنفسي بعد طباعته في مكان لا يراني فيه أحد حتى ألقى الله عز وجل...[٢٧٨]".

ويتناول الشيخ أبو الحسن الندوي في مقدمة كتابه التفسير السياسي للإسلام، والذي وضعه كنقد موضوعي مُنصف لكتاب المصطلحات الأربعة في القرآن لأبي الأعلى المودودي، الأسباب التي تجعل غالبية العلماء والدعاة في حرجٍ بالغ من تناول أفكار الغلوّ والتطرّف والانحراف، بالنقد والتوجيه، ممّا يؤصّل لمبدأ التطبيع الدعوي والاجتماعي والنفسي مع الغلوّ والتطرّف، وتهيئة البيئة اللوجيستية لتمدّدها وانتشارها في ربوع العالم، يقول: "وقد أجلنا هذا العمل سنين

[٢٧٧] محمد الغزالي، جهاد الدعوة، مرجع سابق، ص٩.

[٢٧٨] وحيد الدين خان، خطأ في التفسير، مرجع سابق.

طوالا رغم حوافز ملحة كثيرة إلى تحقيقها وأسئلة كانت تردد من جهات مختلفة عن الجماعة وأسسها الفكرية، وعن طبيعة الاختلاف لها، وأسبابه، والكتابة في هذا الموضوع شائك دقيق، فله اتصال وثيق بمجموعة حبيبة من الإخوان الكرام، والزملاء الفضلاء الذين يساهمهم المؤلف في كثير من مجالات العمل الإسلامي، والكفاح في سبيل القضايا الإسلامية، واتصال وثيق بالحركة التي لا ينكر فضلها في إيقاظ الفكر الإسلامي، وإعادة الثقة إلى نفوس كثير من الشباب بصلاحية الإسلام، والقوة الكامنة فيه للقيادة في هذا العصر، وكذلك كان المؤلف لا يأمن أن يستغل هذا البحث لبعض مصالح سياسية أو حزبية، أو يحمل ذلك على اتجاهات شخصية، أو ردود فعل لا يسلم منها الإنسان إلا إذا عصمه الله. وإذا كان هذا هو الشأن للحديث في هذ الموضوع شائك محرج، ومثير للتشككات والتساؤلات الكثيرة، وقد سهل إلى الناس الاسترسال إليها والتوسع فيها، وصعب عليهم حسن الظن بصاحبه، والتماس العذر له، وقد طال العهد بالنقد البريء النزيه، المجرد من الأغراض السياسية والدوافع الشخصية، الذي لم يكن يبتغي به إلا وجه الله، وحب هذا الدين الذي هو مصدر كل خير وسعادة، وعزة وقوة، وإيثاره على الأشخاص والجماعات، والرئاسات والقيادات، وعلى أصحاب المواقف المحمودة، والمآثر الجليلة في الدعوة والتربية، والجهاد والبطولات، كما كان شأن أئمة الجرح والتعديل من المحدثين، في أمر كبار الصالحين، والزهاد والمثقفين، وأئمة فن التزكية والتربية وأمراء الجيوش الإسلامية، وقادة الفتح، وخلفاء المسلمين. وقد أضاف إلى هذا منهج المؤلف الذي التزمه في تأليفه كان منهجًا علميًا يتسم بالإيجابية والهدوء، والابتعاد عن المسائل الخلافية والمناقشات اللفظية، وإذا كان ولا بد من ذلك تعرض له جانبيًا، ثم عاد إلى خطه الأول من الحديث في المبادئ والأسس، والأهداف والغايات، ولم يكن من السهل عليه، والمرغوب له، العدول عن هذا المنهج الذي آثره لنفسه وحافظ عليه طوال حياته. ولم يقدم المؤلف إلى هذا البحث إلا حين عرف وعاشر كثيرًا من الذين تخرجوا في المدرسة الفكرية التي تقوم على كتابات الأستاذ

المودودي وحدها، وتعتمد على فهمه للدين، وتفسيره له، ورضعوا لبانها، ونشأوا في أحضانها، لا يدينون في ثقافتهم الدينية وفهمهم لحقيقة الدين لمدرسة دينية أخرى –بمعنى المدرسة الواسع– أو لمكتبة إسلامية أخرى بمعنى المكتبة الواسع وإذا كان لهما نصيب في عقليتهم وثقافتهم الدينية، فهو نصيب ضئيل سطحي، وأفزعته اتجاهات فكرية، وفهوم وتفسيرات للدين بدت طلائعها في الحديث والكتابة، والفكر والتأليف، والعمل والتطبيق، وخاف أن تنشأ طبقة أو مجتمع فيه عدد كبير من الشباب الأذكياء المثقفين، والعاملين لمجد الإسلام المخلصين، من أصحاب الهمة العالية، والنظر البعيد، والإيثار وروح التضحية، في خدمة الإسلام والمسلمين، على منهج يختلف عن المنهج الإسلامي الأول في الروح والدوافع، والنفسية والعقلية، والأهداف والغايات، والمثل والقيم، ويضعف ما جاهد له الرسول وأصحابه، من إخلاص الدين لله، والعمل للآخرة، وروح الإيمان والاحتساب المسيطرة على الحياة كلها، السارية في الأعمال والتصرفات بأسرها، ويتحول هذا الكفاح إلى مجرد عملية تنظيم جماعي، أو محاولة الحصول على الحكم والسلطان للمسلمين، وقد يكون تحولا لا رجعة بعده إلى الأصل والمصدر، كما جرب ذلك مرارًا في تاريخ الأديان والفرق، والدعوات والحركات، فأقبلنا –مضطرين علم الله– على التنبيه على هذا الخطر –ولو كان غامضًا أو بعيدًا– فالحب يبعث على الإشفاق، والنصح يدفع إلى الإنذار.[٢٧٩]"..

لقد أجّل أبو الحسن الندوي نشر نقده لكتاب المصطلحات الأربعة في القرآن قرابة أربعين عامًا، ظهر كتاب المصطلحات الأربعة عام ١٩٤١، بينما التفسير السياسي للإسلام عام ١٩٧٨، بسبب الحرج من نقد المودودي.. وربّما دفعته المعايشة الميدانية مع أبناء الجماعة الإسلامية المؤمنين بأطروحات المودودي دفعًا إلى نشر نقده المطوّل خوفًا من انحراف الفكر الإسلامي

[٢٧٩] أبو الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام، مرجع سابق، ص١٦–٢٠.

عن المنهج الأصيل.. الندوي واضح صريح في تبيان هذه الحقيقة تمام الوضوح.. وإلى نحو ذلك فعل القرضاوي مع أطروحات سيد قطب، فبين إثارته للموضوع أول مرّة بشكل علمي مستقلّ كانت في عام ١٩٧٧ مع صدور رسالة ظاهرة الغلو في التكفير، ولم يصرّح فيها باسم سيد قطب صراحة.. بل تلميحًا خفيًّا.. وجهره بنقده في صراحة ووضوح مفنّدًا أطروحاته التكفيرية عام ٢٠١٥، ومهّد لذلك أنّه وسعه الصمت على هذا التفصيل لو أنّ تلاميذ سيد قطب وسعهم السكوت عن رأي الشيخ في كتابات سيد قطب الذي ظهر قبل ذلك بعدّة سنوات!

والقرضاوي وغيره من العلماء أشاروا إلى أنّ المستشار حسن الهضيبي، تجنّب ذكر اسم سيد قطب صراحة في كتابه دعاة لا قضاة، واكتفى بالإشارة إلى المودودي ومصطلحاته الأربعة، رغم أنّ الكتاب كان يردّ على فكر المودودي وقطب معًا!

أليس ذلك تطبيعًا مع أفكار الغلوّ والتطرّف؟ إنّ القارئ إذا اختار أي اسم من أسماء العلماء أو الدعاة الذين ليس لهم خصومات شخصية أو سياسية مع مفكري تنظيمات الإسلام الحركي أو جماعاته، وسألهم عن هذه الأطروحات لكان الجواب الغالب الأعمّ يثني على فكرهم وجهادهم.. لا يوجد مسلم منصف عاقل ضد لين القول عند النقد، ولا الإنصاف والعدالة والموضوعية في الحُكم على الأفكار والكيانات.. هذا كله مطلوب وممدوح، لكنّ غير المطلوب أن يعدل ذلك عن الموضوعية والإنصاف إلى التطبيع مع الغلوّ والتطرّف وجذورهما.

المبحث الثالث: دور المؤسّسات التعليمية في وضع استراتيجية لمواجهة أطروحات الغلوّ والتطرّف

إنّ الغلوّ والتطرّف يمثّلان ظاهرة خطيرة، في فكرنا الإسلامي، ولا يحسبنّ أحدٌ أنّ فكر الغلوّ والتطرّف ما هو إلا رغبة شخصية في تحقيق الكمال المُمكن في تطبيق الإسلام على الذات والمجتمع، أو البلوغ إلى حد المثالية في الشخصية المسلمة، كما ظنّ هؤلاء النفر الذين سألوا عن عبادة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ثم قالوا في أنفسهم: هذا رسول الله أفضل الخلق وسيد المرسلين، وقد غفر الله –تعالى– ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، ورأَوا أنّ من الواجب عليهم ليبلُغوا مقام النبي في الجنّة ويرافقوه فيها، أن يزيدوا في عبادتهم على عبادته، فنذر أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام، والثاني أن يصوم الدهر، والثالث أن يعتزل النساء، فنهاهم الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن ذلك، وعرّفهم أنّه يقوم من الليل وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوّج النساء، وجعل كل ذلك من سُنته، بل وحذّر من الرغبة عنها وتجاوزها، فقال: "من رغب عن سُنتي فليس مني" أخرجه: البخاري (٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم (١٤٠١). والعجيب أنّ هذا التحذير من الإعراض عن سُنّة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، لم ينطلق في وجه المقصّرين في حقّها المتهاونين في أدائها كاملة غير منقوصة، وإنّما انطلق في وجه الذين أرادوا الغلوّ فيها، والمغالاة في العبادة، وذلك لأنّ هؤلاء الشباب كانوا يؤصّلون من غير أن يحتسبوا أو يقصدوا إلى منهج جديد للتشدّد والغلوّ في الدين، يأباه ربُّ الدين والناس –سبحانه–، ويرفضه رسول الله مبلّغ الرسالة والدين. ولذلك حذّر القرآن الكريم من الغلوّ، وحذّر الحديث الشريف من الغلوّ.. إنّنا تجاه هذه المسألة التعليمية أمام مدرستين، مدرسة تنادي بتخفيف الحمولة الدينية في المناهج التعليمية للمراحل المختلفة، على اعتبار أنّ التوجّه المبكّر للدراسة الدينية يوجّه الأطفال ناحية

التعصّب الديني، وعدم قبول الآخر، والتحمّل بمفاهيم إقصائية، أو على أقل تقدير تتنافى مع القيَم الحديثة للتعايش المشترك، خاصة في المجتمعات ذات التعدّدية الدينية للسكان.

ولقد استجابت لضغوط ودعاية تلك المدرسة بعض مؤسّسات التعليم في بعض الدول العربية والإسلامية، وتمّ حذف بعض الآيات القرآنية من مناهج التربية الدينية، وتغيير وتعديل بعض المقرّرات، وكما يقول الدكتور محمد عبد الله العلي، الرئيس التنفيذي ومؤسّس ترينذز للبحوث والاستشارات: "تعكس هذه النتائج من جهة كل التغيّرات التي حدثت في السنوات الأخيرة في مجال السياسات التعليمية من مناهج وطُرق تدريس وسياسات توظيف في هذا القطاع، إذ تم تغيير محتويات كثير من المواد ذات الصلة بالتربية والقيم مثل محتويات كتب التربية المدنية والدينية، وإدخال مواد تعليمية جديدة مثل التربية الأخلاقية، كما أنّه جرى تنفيذ العديد من المبادرات والاتفاقيات مع مؤسّسات مجتمعية وحكومية (وزارة الداخلية مثلا) تصبو كلها إلى هدف توعية النشء وحمايته من مخاطر التطرف والإرهاب[٢٨٠]". وهذا نموذج واحد من نماذج تعديل مناهج التربية الدينية بالمدارس في بعض دول العالم العربي والإسلامي، وهذه المدرسة مردود عليها بردود منطقية كثيرة منها:

١ – إنّ التعليم والتوجيه الديني الصحيح هو الذي يحفظ الناشئة من الانحراف العقدي والخُلقي والسلوكي والفكري على السواء، فالتربية والتعليم التي تهدف لتنشئة المواطن الصالح ترتبط في كل مجتمع بقيمه ومبادئه العليا، وثقافته وتاريخه وتقاليده، وفي حالة المجتمع المسلم، فإن القيَم والمبادئ العُليا منبثقة من الإسلام ذاته، ومرتبطة بمجموعة من المحدّدات يحدّدها منهج

[٢٨٠] الدكتور محمد عبد الله العلي، المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية لمؤسسات التعليم في مواجهة التطرف والإرهاب: دولة الإمارات العربية المتحدة نموذجًا، https://trendsresearch.org/ar/insight.

الإسلام، وأي تربية وتعليم تعمل خارج هذا الإطار فهي تربية وتنشئة في الفراغ، كمن يبني بناءً في الهواء بلا أعمدة ولا أُسس.

٢ – لا يمكن فصم نشء المجتمع عن عقيدته وقيمه وثقافته وتقاليده، إلا ونشأ غريبًا تائهًا لا يشعر تجاه وطنه ومجتمعه بالانتماء والولاء والمحبّة.. ليس هذا فحسب، بل إنّك إذ ذاك تصنع قطيعة بين هذا النشء والبيئة الاجتماعية المحيطة به، فكأنّه يعتنق قيَمًا لا يعتنقونها، ويؤمن بمبادئ تختلف عن مبادئهم، ويصنع عادات وسلوكيات تصنع خصومة وعزلة بينه وهذه البيئة الاجتماعية، وربّما تصنع صراعًا بينه وتلك البيئة، وهم أهلهم وجيرانهم ومجتمعهم!

٣ – إنّ الجهل بالدين يخلي العقل والنفس فتكون عرضة للامتلاء بأفكار كل ناعق ملحدًا كان أو متطرّفًا.. يقول د. حازم علي ماهر: "والحقيقة أن الفكرة التي تتحكم في المتطرف لا تتحكم فيه إلا إذا صادفت لديه جهلاً أو عصبية أو وجدت عقله خاويًا من القدرة على التفكير النقدي السليم لتمييز الغث من الأفكار عن السمين. أمّا الجهل فهو مرض فكري وديني وثقافي بصفة عامة، له مظاهره التي قد تعمُّ كلَّ حالات الغلو والتطرف تقريبًا، فلا تكاد تخلو حالة منها من جهل متعلق بسوء فهم النصوص دون امتلاك الأدوات اللازمة للتمكن من ذلك، أو بخلل في تقدير الواقع، أو بالخلط والالتباس في فهم المصطلحات، أو بعدم القدرة على إدراك الأولويات والموازنات والسنن والتاريخ.. إلخ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض.[٢٨١]".

٢ – جُلّ زعماء مصر –على سبيل المثال– الذين يذكرهم التاريخ الحديث، (أحمد عرابي، ومحمود سامي البارودي، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وطه حسين، وغيرهم) تجد في ترجمتهم أنّهم حفظوا القرآن في سنٍّ مبكرة، ولم يخرج منهم زعيم متطرّف أو منحرف الفكر والثقافة.

[٢٨١] د. حازم علي ماهر، دور التعليم في مواجهة الغلو والتطرف، مجلة المجتمع، ٥–١٢–٢٠١٦.

٣ – ليس الحل أن تمنع الفتى أن يرى نصًّا دينيًا في كُتب الدراسة، ربما يؤسّس في –التفسير المنحرف للنصّ– رافدًا من روافد الغلوّ أو التطرّف أو عدم قبول الآخر، لأنّ هذا الفتى سيرى ذلك النصّ حتمًا مبذولا في أي مرجع أو كتاب خارج نطاق المؤسّسة التعليمية، سيسمعه في خُطبة جمعة، أو في درس وعظّي، أو في فضائية ما، والفتى عندما يسمعه خارج نطاق المؤسّسة التعليمية الموثوقة، لا نضمن التأويلات التي ستُقدَّم له حيال النصّ، بينما اطّلاعه على النصّ في المقرّر التعليمي، وتحت إشراف المؤسّسة التعليمية، مع بيان التفسير الصحيح المُعتمَد للنصّ، ومع التحذير من التأويلات المنحرفة، كل ذلك كفيل بحماية العقل من الزيغ عن جادّة الصواب.

وفي مقابل تلك المدرسة تنهض مدرسة تنادي بالعكس تمامًا، بضرورة الحفاظ على التعليم الديني الصحيح في المدارس، وتنشئة النشء على عقيدة وقيَم ومناهج الإسلام، لصناعة الشخصية السويّة المستقيمة المتكاملة، التي تمثّل الناتج المُستهدَف لعملية التربية والتعليم، وهي إخراج المواطن الصالح، يقول د. محمد طاهر منصوري: "ومن المؤسف أن المقررات الدينية في المؤسسات التعلمية الرسمية في البلدان المسلمة عمومًا لا تفي بحاجة المتعلمين في توعيتهم في أمور دينهم وخاصة في تبصيرهم نحو العقيدة الإسلامية الصحيحة الصافية وتوجيههم نحو الأخلاق الإسلامية الفاضلة ووقايتهم عن الأفكار المنحرفة، فلا يتم تعليم الدين في هذه المؤسسات إلا تعليمًا هامشيًا مما لا يؤدي دوره المطلوب في تقويم الأخلاق وتثبيت قيم الاستقامة والاعتدال والوسطية لدى الدارسين.

إن هذه المقررات، كما يرى بعض الباحثين، "لا تكاد تغطي سوى جوانب محدودة من فكر الإسلام وثقافته، فضلا عن القيم الإسلامية الفاضلة ويتم فيها التعامل ركضًا على سطح الظواهر والمفردات دونما أي قدر من التعمق والإيغال، ويتخرج طالب العلوم أو السياسة أو

الإدارة أو الاقتصاد أو الآداب وهو لا يملك من الإسلام سوى شذرات وقطوف وخطوط عامة في أحسن الأحوال[٢٨٢]".

وهذه الثقافة الدينية الضعيفة والناقصة تجعل المتعلم فريسة سهلة للأفكار المنحرفة والهدامة وأصحابها الذين يستغلون جهله بالدين لتوجيهه نحو الغلو والتطرف. وغني عن البيان أن التطرف عند الشباب ينشأ غالبا بضعف ثقافته الدينية وقلة الفقة في الدين وبسبب سوء فهمه لكثير من أحكام الدين فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغيير المنكرات والتعامل مع الحكام والمعاملة مع غير المسلمين وما إلى ذلك من الأحكام، وهذا الضعف يسبب في إيجاد قناعة ناقصة عن هذه القضايا لدى هؤلاء الأفراد وبالتالي يعتبرون رأيهم هو الحق والصواب فيفرضونه على الآخرين بالقوة والعنف فينشأ منه إرهاب مذموم مفكك لكيان الأمة.[٢٨٣]".

وهكذا ترى هذه المدرسة أنّ تحصين الناشئة ضد الغلوّ والتطرّف يبدأ من المؤسّسات التعليمية، وتعتبر المدرسة هي المؤسّسة الاجتماعية الأهمّ من كل مؤسّسات التنشئة الاجتماعية، والأجدر للقيام بتلك الوظيفة التربوية الحيوية في حياة الأمّة.. مع ملاحظة ضرورة تكثيف جُرعة الفكر الديني مع التركيز على المفاهيم التي تعالج المشاكل المستحدثة، مثل الاعتراف بوجود الآخر، وقبوله، والتعايش معه، وحقوق الإنسان، والرحمة والتسامح والعفو، وامتلاك مهارات الحوار الموضوعي، وغيرها من القضايا التي تطرحها الحضارة الحديثة، من وجهة نظر تأصيلية إسلامية. فالتعايش مثلا قيمة إسلامية أساسية، ربّما لم توضع تحت هذا العنوان في التراث

---

[٢٨٢] د. فتحي حسن ملكاوي، ود. محمد عبيد الكريم أبو سل، بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات، عمان: ١٦-١٩ربيع الأول ١٤١٥هـ، ٦٤٦/٢.

[٢٨٣] الدكتور محمد طاهر منصوري، دور المؤسسات التربوية في مواجهة التطرف، المنتدى العالمي للوسطية، 29 April 2014، https://www.wasatyea.net/ar/content.

الإسلامي، لكن لأنّه لا مَشاحة في الاصطلاح، فإنّ القيمة ذاتها من القيم العُليا في الإسلام، تجدها مثلا في صحيفة المدينة التي جمعت المسلمين مع اليهود في المدينة بعد الهجرة أنموذجًا على ذلك. فأن يعرف الطفل حثّ الإسلام على هذه القيمة، مع قيَم أخرى مماثلة، وكذلك قيَم مثل النظافة والإتقان، والأمانة، والصدق، وغيرها من القيَم التي تبني الشخصية السَويّة، مع التشجيع على السؤال والحوار وتنمية الملكات النقدية وعدم الاعتماد على التلقين المُصمت الذي يبني شخصية أُحاديّة، إمّا سائدة وإمّا مَسوّدة بلا وسطية ولا توازن ولا اعتدال.. "وأما عن غياب التفكير النقدي الذي يميز بين الأفكار المعتدلة وتلك المتطرفة، فهو مرض فكري وتربوي كذلك، إذ يتلقى المتطرف الفكر دون تمحيص، فيتبناه من زاوية أحادية بحتة لا تقبل التعدُّد، ولا تثير في ذهنه أسئلة من قبيل: لماذا؟ وكيف؟ بل يكون مهيئًا تمامًا لتلقي ما يُملى عليه كما هو.. هذه العوامل الفكرية الأساسية هي المدخل الصحيح –في نظري– للنظر في دور التعليم في مواجهة الغلو والتطرف، لا كما يتصور البعض بأنه ينحصر في العمل على زيادة نسبة التعليم ومكافحة الأمية؛ إذ أن "بعض أسوأ الفظائع التي سُجِّلت في التاريخ البشري نظَّمها وارتكبها الأشرار المتعلمون جيدًا[٢٨٤]". أي الذين حصلوا على مؤهلات عليا كالهندسة والطب مثلاً. لذلك كله ينبغي غرس ثقافة الحوار وآدابه في الدارسين منذ الصغر، وهذا هو السبيل الصحيح لوقايتهم من الأساليب العنيفة في التواصل فيما بينهم وبين مجتمعاتهم فيما بعد، أو كما أوضح د. أحمد كمال أبو المجد من قبل: "إن الذي ينشأ في طفولته في جو الحوار بالكلمة لن يسهل عليه في شبابه أن يستبدل بها سلاح القتل والتدمير، والذي يجد له في صناعة قرارات المجتمع

[٢٨٤] آل جور، ترجمة د. عدنان جرجس، المستقبل: ستة محركات للتغيير العالمي، سلسلة عالم المعرفة (٤٢٣)، عدد أبريل ٢٠١٥م، الجزء الأول، ص٢٨١.

مكانًا ونصيبًا منذ نشأته؛ يصعب عليه أن يفر في شبابه إلى اغتراب يفرضه على نفسه.[٢٨٥]" [٢٨٦]"..

"كما يجب أيضا أن تتضمن المناهج الدراسية المفاهيم الإسلامية حول حقوق الإنسان والتعامل مع الغير وحرمة الاعتداء ومنع الظلم ونبذ الكراهية والتعاون والتآلف بين أبناء المجتمع البشري لخدمة البشرية وإعمار الأرض والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات والوفاء بالعهود وصيانة حقوق الآخرين، والقيم الإسلامية والإنسانية الفاضلة مثل العدل والسلام والتضامن والتكافل الاجتماعي وغير ذلك من القيم والأخلاق الإسلامية النبيلة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتعزيز ثقافة الوسطية والاعتدال في المجتمع.[٢٨٧]"..

إنّ أهمّ ما يجب تعليم وتربية الناشئة والشباب عليه في مراحلهم العُمرية المبكّرة أن نجعل معهم الميزان الذي يستطيع كلّ منهم أن يزن به العقائد والأفكار والتصوّرات والأطروحات، فليست العبرة بأن يحفظ الشباب مجموعة من النصوص، والأحكام والشرائع.. ولكنّ الأهمّ من ذلك كلّه أن يعرف الشباب كيف يزن الفكرة، بأن يتمّ ترتيب الأولويات والمرجعيّات في عقله ونفسه، فيعلم أنّ القرآن الكريم كتاب الله المقدّس الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب المُبين، الميسّر للذكر، والمحفوظ ضد التحريف، وأنّ هذا الكتاب العزيز هو مستودَع القيَم والمبادئ والأخلاق والأفكار والتصوّرات، منه تنبثق العقيدة والإيمان، وإليه ترجع التشريعات والأحكام، وفيه نبأ السابقين واللاحقين ومآلاتهم، وعلى هديه تتحدّد الأخلاق والمعاملات، وهو كتاب النور والهداية.. وأنّ حفظ واستظهار آياته البيّنات تكريم للإنسان غاية

---

[٢٨٥]د. أحمد كمال أبو المجد، حوار لا مواجهة، طبعة خاصة أصدرتها دار الشروق ضمن مشروع مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٢م. ص٦٠ – ٦١.

[٢٨٦]د. حازم علي ماهر، دور التعليم في مواجهة الغلو والتطرف، مجلة المجتمع، ٥-١٢-٢٠١٦.

[٢٨٧]الدكتور محمد طاهر منصوري، دور المؤسسات التربوية في مواجهة التطرف، مرجع سابق.

التكريم والتشريف، لكنّ العمل به والتخلّق بأخلاقه، حتّى يصبح المسلم قرآنًا يمشي على الأرض كما كان سيد المرسلين، هو الغاية الكُبرى في حياة المسلم، ثمّ يلي القرآن الكريم في المرجعية، السُنّة النبوية الثابتة المشرّفة المفصّلة للقرآن الكريم والمفسّرة له، والمتمّمة لشرحه، والمسؤولة عن تطبيقه واقعًا عمليًّا ملموسًا في حياة الناس على الأرض، وما عدا هذين الأصلين فهي اجتهادات بشرية وجهود ثمينة يجب عرضها على القرآن الكريم والسُنّة الثابتة، فما وافقهما فهو تابع لهما، وما شذّ عنهما أو تعارض معهما يتم التنبّه له والحذر منه، وعرضه أولا على أولي العلم لجلاء وجه التعارض وإزالة الشبهة.

إنّ المدارس في مراحل تعليمية معيّنة تعلّم الطالب كيف يكشف في المُعجم عن أصل ومعنى كلمة من الكلمات، على اعتبار أنّ الفرد لن يستطيع أن يحوي كل كلمات المُعجم، فيرون تعليمه طريقة الكشف عن المعنى أهمّ من تحفيظه العديد من المترادفات، ونريد لمناهج التربية الدينية في المدارس أن تدرّب الطالب على أن يعرف كيف يرجع للكشف عن أي قيمة أو فكرة في كتاب الإسلام الخالد، القرآن الكريم والسُنّة النبوية الثابتة، فإن امتلك الطالب أو الشاب الميزان الذي يزن به كل الأمور والتصوّرات، فلن تستعصي فكرة عليه، ولن يشادده أحد إلا غلبه بالرجوع إلى المرجعية الثابتة الخالدة.

كما يجب الاهتمام اهتمامًا بالغًا بتدريب معلِّم التربية الدينية، لا سيّما على مهارات الحوار والتفاعل والتفكير، وتنمية ثقافة النقد والتدقيق في كل معلومة يتمّ تلقينها للطلاب.. وتزويد المُعلم أولا بأول بكل جديد على مستوى الثقافة العالمية، ليجد الطالب، لا سيّما صغير السنّ، في معلّمه القدوة والأنموذج الأمثل الذي يثق فيه ويلجأ إليه، ليتلقّى منه المعلومة، ويأتنس عنده بالرأي الحكيم السديد في كل مسألة تشغل باله.

ولا يمكن أن تعود لمادّة التربية الدينية مكانتها في نفوس الطلاب والناشئة وهي مجرّد مادّة هامشية تعاملها المدرسة معاملة مواد الأنشطة، كالرياضة البدنية والرسم وغيرهما، إنّ أول الإصلاح لمنظومة تعليم التربية الدينية في المدارس، أن تكون هذه المادّة مادّة أساسية في مقرّرات الدراسة، مادّة نجاح ورسوب، كما تدخل في مجموع درجات الطالب النهائية من أجل تفعيل اهتمام الطلاب وأولياء الأمور بها.. مع تطوير محتوياتها الدراسية بحيث تشمل قضايا الفكر الإسلامي بمستوى يتناسب مع عمر الطالب وعقله من جهة، ومع القضايا المُثارة في مجتمعه من جهة أخرى.. وأن تُخصَّص حصّة من حصص التربية الدينية أسبوعيًا للتدريب على عبادات الإسلام وآدابه وأخلاقه، مثل الذهاب إلى مسجد المدرسة لأداء الصلاة في جماعة، وغيرها من الأنشطة العملية التي تدرّب التلاميذ على أخلاق الإسلام ممارسةً وسلوكًا.

النتائج والتوصيات

إننا إزاء تلك النصوص التكفيرية الصريحة التي قرأناها واضحة جلية لأئمة ومفكري أهمّ جماعات العمل الإسلامي الحركي، وأكبرهم حجمًا، وأوسعهم انتشارًا، وأكثرهم أتباعًا، وأشهرهم صيتًا وسمعة.. لا نملك إلا أن نتوقّف وقفة حازمة جادّة لا تهاون فيها، ولا تعاطف، ولا مجاملة أو ملاطفة.. فالنصوص قاطعة بغلوّهم في مسائل لا يصح حيالها التجاهل. الحركة الوهّابية كفّرت بالبدع الشركية ولم تعذر بالجهل وكفّرت المُعيّن.. والمودودي كفّر بالحاكمية.. وسيد قطب جعل شرط دخول الناس الإسلام من جديد تسليمهم أولا بمدلول الحاكمية عند نُطق الشهادة.. وحسن البنا لم يتوّرط في تكفير، ولكنّه نقل موضوع الحُكم والسلطان من الفروع الفقهية إلى الأصول العقائدية، ورتّب بيعة استُشكل أمرها على الناس، فجاء من نقلها من بيعة عمل إلى ما يشبه البيعة العامة على الإسلام.. كما انتشرت في بعض كُتب السيرة النبوية الشريفة، خاصة الإصدارات الحديثة منها التي كُتبت تحت مرجعية فكر الإسلام الحركي، وقائع وحوادث مكذوبة موضوعة على عصر الرسالة النبوية، جعلوها أساسًا لشرعية العمليات الفردية المسلّحة هنا وهناك، وجعلوا في السيرة منهجًا حركيًا، وتنظيمًا سرّيًا، ومرحلة علنية الدعوة وسريّة التنظيم.. كما أنّ بعض الذين يتعاملون مع نصوص الإسلام تعاملا حرْفيًا ظاهريًا، لا يتجاوز منطوق النصّ إلى مقاصده ومراميه، ولا يضعونه ضمن مجموعة القيم والمبادئ العُليا الحاكمة لمنهج الإسلام والمؤسّسة له، ويعتمدون في ذلك على تفسيرات تراثية تمثّل اجتهادات عصرها وبيئتها وحدود علمها وثقافتها، ومن هذا الخليط المشوّش صنعوا تصوّرًا لمنهج الإسلام يُغفِل أول ما يُغفِل التطبيق النبوي الكريم، وما تلاه من تطبيق الصحابة الرشيد.. هذه كانت أهمّ نتائج قراءتنا في الأصول الفكرية المؤسّسة للغلوّ والتطفّل عند جماعات وتنظيمات الحركة الإسلامية الحديثة، ونخلص في مواجهتها بعدد من التوصيات العامة الملحّة والنافعة:

أولا: مراجعة ونقد التراث بعرضه على القرآن الكريم والسُنة النبوية الثابتة، واهتمام المؤسّسات الدينية بهذا الأمر، حتى تتمّ هذه المراجعة وفق ضوابط علمية وشرعية، وفي إطار مؤسّسي، وتُعمّم النتائج على مُنتِجي الثقافة الدينية، والمتصدّرين للخطاب الإسلامي من دعاة، وخطباء، ووعّاظ، ومعلّمي التربية الدينية في المراحل المختلفة، لصنع ثقافة إسلامية متوازنة ورشيدة.

ثانيًا: نشر التفسيرات الصحيحة للنصوص الشرعية التي تستشكل على الناس ويتم تفسيرها تفسيرًا مناقضًا لمقاصد الإسلام، وذلك بنشرها على نطاق واسع عن طريق وسائل الإعلام، والكتب والدوريات الدينية، والخُطب المسجدية، والدروس الدعوية التوعوية في المدارس والجامعات، والأندية، ومراكز الشباب ومواقع الإنترنت.

ثالثًا: الفصل التامّ بين العمل المؤسّسي الإسلامي والعمل السياسي الحزبي، بحيث تنأى المؤسّسات الدينية عن التنافس والخصومة والصراعات السياسية والأيديولوجية، وتعمل في استقلالية تامّة عن مؤسّسات النُظم الحاكمة، وعلى نفس المسافة من الابتعاد والنأي بالمؤسسة عن جماعات وتنظيمات الإسلام السياسي، بحيث يستقرّ في الأذهان أنّ المؤسّسات الدينية لا تعمل لحساب طرف ضد الآخر.. وأنّها تؤدّي وظيفتها باستقلال تامّ لوجه الله –تعالى–، ومن أجل الإسلام الصافي الصريح بعيدًا عن أي حسابات أيديولوجية أو سياسية.

رابعًا: جعل مادة التربية الدينية مادة أساسية في مناهج المؤسّسات التعليمية بحيث تصبح مادة نجاح ورسوب، كما تدخل درجاتها في المجموع النهائي لطلاب المدارس، على الأقل في مرحلتي التعليم الابتدائي والإعدادي.

خامسًا: تطوير مناهج التربية الدينية الإسلامية، وتضمينها قضايا فكرية معاصرة مثل حقوق الإنسان، وقبول الآخر واحترامه والتعايش معه وفق الأصول والقواعد الإسلامية.. مع الاهتمام بتوفير جانب عملي للتدريب على العبادات والأخلاق والمعاملات الإسلامية.

سادسًا: الاهتمام بتأهيل وتطوير معلّم التربية الدينية ليكون قدوة وأنموذجًا أمام تلاميذه وطلابه، مع تنمية مهارات الحوار والنقد لديه.

سابعًا: اعتماد تدريس مادة في الفكر والأخلاق الإسلامية في المرحلة الجامعية تكون مرتبطة بأخلاقيات وآداب المهنة التي يتم إعداد الطالب الجامعي لها، كأن يتم تدريس اهتمام الإسلام بالقواعد الصحية في كليات الطب، واهتمام الإسلام بحقوق الإنسان في الكليات الحقوقية والشرطية، والمبادئ العامة للمال في الإسلام في كليات الاقتصاد والتجارة، وهكذا.

ثامنًا: الانتباه لحالة التطبيع مع الغلوّ والتطرّف المخزون في الثقافة الإسلامية للأجيال المعاصرة بسبب جهود وإلحاح تنظيمات وجماعات الإسلام الحركي، والفصل التامّ الصريح الواضح بين حالة التعاطف الإنساني الواجب تجاه المظلومية السياسية، وحالات انتهاك حقوق الإنسان، وفكر وأطروحات الغلوّ والتطرّف.

تاسعًا: أن تفتح المؤسّسات الدينية أبوابها لتقديم دورات وبرامج ومِنح دراسية ودرجات أكاديمية لأبناء المجتمع من غير المنتسبين إليها، لمن أراد استكمال دراسته الشرعية من خريجي برامج التعليم العام، لاستيعاب آلاف الشباب من خريجي التعليم العام الراغبين في ممارسة الدعوة الإصلاحية والعمل الدعوي الإسلامي، وتأهيلهم تأهيلا علميًا وتربويًا للقيام بهذا الدور بدون شطط أو شذوذ.

عاشرًا: إنشاء قناة فضائية عالمية عالية المستوى التقني والفني تقوم بتقديم رسالة الإسلام والخطاب الإسلامي المتوازن، لمناقشة كل القضايا المعاصرة للأُمّة، وإبداء الرأي العلمي والشرعي المستقلّ فيما يطرحه غلاة الحركيين ومتطرفو العلمانيين على السواء، لنشر وعي إسلامي عامّ بكل القضايا الملحّة على الساحة الثقافية والفكرية والإعلامية.

حادي عشر: تقديم دورات متخصّصة في الضوابط الشرعية والآداب الإسلامية لممارسة مجالات إبداعية جديدة مثل الآداب والفنون، لتخريج مبدعين في مختلف مجالات الآداب والفنون ملتزمين بالضوابط الإسلامية، إذ إنّ الذي يشكّل الجزء الأكبر من وعي المجتمعات الحديثة الآداب مثل القصص والروايات، والفنون خاصة الدراما والسينما.. إنّ انتشار الغناء الراقي المنضبط، والرواية الأخلاقية الهادفة، والتمثيلية المتأدّبة بأدب الإسلام، والفيلم المحترم الذي لا يخرج عن آداب الإسلام وأخلاقه، يصنع مجتمعًا سويًّا متحضّرًا، ويحدّ من استغلال الغلاة والمتطرفين لحالات التسيّب الإبداعي والتساهل في قضايا الشرع، وتصديرها كدليل على فساد أخلاق المجتمع المسلم.

الخاتمة

لقد استعرضنا في هذا البحث الأفكار والأطروحات والمرجعيّات الكُبرى للغلوّ وارتباطها الوثيق في القرنين الأخيرين بنشأة وانتشار الإسلام الحركي وتنظيماته وجماعاته. وركّزنا الحديث عن المراجع الكُبرى المؤسّسة للغلوّ في أكبر كيانات العمل الحركي الإسلامي انتشارًا على الأرض، ولم ننشغل كثيرًا بالتنظيمات الأكثر عنفًا والتي طوّرت الأفكار إلى مواجهات دامية هنا وهناك، وذلك لأنّ معظم مرجعيّات الإسلام الحركي ذاتها تُدِين منْ حمل السلاح وتسمه بالغلوّ والتطرّف، ومن ثمَّ تعلن أنّها هي المرجعيات ذات الوسطية والاعتدال، وكأنّ الوسطية والاعتدال فقط تعني الكفّ عن استعمال السلاح.. رغم أنّ الحقيقة غير ذلك، فإن ظاهرة الغلوّ والتطرّف تشمل كل نوع من أنواع المغالاة في الأفكار أو الأشخاص أو الهيئات، كما تعني الشذوذ في تقدير جانب من جوانب الدين فتجعله أصلا وهو ليس كذلك فتكفّر عليه وبسببه.. لقد عالجنا في بحثنا نوعًا من الغلوّ في مواجهة البدع ولو كانت شركية –الشرك الأصغر–، لأنّ أصحاب هذا النوع من الغلوّ في مجافاة التوحيد امتحنوا الناس عليها وأخرجوهم من الدين تمامًا بسبب بدعهم، وقاتلوهم على ذلك فاستحلّوا دماءهم وأموالهم، ولا يسع المتأخرين منهم أن يتعلّلوا اليوم بأنّهم لم يمارسوا استباحة الدماء في التاريخ المعاصر، طالما أصولهم الفكرية ما زالت تُدرَّس كما هي دون توبة عنها ولا إنابة.. وهناك من غالى في حجم مبدأ الولاء والبراء، فجعل مردّ العقيدة عليه، فسالم عليه وخاصم عليه، وكفّر عليه أيضًا، فمن والى المشركين فهو مشرك –في زعمهم–، ولو كان يشهد بالشهادتين ويصلّي ويصوم ويزكّي ويحجّ.. فهؤلاء توسّعوا في التكفير مستندين إلى مبدأ واحد من مبادئ الإسلام، وهو ليس من أركان الإسلام الخمس.

ومنهم من غالى في الحُكم والسلطان فجعله ركنًا من أركان الدين لا يقوم الدين إلا به، وحوّل حياة المسلم المعاصر كلها إلى صراع على السُلطة من أجل إقامة سلطان المسلمين، باعتباره

الركن الغائب من أركان الإسلام، والحقيقة التي عليها أهل السُنة والجماعة أنّ إقامة الحكم أو الخليفة واجب من واجبات الدين وليست ركنًا من أركانه، فالغلوّ هنا حدث في تضخيم الواجب وإدارة الحياة والصراع والدعوة والحركة والإصلاح عليه دون غيره، فأصبح أصلا وباقي أركان الدين له تبعًا، وغلا آخرون في الحاكمية فأخرجوا من لم يؤمن بالحاكمية التشريعية التنظيمية في حياة الناس من دائرة الشهادتين، ولو كانت له أعمال مثل جبال تهامة بيضاء! فكفّروا الأُمّة، بل كفّروا أجيالا متعاقبة من أُمّة المسلمين.. هؤلاء جميعًا لم يحملوا السلاح في الواقع المعاش إلا نادرًا، فاعتبروا أنفسهم ضمن دائرة الوسطية والاعتدال، ورفعوا شعار: "**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**" سورة البقرة١٤٣، بل وعيّنوا أنفسهم دعاة لمواجهة العنف واستباحة الدماء، وهي مكرمة لا شكّ فيها، لكنّ الحمولة الفكرية التي تقبع هناك في الخلفية المؤسّسة للعقل والفكر وتشكّل الوعي والوجدان، تنتظر لحظة ضغط ما لتتحوّل إلى خنجر وطلقة مسدس، فكأنّها بالمصطلح الأمني خلايا عنف نائمة أو مجمّدة تنتظر التسييل إذا لاقت الضغط المناسب لتسييلها.. على أنّ البحث يعالج الموضوع من منظور فكري اعتقادي، باعتبار الغلوّ والتطرّف هو انحراف فكري عن منهج التلقّي من الإسلام، من هنا كانت خطورته، فهو نوع من الشذوذ في الاعتقاد، لا يُخرج من الملّة ولكنّه يُخرج من دائرة التوازن والوسطية والاعتدال، فهو كما قال الشيخ أبو الحسن الندوي انحراف عن الذوق الديني الصحيح، وكما يقول وحيد الدين خان إنّه انحراف دقيق خطير ويكاد يكون غير ملحوظ.

البحث إذن يعالج المسألة في المقام الأول حفاظًا على منهج الإسلام الصحيح كما حافظ عليه أهل السُنة والجماعة على مدار التاريخ بغير زيغ ولا تحريف وانحراف، وثانيًا من أجل جلاء الصورة الرائقة النقيّة الصافية لصفحة الإسلام دون عكارات الأفكار الأرضية والاجتهادات البشرية الخاطئة، وثالثًا من أجل حماية عقول ونفوس الناشئة من شباب الأجيال المتعاقبة من

المسلمين من أن تزيغ بهم الأفكار والرؤى والأطروحات الشاذّة خافية الشذوذ، أو دقيقة الانحراف، أو المتطرّفة عن المنهج الصافي للإسلام، فإنّ تحصين عقول الناشئة والشباب هو الغاية الكبرى لكل عمل يُقدَّم في هذا المجال، حماية لهم من الزيغ والهوى، وهم أبناؤنا وهذا هو ميراثنا الحقيقي الذي نورثه لهم في حبّ واعتزاز، رابعًا: لعرض الإسلام كما نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم –في يقيننا– على العالم، ونحن في غاية الاطمئنان أنّ دين الفطرة إذا قُدّم لكل فطرة سليمة مستقيمة دون زيغ أو انحراف فلا يسعها إلا أن تؤمن به، فإزالة الشوائب والشبهات عن الإسلام باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الإسلام.

وهذا البحث لا يبشّر بانتهاء ظاهرة الغلوّ والتطرّف عند الإسلام الحركي، ولا انتهاء ظاهرة الإسلام الحركي ذاتها، لقد وُلدت فكرة الإسلام الحركي لتبقى، وكما يقولون هي فكرة والأفكار عادة لا تموت.. لقد أنتجت الحضارة الإسلامية على مدار تاريخها العديد من الأفكار.. بعضها ينزوي ويضمحّل تأثيره لكنّه لا يفنى فناءً تامًا كالصوفية مثلا.. سيبقى الإسلام الحركي، لكنّه سيتمحور دائمًا في المساحة التي يُراد له أن يظلّ حبيسها.. سيظلّ إذن ورقة في معادلات السياسة والاجتماع المحلية والإقليمية والدولية.. لأنّه قام أساسًا على فكرة مشروع سياسي.. والسياسة فنّ توظيف المتناقضات.. والساحة السياسية لتحقيق شيء من توازنها تريد له أن يبقى، وأن يمارس دورًا موضوعيًّا محدودًا.. هذا هو الدور الذي سيظلّ يلعبه الإسلام الحركي، والحيّز السياسي والاجتماعي الذي سيظلّ يشغله. فهو حركية تحت الطلب والاستدعاء، وفق المواءمات السياسية العالمية والإقليمية والمحلية، وأوراق ضغط متبادلة، وهو في نفس الوقت الوعاء الذي تصبّ فيه العاطفة الدينية الجيّاشة للشعوب ليتم توظيفها دائمًا في الممكن والمسموح، دون أن تتحوّل إلى تيّار جارف يفرض قيمًا حضارية إسلامية إصلاحية طال انتظارها.. في مقابل هذا الدور المحدود الذي سيظلّ يمارسه الإسلام الحركي، تظلّ المجتمعات المسلمة في انتظار حركة إصلاحية تستعيد مسار الحركات الإصلاحية على امتداد

تاريخ المسلمين، وتعيد مسيرة الإصلاح الاجتماعي إلى طبيعتها بعدما انحرف بها مشروع الإسلام السياسي عن غاياتها ووسائلها، وأدخلها في معارك أعاقت حركة الإصلاح وفشلت في اقتناص السلطة. حركة إصلاحية هدفها تمكين الأُمّة وتقوية مؤسّساتها المدنية، على أنقاض قرن من العمل المتذبذب بين السرّية والعلنية، والمتذبذب بين العمل الاجتماعي والممارسة السياسية.. لكنّ بقايا مشروع الإسلام الحركي ستظل تمانع في استعادة حركة الإصلاح لمسارها التاريخي الطبيعي، فهم يدركون أنّ كل التحاق بمسار الحركة الإصلاحية هو خَصم إضافي من رصيدهم المتآكل بفعل رهاناتهم الخاطئة التي بلغت أوجها أثناء موجات الربيع العربي.. وهناك سبب آخر للمدافعة يذكره وحيد خان في مقدمة كتابه (خطأ في التفسير)، يقول: "ولست أزعم أن أعضاء الجماعة[٢٨٨] سيقبلون قولي ويرجعون عمّا هم فيه الآن بعد انتقادي لهم، لم يحدث هذا في التاريخ ولن يحدث الآن، لقد مضى على كيان الجماعة ربع قرن، وكثير من الناس انضموا للجماعة وهم في سن الشباب، والآن هم قد بلغوا من الكبر عتيا، وإذا مضى على فكرة هذا الوقت من الزمن فلا يمكن الرجوع عنها، فالناس إنما يشغفون بأفكارهم إلى درجة لا يتصورون الصدق أو الصحة في غيرها، والجماعة دخلت هذا المستوى تقريبًا، وأخذت اعتبارًا تاريخيًا أكثر من كونها حركة، حتى أنه لا حاجة لأي دليل من أجل قبول أفكارها، إنه كثير ما يتابع المرء سيره في منهجه السابق بعد عجزه في مجال البرهان، وكأنه لا حقيقة فوق الحقيقة التي يؤمن بها، وللجماعة أيضًا مكانة في المجتمع لمضي زمن طويل عليها، ولها حلقات واسعة الانتشار بين فئات متنوعة من المسلمين، وهذا أيضًا عائق أمام عزم جديد سواء أكان ذلك على مستوى شعوري أو غير شعوري. وهذا مثل يوضح القضية: فالشيوعية حقيقة واقعة، وقد أخفقت في ميدان البينة والدليل، فالرئيس السابق للحزب الشيوعي في يوغسلافيا ونائب الرئيس ميلوان جيلاس الشخصية المعروفة في العالم الشيوعي، حين صدر كتابه في لندن

[٢٨٨] يقصد هنا الجماعة الإسلامية التي أسسها المودودي في باكستان نحو عام ١٩٤١، لكن ما ينطبق عليها ينطبق على مختلف جماعات الإسلام الحركي الحديث والمعاصر.

١٩٥٦ بعنوان الطبقة الجديدة، كان له ضجة في العالم، وقد نشر مقال آنذاك للتعريف به في مجلة (رايدر دايجست) بعنوان: الكتاب الذي هز العالم الشيوعي، ولكن رغم ذلك فإن فكرة الشيوعية ما زالت تجد لها أتباعا حتى اليوم، بل إن إقبال الناس عليها يتزايد كل يوم. وطالما هذه هي طبيعة الإنسان، فإني لا أحلم بغير هذا.[٢٨٩]".

إنّ رؤية وحيد الدين خان، تتّفق مع رؤية الشيخ الشعرواي التي قدّمنا بها لهذا البحث، فما زال لتيّار الإسلام الحركي وجه حسن يعتمد عليه في الدعاية والترويج، والحضور والانتشار، "وستظل القوى المختلفة التي تؤمن بتدافع الحضارات وتخشى من نشوء حركة إصلاحية اجتماعية رصينة ذات امتداد حضاري وثقافة إسلامية تنهض بالأُمّة من داخلها، ستظل هذه القوى تدعم بقاء ووجود تيار الإسلام الحركي لكن في نطاقات ضيقة وتحت التحكم والسيطرة، وتوظيفه لخدمة أغراضها المختلفة والمتباينة.. هذا التوظيف هو النفَس الباقي لحياة الإسلام الحركي، فضلا عن النفَس الذاتي المستمد من عوامل نفسية تقوم على اجترار الذكريات والأحلام الطوباوية نحو عالم مستحيل صناعته في الواقع[٢٩٠]".

إنّ أفكار الغلوّ والتطرّف التي تطرحها تنظيمات وجماعات التيّار الحركي توشك أن تحوّل تلك الجماعات بسبب دقّة الانحراف وخفاء معظمه، وكذلك حالة التطبيع مع ظاهرة الغلوّ التي تعيشها طبقة من علماء الأُمّة، وبسبب التشرّب التدريجي البطيء لتلك الأفكار من قبل أعضاء وأبناء تلك الجماعات، مع تربيتهم الفكرية الانعزالية عن مؤسسات المجتمع التربوية العامة، فإنّها تكاد تتحوّل إلى عقيدة الطائفة، وهذا في الحقيقة هو أخوف ما أخافه على أبناء

---

[٢٨٩] وحيد الدين خان، خطأ في التفسير، مرجع سابق، ص١١-١٢.

[٢٩٠] علاء سعد حميده، الإسلام الحركي.. التجربة والنتائج وتوقعات المستقبل، منتدى العلماء، https://www.msf-online.com/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%83%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AC%D8%B1%D8%A8%D8%A9-/%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%AA%D8%A7%D8%A6%D8%AC-%D9%88%D8%AA%D9%88%D9%82

تلك الكيانات.. إنّ الكيان أو الجماعة عندما تتحول من مدرسة فكرية أو مذهب فقهي إلى ما يشبه عقيدة الطائفة، فلا يمكن بعد ذلك أن تُراجع فكرها أو تتراجع عن معتقداتها.

لقد اهتمّ هذا البحث اهتمامًا أساسيًا بقضية الأفكار والأطروحات والرؤى، ولم يعتمد على ممارسات تنظيمات هذا التيار، إلا في أضيق الحدود، وفيما له علاقة مباشرة ولصيقة ولا يمكن فصمها لشرح فكرة النتيجة التي يؤدّي إليها الغلوّ في مسألة من مسائل الفكر.. وقد يعطي هذا الأمر انطباعًا بأنّ الباحث اعتمد فقط على القراءة البحثية النقدية على المستوى النظري الفكري المجرّد، دون أن ينزل إلى الواقع العملي فيتلاقى معه ويرصد إيجابياته وسلبياته، وهذا على غير الحقيقة، لقد كانت للباحث معايشة ميدانية طويلة للمنتمين لبعض تنظيمات تيار الإسلام الحركي، سمع منهم ولم يكتفِ بالسماع عنهم، وحاورهم، وجادلهم بالتي هي أحسن، فيما رفضه ممّا بدا له من الغلوّ والتطرّف في بعض مسائلهم، واتصل بردودهم ودفوعهم مقروءة ومسموعة، بل وعايش أجيالًا ثلاثة، من أجيال المنتمين لهذه التنظيمات، وعاين مردود ما اعتنقوه من هذه الأفكار لا على مستوى مشروعهم السياسي، والفكري، ولكن على مستوى ما أنتجوه من صياغة شخصية الفرد المسلم الملتزم، والأُسرة المسلمة الملتزمة، وفق تصوّراتهم، ولم يكن الإنتاج في المُجمل على مستوى المأمول من خلال تصوّرهم أنفسهم للفرد المسلم الملتزم، والأُسرة المسلمة الملتزمة، ولا على مستوى المطلوب في منهج الإسلام الذي يؤمن به ويعرفه المسلمون جميعًا، بل برزت حقيقة أخرى أنّ عوام المسلمين عندما يبدو منهم مثل هذا التقصير، فإنّهم يعتذرون عن ذلك بتقصيرهم وأمنياتهم بتوبتهم وهداية الله لهم، بينما الحركيون فلا يبدو عليهم إلا انشغالهم المغالي والمبالَغ فيه بإقامة المشروع السياسي للإسلام. ولم نقصد من ذلك أيضًا نقد الممارسات، ولا الدخول في جدال حول هذه النقطة، فقط أردت الإشارة إلى أنّ مشروع الإسلام الحركي فقد فاعليته حتى على مستوى اللبِنة الأولية التي بشّر بها، وهي لبِنة الفرد ولبِنة الأُسرة.

فكيف يبني المجتمع ويؤسّس لدولة بمثل تلك اللبِنات الضعيفة الهشّة؟! وكُلّنا ضعفاء في حاجة إلى قوة الله –تعالى– ومعيته.

إنّ الحركة الإسلامية الحديثة، أو ما أُحب أن أسميه الإسلام الحركي، يرى نفسه وريثًا لحركة الإصلاح الإسلامي المستمرة والمتأصّلة في جذور تاريخ المسلمين، وعبر حلقاته جميعًا، والحقيقة أنّه قدّم حركة واسعة، وملأ فراغًا، وأشعل جدالا، بل صراعًا، في كل ميدان دخل فيه، من أجل إثبات جدارته واستحقاقه بوراثة حركة الإصلاح والحِسبة القائمة في أُمّة المسلمين جيلا بعد جيل.. ولقد أنفق الإسلام الحركي جهدًا وكفاحًا وأموالا وتضحيات من أجل هذا الاستحواذ والهيمنة على العمل الإصلاحي، وقد لاقى ذلك عاملَيْن مهمين في الزمن الذي بدأ الإسلام الحركي انتشاره فيه، العامل الأول تبعية أغلب بقاع العالم المسلم للتبعية والاحتلال الأجنبي، وظهور نُخبة سياسية واقتصادية وثقافية منهزمة فكريًا وثقافيًا أمام هذه السيطرة الأجنبية، متأثّرة بنهضتهم الحديثة كل التأثّر، مبشّرة بإحلال قيم هذه النهضة بحلوها ومرّها وخيرها وشرّها محلّ القيم الإسلامية الأصيلة، معبّرة في ذات الوقت عن أزمة تمييز بين قيَم الإسلام الثابتة وعادات الشعوب وتقاليدهم البالية التي تكاد تكون متخلّفة وجاهلة في معظم أحوالها، فخلطوا جواهر قيَم الإسلام، بطين جهل الشعوب وتخلّفهم، وأرادوا أن يركموا ذلك جميعًا تحت ركام النهضة العالمية الحديثة، وقد تقلّد معظم هؤلاء النُخب مراكز التأثير وصناعة القرار، وصياغة العقل والفكر وتوجيه الثقافة في معظم أنحاء العالم الإسلامي.

أمّا العامل الثاني: فكان ركودًا أصاب المؤسّسات التقليدية بفعل عوامل داخلية من التقليد وعدم التجديد وضعف الإمكانات المادية، وغياب الروح الدافعة للحركة الدائبة والانتشار الواسع في جنبات المجتمع، وعوامل خارجية تتمثّل في اعتماد المحتلّ الأجنبي على ربائبه الجدد ممّن تتلمذوا على قيَم وأفكار وأطروحات نهضته، واستبعاد أبناء المؤسّسات الدينية من

مراكز التأثير وصناعة القرار وصياغة العقل والفكر، وتوجيه الثقافة والإعلام، يشذّ عن ذلك الأفذاذ من أمثال الإمام محمد عبده والشيخ الخضر حسين، وأمثالهما من العلماء الذين لم يستسلموا لعجز الداخل وحصار الخارج.

صادف هذان العاملان نشأة تيّار الإسلام الحركي مع حدوث حدث سياسي عظيم هزّ أركان أُمّة المسلمين جميعًا، بإعلان إسقاط السلطنة العثمانية، وبالتالي إزالة السلطان السياسي –الرمزي– الذي كانت تدعو له منابر مساجد المسلمين في كل بقاع العالم المسلم آنذاك تقريبًا، فاشتدّ ساعد الإسلام الحركي ووجد فراغًا فانتشر، ووجد اندفاعًا من أبنائه فاندفع، وكاد أن يكون وريثًا شرعيًا لحركة الإصلاح الإسلامي على مدار التاريخ، لولا وقوع تيّاراته الكبرى ومراجعه الفكرية في براثن الغلوّ في مسائل، لو أنّهم ترفّعوا عنها وتجنّبوها لكان الإسلام الحركي حقيقًا بأن يكون حامل لواء الإصلاح في العصر الحديث، لكنّه بدلا من ذلك قام بتحويل مسار حركة الإصلاح الإسلامي وانحرف بها عن غايتها الكبرى التي قامت عليها طوال التاريخ وهي إقامة الأُمّة المسلمة الصالحة الباقية، في مقابلة الدولة أو السُلطة الحاكمة، وفي مواجهة عدوها الخارجي.. سأضرب مثلا واحدًا يوضح هذه الرؤية لمسار حركة الإصلاح عبر تاريخ المسلمين، وهو مثال الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨م، حينما دخل نابليون الذي أخاف أوروبا كلها وهدّد العالم، أرض مصر، سقطت سُلطة المماليك في صورة إبراهيم ومراد بك، وانسحبا إلى الصعيد، وسقطت من فوقهما سيطرة السلطان العثماني، إذ عجز عن استرداد مصر من أيدي الفرنسيين، ورغم أنّ المماليك كانوا قد أمّموا الحياة العسكرية في مصر، فلم يسمحوا لعامة الشعب بامتلاك الأفراس ولا بممارسة الفروسية وحمل السلاح، ممّا حول الشعب كلّه إلى شعب مدني أعزل مسالم بلا جيش، فإنّه انتفض في وجه أقوى قوة في العالم حينئذ، بقيادة حركة الإصلاح التي انطلقت من الأزهر الشريف جامعًا ومؤسّسة ومرجعية، قادت المصريين لمواجهة هذه الحملة الفرنسية، ومن ثمّ التحرّر منها بعد كفاح دام نحو ثلاث

سنوات.. إنّها الأُمّة هي التي صمدت وهي التي انتصرت، وهي التي أعادت إنتاج السُلطة أو الدولة أو الحكومة –سمّها كما شئت– فالأُمّة هي الأصل، والحكومة فرع لها ناتج عنها.. وكتب المؤرّخ محمد جلال كشك، مؤرّخًا لتلك الأحداث والأهوال التي حاقت بالأزهر بسبب ثورة القاهرة الأولى أكتوبر ١٧٩٨، التي انطلقت من الأزهر فكانت ثورة مصر الأزهر، مرجعًا بعنوان: (ودخلت الخيل الأزهر[٢٩١])‌.. لقد آن الأوان أن نكتب من جديد: (وعادت حركة الإصلاح والنهضة إلى الأزهر[٢٩٢])‌.

[٢٩١] محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، نُشر في يناير ١٩٧٨، دار المعرفة.

[٢٩٢] باعتباره المؤسسة الدينية الأكثر عراقة في العالم، ورمزا لكل المؤسسات الدينية في البلاد المسلمة (الزيتونة والقرويين، دبوبند، وغيرها).

المراجع

أولا: القرآن الكريم

١ – تفسير ابن كثير

٢ – تفسير القرطبي

٣ – تفسير الطبري

٤ – تفسير البغوي

٥ – تفسير السعدي

ثانيا: السُنة النبوية

١ – صحيح البخاري

٢ – صحيح مسلم

٣ – صحيح أبو داود

٤ – مسند الإمام أحمد

ثالثًا: الكتب

١ – ابن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي، (ت الألباني)، ٢٠٠٥م
٢ – ابن تيمية، مجموع فتاوي ابن تيمية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ٢٠٠٤م
٣ – ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، الحرس الوطني السعودي، ١٩٨٣م
٤ – أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه – واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، الرسالة، بيروت،١٣٩٨هـ

٥ – أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، دار القلم، ط٥، ١٩٧١م

٦ – الإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي المتوفي ٣٢١هـ، متن العقيدة الطحاوية بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، دار ابن حزم، ط١، سنة ١٩٩٥م
٧ – أبو الحسن علي بن أبي علي الآمدي،غاية المرام في علم الكلام
٨ – أبو الحسن الندوي، التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب، دار آفاق الغد

٩ – أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م

١٠ – أبو محمد محمود الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى، عمدة القاري شرح البخاري، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م

١١ – أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ط١، ١٤٢٩هـ

١٢ – أحمد بن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، دار اشبيليا، الرياض، ط٢، ١٩٩٨م

١٣ – أحمد بن حنبل، من أصول السنة رواية عبدوس بن مالك العطار
١٤ – الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت
١٥ – أحمد بن محمد بن سلمة، شرح معاني الآثار، ج٣، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٤م
١٦ – أحمد عادل كمال، النقط فوق الحروف
١٧ – أحمد عبد الحليم بن تيمية، قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم، تحقيق عبد العزيز عبد الله الزير آل حمد، ط١، ٢٠٠٤م
١٨ – أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة
١٩ – البرعي، دور الجامعة في محاربة التطرف الفكري
٢٠ – البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٨م
٢١ – تاج الدين بن السبكي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩١م
٢٢ – حسن البنا،مذكرات الدعوة والداعية، مكتبة الوفاق، الكويت، ط١، ٢٠١٢م
٢٣ – حسن البنا، مجموع الرسائل
٢٤ – حماه الله ولد السالم، حجاج ومهاجرون (علماء بلاد شنقيط موريتانيا في البلاد العربية وتركيا من القرن ٩إلى القرن١٤
٢٥ – سعيد حوا، المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٠٠٦،٤م
٢٦ – سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق،القاهرة–بيروت، ط٦، ١٩٧٩م
٢٧ – سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت–القاهرة، ١٩٩٥م
٢٨– سيد قطب، في ظلال القرآن
٢٩ – شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الرسالة، ١٩٨٢م
٣٠ – شمس الدين الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت
٣١ – صالح بن فوزان الفوزان، كتاب دروس في شرح نواقض الإسلام، مكتبة الرشيد، ط٣، ٢٠٠٥م
٣٢ – صلاح شادي، صفحات من التاريخ– الإخوان وسنوات الحصاد
٣٣ – عبد العزيز بن باز، مجموع فتاوى ابن باز ومقالات متنوعة، دار القاسم للنشر
٣٤ – عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي أبو الفرج، الموضوعات، المكتبة السلفية، ط١، ١٩٦٦م
٣٥ – عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية
٣٦ – عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت
٣٧ – عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل شيخ،مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، مطبعة المنار، ١٩٢٨م
٣٨ – عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، فتاوى ابن الصلاح، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ
٣٩ – عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي،عنوان المجد في تاريخ نجد، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز،ط٤،الرياض،١٩٨٢
٤٠ – علي بن عبد العزيز الشبل، الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف، موقع وزارة الأوقاف السعودية
٤١ – محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، نهضة مصر،٢٠٠٥م
٤٢ – محمد الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام، كتب الأسئلة خالد محمد خالد، دار المقطم، القاهرة،ط٥، ٢٠٠٤م
٤٣ – محمد الغزالي، مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه، دار الشروق
٤٤ – محمد الغزالي، معركة المصحف في العالم الإسلامي، نهضة مصر، ١٩٩٦م
٤٥ – محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٥م
٤٦ – محمد بن عبد الوهاب النجدي، كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، مكتبة عباد الرحمن، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م
٤٧ – محمد رشيد رضا،الوهابيون والحجاز، مطبعة المنار، القاهرة،ط١، ١٣٤٤هـ

٤٨ – د. محمد عبد الرحمن برج، محب الدين لخطيب ودوره في الحركة العربية ٩٠٦–١٩٢٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م

٤٩ – محمد عمارة، الشيخ رشيد رضا والعلمانية والصهيونية والطائفية، رسائل الإصلاح١٣،دار السلام، القاهرة

٥٠ – محمد قطب،"جاهلية القرن العشرين"
٥١ – محمود الصباغ، حقيقة التنظيم الخاص
٥٢ – محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ
٥٣– الشيخ ممدوح فخري، محب الدين الخطيب لمحات من حياته وقبسات من أفكاره
٥٤ – منير الغضبان، المنهج الحركي في السيرة النبوية، مكتبة المنار، عمّان، ١٩٩٠م
٥٥ – النفراوي أحمد بن غنيم، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، دار الفكر، ١٩٩٥م
٥٦ – هزرشي بن جلول، الشيخ محمد رشيد رضا والدولة العثمانية، دراسة ماجستير – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ٢٠٠٣–٢٠٠٤م
٥٧ – وحيد الدين خان، خطأ في التفسير، ط١ باللغة العربية، ١٩٩٢

٥٨ – يوسف القرضاوي، ظاهرة الغلو في التفكير، مكتبة وهبة، القاهرة،ط١٩٩٠،٣م

٥٩ – يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، سلسلة كتاب الأمة٢، ط٣، ١٩٨٢م
٦٠ – يوسف القرضاوي، فقه الجهاد دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في القرآن والسنة، مكتبة وهبة،القاهرة،٢٠٠٩م

رابعًا: البحوث المنشورة والنشرات والكتيبات

١ – أحمد كمال أبو المجد –حوار لا مواجهة– طبعة خاصة أصدرتها دار الشروق ضمن مشروع مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع، ٢٠٠٢م
٢ – آل جور، ترجمة د. عدنان جرجس – المستقبل: ستة محركات للتغيير العالمي– سلسلة عالم المعرفة (٤٢٣)، عدد أبريل ٢٠١٥م.
٣ – رفعت محمود بهجات محمد، دور الأسرة والمدرسة في مواجهة التطرف الفكري– بحث مقدم إلى مؤتمر الإرهاب "بين تطرف الفكر وفكر التطرف".
٤ – صالح بن عبدالعزيز بن محمد أل الشيخ – بحث حول الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته المجددة– الرياض ١٤١٩/١٠/٢٦– موقع صيد الفوائد الالكتروني http://www.saaid.net/monawein/t/3.htm
٥ – عباد عبد الرحمن، بحث التطرف الفكري أسبابه، وأبعاده، من أبحاث مؤتمر الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري، المؤتمر العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية المنعقد في القاهرة،٢٧/٢٤ يوليو ١٩٩٦م، إشراف وتقديم: محمود زقزوق، القاهرة . ١٩٩٨م
٦ – عبد الرزاق القلسي قراءة في كتاب حلف نجد لحمادي الرديسي باحث تونسي – في نشأة المذهب الوهابي: بحث أركيولوجي في أصول العقيدة الوهابية– موقع مؤمنون بلا حدود
٧ – فتحي حسن ملكاوي و د.محمد عبيد الكريم أبو سل، بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات، عمان: ١٦–١٩ربيع الأول ١٤١٥هـ، ٦٤٦/٢

٨ – محمد بن عبد الرزاق، التطرف في الدين، دراسة شرعية. بحث مقدم للمؤتمر العالمي عن موقف الإسلام من الإرهاب ٢٠٠٤م
٩ – محمد طاهر منصوري: دور المؤسسات التربوية في مواجهة التطرف– المنتدى العالمي للوسطية– ٢٩–٤–٢٠١٤ https://www.wasatyea.net/ar/content
١٠ – محمد عبد الله العلي– المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية لمؤسسات التعليم في مواجهة التطرف والإرهاب: دولة الإمارات العربية المتحدة نموذجاً. https://trendsresearch.org/ar/insight

خامسًا: المجلات والصحف

١ – حازم علي ماهر– دور التعليم في مواجهة الغلو والتطرف– مجلة المجتمع– ٥–١٢–٢٠١٦
٢ – محب الدين الخطيب– مجلة الفتح– افتتاحية العدد الأول من عام ١٣٥٣هـ
٣ – محمد وفيق زين العابدين – من أئمة الإصلاح العلامة محب الدين الخطيب١٣٠٥–١٣٨٩– مجلة البيان

٢٠فبراير ٢٠١٢
سادسًا: مصادر شبكة المعلومات الدولية- الانترنت
١ – أحمد تمام- رشيد رضا رائد الصحافة ولتعليم- موقع إسلام أون لاين – https://islamonline.net/archive/
٢ – أحمد الريسوني مقال بعنوان: الإسلام السعودي من الإزدهار إلى الانحدار- موقع العمق المغربي- https://al3omk.com/235984.html
٣ – خالد بن سعود البليهد- مفهوم التطرف الديني في الشرع- موقع صيد الفوائد- http://www.saaid.net/Doat/binbulihed/110.htm
٤ – خالد بن عبد الله بن عبد العزيز القاسم- دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في دائرة المعارف الإسلامية- موقع شبكة الألوكة الالكتروني
٥ – خديجة مستعد- الوسطية والاعتدال الطريق لفهم معاني الإسلام- الجزيرة نت- https://www.aljazeera.net/blogs/2017/9/24
٦ – شوقي علام، مفتي جمهورية مصر، https://www.elbalad.news/4588415
٧ – صالح بن عبد العزيز بن محمد أل الشيخ – الرياض ١٤١٩/١٠/٢٦- موقع صيد الفوائد- http://www.saaid.net/monawein/t/3.htm
٨ – صبري محمد خليل/ أستاذ فلسفه القيم الاسلاميه بجامعه الخرطوم جماعه الإخوان المسلمين: أصولها الفكرية والمواقف المتعددة منها- https://drsabrikhalil.wordpress.com/2013/08/02/
٩ – عرفه بن طنطاوي- إقامة الحدود حق للسلطان وحده- موقع الألوكة الإلكتروني https://www.alukah.net/sharia/0/152900
١٠ – علاء سعد حميده- اعادة الاعتبار للنص المقدس- منصة الإبداع العربي-٣-١-٢٠٢٠ https://al-manassa.com/category/%d9%81%d9%83%d8%b1/%d9%85%d8%b9%d8%aa%d9%82%d8%af%d8%a7%d8%aa/
١١ – علاء سعد حميده- العمليات الخاصة على عهد النبيhttps://al-omah.com
١٢ – علاء سعد حميده- الإسلام الحركي.. التجربة والنتائج وتوقعات المستقبل- https://www.msf-online.com/
١٣ – كمال حبيب أكاديمي مصري- الوهابية النشاة، التحولات، الخطر الماثل. موقع أصوات الالكتروني https://aswatonline.com/2018/11/14
١٤ – كمال حبيب – الكتب العشرة المؤسسة للعنف- موقع أصوات،رؤى- سبتمبر ٢٠٢٠ – https://aswatonline.com/2020/09/09
١٥ – يوسف القرضاوي – القرضاوي وسيد قطب- صفحة الشيخ يوسف القرضاوي على الفيس بوك- ٢٠١٥/٤/٨ https://www.facebook.com/alqaradawy/photos/pb.100050264989034.-2207520000./948882738485124/?type=3
١٦ – موقع الإسلام سؤال وجواب https://islamqa.info/ar/answers/224767/%D8%AD%D9%88%D9%84-
١٧ – موقع نداء الإيمان من فتاوى اللجنة الدائمة لافتاء السؤال الثاني من الفتوى رقم ٩٨٤٠ برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز

قائمة المحتويات

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	١٢
الفصل الأول: في المفاهيم والجذور التاريخية للظاهرة	١٧
المبحث الأول: جُملة مفاهيم.	١٩
المبحث الثاني: نبذة تاريخية عن الغلو والتطرف	٢٥
المطلب الأول: العلاقة بين ممارسة العنف والغلو أو التطرف	٢٥
المطلب الثاني: الغلو غريزة بشرية	٢٩
المطلب الثالث: الغلو في الاعتقاد أو المذهب أو الأشخاص سبب العنف في أنحاء العالم	٣٧
المطلب الرابع: الغلو بسبب الخطأ في قراءة وفهم النص المقدس، والتأثر الخاطئ بالتراث..	٣٨
الفصل الثاني: نماذج لنشأة الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصر	٤٢
حركة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في نجد	
المبحث الأول: الأصول الفكرية لدعوة محمد بن عبد الوهاب	٤٥
المبحث الثاني: نماذج من ممارسات الحركة الوهّابية وما أسموه الجهاد والغزو	٥٤
المبحث الثالث: ملحوظات على بعض الأصول الفكرية لحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من كتبهم الأصلية	٥٩
المبحث الرابع: خُلاصات من أقوال بعض العلماء والمفكرين عن الحركة الوهابية	٦٧
الفصل الثالث: الحركة الإسلامية الحديثة	٧٥
المبحث الأول: الآباء الداعمون للحركة الإسلامية في القرن العشرين	٧٧
المبحث الثاني: المؤسّسون الفاعلون– حسن البنّا	٩٢
المبحث الثالث: أبو الأعلى المودودي وكتاب المصطلحات الأربعة في القرآن	١١٠
المطلب الأول: أفكار وأطروحات المودودي	١١٠
المطلب الثاني: نقد هذا الفكر السياسي الانقلابي الغالي المتطرف بواسطة أهل العلم	١١٤
المبحث الرابع: سيد قطب	١٢٨
المطلب الأول: نصوص من كتب الشهيد سيد قطب تحمل تكفيرَ مسلمي اليوم	١٢٩
المطلب الثاني: موقف علماء الأمة من أطروحات سيد قطب	١٤٩
المطلب الثالث: بين سيد قطب والمودودي	١٥٢
الفصل الرابع: مراجعة التراث على القرآن الكريم والسُنة المتواترة ودور مؤسّسات التعليم	١٥٧
المبحث الأول: مراجعة التراث على القرآن والسُنة الثابتة	١٦٠
المبحث الثاني: التطبيع مع الغلو والتطرّف	١٩٣
المبحث الثالث: دور المؤسسات التعليمية في وضع استراتيجية لمواجهة أطروحات الغلو والتطرف	٢٠١
النتائج والتوصيّات	٢١٠

الخاتمة ٢١٤
المراجع ٢٢٣
قائمة المحتويات ٢٢٧